

التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

# تفسير سورة الأعراف

لفضيلة  
الدكتور محمد السيد طنطاوي  
الأستاذ بكلية أصول الدين  
جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
(بقية الجزء السابع والجزء الثامن)

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير تحليل لسورة الأعراف ، توخينا فيه أن نبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وهدايات شاملة ، وحكم جليلة ...

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، وأنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة -- مدينة نصر

١٤٠٥/٢/١٤ هـ - ١٩٨٤/١٢/٧ م

المؤلف

د. محمد سيد طنطاوي



## «تمهيد بين يدي السورة»

١ - سورة الأعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي ، وهي أطول سورة مكية في القرآن الكريم ، وعدد آياتها مائتان وست آيات .  
والرأي الراجح عند العلماء أنها جميعها مكية ، وقيل إن الآيات من ١٦٣-١٧٠ مدنية ، وكان نزولها بعد سورة «ص» .

٢ - ومناسبتها لسورة الأنعام التي قبلها أن سورة الأعراف تعتبر كالتفصيل لها ، فإن سورة الأنعام قد تسكمت عن أصول العقائد وكميات الدين كلاماً إجمالياً ، ثم جاءت سورة الأعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال ، خصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

٣ - مقاصدها ومميزاتها : وقد اشتملت سورة الأعراف على المقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها السور المكية ، كإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى أن يوم القيامة حق .. إلخ .  
والذي يتأمل هذه السورة الكريمة يراها تهتم بعرض الحقائق في أسلوبين بارزين فيها ، أحدهما أسلوب التذكير بالنعم ، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فتراه واضحاً في لفتها لأنظار الناس إلى ما يلبسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم في الأرض ، ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا المكون من خيرات سخرها الله ...  
وأما أسلوب التخويف بالعذاب فالسورة الكريمة زاخرة به ، تلمس ذلك في قصص نوح ، وهود ، وصالح . ولوط ، وشيب ، وموسى مع أقوامهم .  
وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساق لنا السورة

الكريمة ما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم ، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام  
الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم .

٤ - عرض إجمالي لها : ونحن عندما نستعرض سورة الأعراف نراها  
في الربع الأول منها تطالعنا بالحديث عن عظمة القرآن وتأمرنا بإتباعه ،  
وتحذرننا من مخالفته ، وتحثنا على المسارعة إلى العمل الصالح الذي تثقل به  
مولدنا يوم القيامة .

قال تعالى : « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتتذر به  
وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه  
أولياء قليلا ما تذكرون . . . . . »

ثم سأقت لنا بأسلوب منطقي بليغ قصة آدم مع إبليس ، وكيف أن إبليس  
قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة ، فلما أكل منها هو وزوجه ،  
« بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفا من عليهما من ورق الجنة . . . »

ثم وجهت إلى بني آدم نداء في أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة  
لوسوسة الشيطان .

قال تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة  
يفزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقيومه من حيث لا ترونهم  
إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . . . . . »

وفي الربع الثاني منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ،  
وتحبرنا بأن الله - تعالى - ، قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التي أحلها لنا ،  
وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق  
لنا في بضع آيات طاقبة المكذبين لرسل الله ، وكيف أن كل أمة من أمم  
الكفر عندما تقف بين يدي الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى : كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً  
قالت أخراهم لأولام ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال  
لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولام لأخراهم فما كان لكم علينا  
من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول : « والذين آمنوا وعملوا  
الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسمها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ... »  
وفي أواخر هذا الربع وفي أوائل الربع الثالث منها تراها تسوق لنا تلك  
المحاورات التي تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وتحكى لنا ما يحصل بينهم  
من نداءات ومجادلات ، تنتهي بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل  
التذلل والتوسل : « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، » .

فيجيئهم أصحاب الجنة : « إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم  
لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ... »

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه ،  
وتدعونا إلى شكره عليها لكي يزيدنا من فضله .

وفي الربع الرابع منها وكذلك في أواخر الثالث ، تحدثنا السورة الكريمة  
عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع  
قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه ... ولقد  
سأقت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات  
ما يهدى القلوب ، ويشفي الصدور ويحمل العقلاء على الامتجابه لهدى الأنبياء  
والمرسلين .

أما في الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله في خلقه ، ومن مظاهر  
هذه - السنن أنه - سبحانه - لا يعاقب قوماً إلا بعد الابتلاء والاختبار ،

وأن الناس لو آمنوا واتقوا لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى : « ذلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، » .

ثم عقب على ذلك ببيان أن الله - تعالى - قد ساق قصص السابقين لأعظة والاعتبار .

ثم أسهبت السورة في الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصت علينا في زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن - ما دار بينه وبين فرعون من محاورات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة : « آمننا برب العالمين . رب موسى وهارون ، » .

ثم حكى لنا ما لقيه موسى من قومه بني إسرائيل من تكذيب وجهالات ، مما يدل على أصالتهم في التمرد والعصيان ، وعراقتهم في الكفر والطغيان .

وفي الربع التاسع منها حدثنا عن العهد الذي أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم حضتنا على التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

أما في الربع العاشر والآخر فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، ووبخت المشركين على شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء .

« واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو  
والأصال ولا تمكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن  
عبادته ويسبحونه وله يسجدون ، .

وبعد : فهذا عرض سريع لما اشتملت عليه سورة الأعراف من توجيهات  
حكيمية ، وآداب عالية ، وعظات سامية ، واملنا بذلك نكون قد أعطينا  
القارئ الكريم فكرة بجملة عنها قال أن نفسرها تفسيراً تحليلياً مفصلاً . والله  
نسأل أن يلمنا جميعاً الرشد والسداد فيما نقول ونعمل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## التفسير

« الْمص ( ١ ) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَسْكُنُ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ( ٢ ) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ( ٣ ) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ( ٤ ) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ( ٥ ) فَاسْأَلْنِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَ الْمُرْسَلِينَ ( ٦ ) فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ( ٧ ) وَالْوِزْنَ يُوزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ( ٨ ) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ( ٩ ) » .

سورة الأعراف من السور التي ابتدأت ببعض حروف التهجى «المص»، ولم يسبقها في النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهي سور : ( ن ، ق ، ص ) ويبلغ عدد السور القرآنية التي ابتدأت بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة .

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود من حرف التهجى التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال اختلافهم في رأيين :

الرأى الأول : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المشابهة الذى استأثر الله بعلمه وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات

عنه - كما ذهب إليه الشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهما من العلماء ؛ فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : « إن لكل كتاب إمرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور ، وروى عن ابن عباس أنه قال ؛ « عجزت العلماء عن إدراكها ، وعن علي - رضي الله عنه - أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه ، » .

وإن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترقب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذي تنفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأي لا مجال لذكرها هنا .

أما الرأي الثاني : فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ حم السجدة ، حفظ إلى أن يصبح ، » ، وبدليل اشتها بعض السور بالتسمية بها ، كسورة ، ص ، وسورة ، يس ، إلخ .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة ؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه . وأيضا فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها في ذلك .

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .

٣ - وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى ، وبعضها من صفاته ، فمثلاً : د الم ، أصلها أنا الله أعلم .

٨ - وقيل إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال ، والتي أوصلها الإمام السيوطي في كتابه د الإتيان ، إلى أكثر من عشرين قولاً ،

٥ -- ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن ، فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو جنس ما تقولون منه كلامكم . ومنظراً ما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فهاؤا مثله ، أو ادعوا من شتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد بصحة هذا الرأي أن الآيات التي تلي هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل وكونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكثيراً ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة ، مثل قوله تعالى : د ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، أو ضمناً مثل قوله - تعالى - في أول سورة الأعراف ، ألمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذره ، وأيضاً فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها إثبات الرسالة من طريق هذا الكتاب المنزل .

هذه خلاصة موجزة لأراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض

السور القرآنية ، ومن أواد ، زيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب  
« البرهان ، للزركشي ، وإلى كتاب « الإلتقان ، للسيوطي (١) .

ثم مدح - سبحانه - الكتاب الذي أنزله على فيه - صلى الله عليه  
وسلم - فقال : « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » .

المراد بالكتاب جملة القرآن الكريم ، وقيل : المراد به هنا السورة . وحرج  
الصدر منيقه وغمه ، مأخوذ من الحرجة التي هي مجتمع الشجر المشتبك الملتف  
الذي لا يجد السالك فيه طريقا يخرج منه .

والمعنى ، هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية العقول ، فبلغ  
تعاليمه للناس ، ولا تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنه ، فانت  
عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ولقد حكى لنا القرآن أن المشركين وصفوا النبي - صلى الله عليه وسلم  
- بأنه ساحر . أو مجنون ، كما وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله ، فكان  
- صلى الله عليه وسلم - يضيق صدره لذلك .

قال تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

فالمقصود بقوله - تعالى - « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج  
منه » ، تقرية قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتثبيت فؤاده ، وتسلية عما  
يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل ، وإفهام الداعي إلى الله في كل زمان  
ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوى القلب في تحمل مهمته ، مطمئن  
البال على حسن عاقبته ، لا يتأثر بالمخالفة ، ولا يضيق صدره بالإنكار . . .

وقد فسر صاحب الكشاف الحرج بالشك فقال : « فلا يكن في صدرك  
حرج منه » ، أي شك منه كقوله : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك » ،

---

(١) راجع الإلتقان في علوم القرآن ج ٣ ص ١ للإمام السيوطي . طبعة

وسمى الشك حرجاً لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر  
منفسحة . أى : لا تشك في أنه منزل من الله ، ولا تتحرج من تبليغه ، لأنه  
كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذام . فكان يضيق صدره  
من الأداء ولا يندبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ، (١) .

وعلى أية حال فإن من فسر الحرج بالضيق راعى مدلول الكلمة الأصلية  
ومن فسره بالشك راعى الاستعمال المجازى ولذا قال الألوسى :

قوله - تعالى - : « فلا يكن في صدرك حرج منه ، أى : شك . وأصله  
الضيق ، واستعماله في الشك مجاز علاقته للزوم ، فإن الشاك يعتربه ضيق  
الصدر ، كما أن المتقين يعتربه انشراحه وانفساحه ، (٢) .

ولفظ « كتاب » يكون مبتدأ إذا جعلنا « المص » اسماً للسورة ، وإلا كان  
خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير : هذا كتاب . وتذكيره للتفخيم والتعظيم وجمله  
« أنزل إليك » صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل عليه .  
ولأنما قيل « أنزل » ولم يقل أنزله الله وأنزلناه . الإيذان بأن المنزل مستغن  
عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره .

ثم بين - سبحانه - العلة في إنزال الكتاب فقال : « لتنذر به وذكرى  
للمؤمنين » .

الإيذان : هو الإعلام المقترن بالتحذير من سوء عاقبة المخالفة .

أى : أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكرك به أهل  
الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ، لأنهم هم المستعدون لذلك ، وهم المتفتنون  
بإرشادك .

قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٨٦ ، طبعه دار العربي ببيروت .

(٢) تفسير الألوسى ج ٨ ص ٧٤ منبر دمشق .

وقال تعالى : « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » .  
وقال تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما محل ذكري ؟ قلت يحتمل الحركات الثلاث . النصب بإضمار فعلها . كأنه قيل : لتتذر به وتذكر تذكيرا ، لأن الذكري اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفا على كتاب ، أو لأنه خبر مبتدأ محذوف . والجر للعطف على محل لتتذر ، أي : الإذثار وللتذكر ، (١) .

ثم أمر القرآن الناس باتباع تعاليم الإسلام التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون ، .

أي : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وامثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لأن الذي أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم والعليم بما فيه مصلحتكم وحذار من أن تتركوا شريعة الإسلام التي تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية ، وتتخذوا معه شركاء يزينون لكم الأباطيل ، ويصرفونكم عن دينه القويم . فالآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين لحضهم على إفراد الله بالعبودية ، ونهيهم عن إلتباع أحد من الخلق فيما يتعلق بالأمور الدينية التي وضحتها الشريعة الإسلامية .

وقوله : - تعالى - « قليلا ما تذكرون » ، معناه : تذكر أ قليلا تتذكرون ، أو زمتا قليلا تتذكرون فهو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف . وما مزيدة لتأكيد القلة .

ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإذثار والتخويف جانبا من العذاب الذي نزل بمن سبقهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قاتلون . فما كان دعواهم  
إذا جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين .

كم هنا خبرية بمعنى كثير . وهي في محل رفع على الابتداء والجملة بعدها  
خبرها ، (ومن قرية) تمييز .

والقرية تطلق على مكان اجتماع الناس . وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا .  
وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه ييات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا .  
وقاتلون من القاتلة وهي القبولة وهي نوم نصف النهار . وقيل : هي الاستراحة  
نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . ودعواهم ، أى : دعائهم  
واستغاثتهم بربهم أو قلوبهم .

والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا  
في وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها في وقت  
استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم هعيب ، فما كان منهم عندما باغتهم  
العذاب في وقت اطمئنانهم وراحتهم إلا أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل  
التحسر والندم وطعما في الخلاص : إنا كنا ظالمين .

فإتان الآيتان الكريمتان توضحان باجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بنيتها  
وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، وتلك سنة الله التى لا تتخلف في أى  
زمان أو مكان . وأن الظالمين عندما يفتاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون  
إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم  
وتحسرتهم قد فات وقته ، وكان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم عندما جاءتهم  
النذر ، وقبل حلول العذاب .

ولذا قال ابن كثير : قل ابن جرير . في هذه الآية الدلالة الواضحة

في صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله :  
« ما هلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم » (١) .

و « أو ، في قوله » فجاءها بأسنا بياناً أو هم قائلون ، للتنويع ، أى أن بعضهم جاءهم عذابنا ليلاً وبعضهم جاءهم نهاراً عند استراحتهم . وإنما خص هذا الوقتان بنزول العذاب ، لأنهما وقتا غفلة ودعه واستراحة ، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأوجع .

ومن العبر التي نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذي يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهي ، ولا يأمن صفو الليالي ، ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه « لا يأمن مكر الله إلا للقوم الخاسرون » .

وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى . عقبه ببيان ما سيحل بهم من عذاب أخروى ، فقال :

« فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين : فلنقصد عليهم بهلم وما كنا غائبين » .

والمراد بالذين أرسل إليهم جميع الأمم التي بلغتها دعوة الرسل ، يسأل كل فرد منها عن رسوله إليه وعن تبليغه لدعوة الله ، ويسأل المرسلون عن التبليغ منهم وعن إجابة أقوامهم لهم ، وقد ورد ذلك في كثير من آيات القرآن . قال - تعالى - : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » .

وقال تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ »  
والمعنى : فلنسالن المرسل إليهم عما أجابوا به رسلكم الذين جاءوا هدايتهم ، ولنسالن المرسلين عما أجيبوا به من أقوامهم وعن تبليغهم لرسالات

(١) تفسير ابن كثير ٢٣ ص ٢٠١

الله ، ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم كل ما وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل ، لأننا لا نغيب عنا شيء من أحوالهم .

وعطفت جملة « فلنسالن ... » على ما قبلها بالفاء ، لأن هذا السؤال سيكون في الآخرة ، وما ذكر قبل ذلك من عقوبات هو آخر أمرهم في الدنيا . فالآية الكريمة بيان لعذابهم الأخرى إثر بيان عذابهم الدنيوى .

وأكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد ، لأن المخاطبين كانوا ينكرون البعث والجزاء .

فإن قيل : قد أخبر الله عنهم قبل ذلك أنهم قالوا عند نزول العذاب بهم « إنا كنا ظالمين » ، فلماذا يسألون يوم القيامة مع أنهم اعترفوا بظلمهم في الدنيا ؟

فالجواب : أنهم لما اعترفوا ستلوا بهد ذلك عن سبب هذا الظلم ، والمقصود من هذا السؤال تقرر بعهم وتوبيخهم لكفرهم وعنادهم .

فإن قيل : فما فائدة سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة ؟

فالجواب من فوائد الرد على من أنكروا من المشركين أن الرسل قد بلغوهم ، فقد حكى القرآن أن بعضهم قال : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، ومن فوائده - أيضا - مضاعفة الثواب طوؤا الرسل الكرام حيث إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم في التبشير والإنذار ، ولم يصدر عنهم تقصير قط . فسؤال المرسل إليهم إنما هو سؤال توبيخ وإفصاح ، وسؤال المرسلين إنما هو سؤال استشهاد بهم وإفصاح .

فإن قيل : هناك بعض الآيات تثبت أن المجرمين لن يسألوا يوم القيامة كما في قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ، وكما في قوله تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، فكيف نجمع بين هذه الآيات التي تنفي السؤال والآيات التي تثبته كما في قوله « فلنسالن الذين أرسل إليهم ... » ؟

فالجواب ، أن في يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون في موقف الحساب ولا يسألون في موقف العقاب . أو أن المراد بالسؤال في قوله « فلنسالن الذين .. » ، التوبيخ والتقريع . والمنقح في قوله « فيؤمنن لا يسأل عن ذنبه .. » ، سؤال الاستعلام ، أي أن المذنب لا يسأل يوم القيامة هل أذنبت أولاً ، لأن الله لا تخفى عليه خافية ، وإنما يسأل : لم فعلت كذا ؟ بعد أن يعرفه - سبحانه - بما فعله ، ويؤيد هذا القول قوله - تعالى - « فلننصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ، أي : فلنخبرنهم بما فعلوا لإخبارنا ناشئاً عن علم منا .

قال بعض العلماء : « والذنب مهمنا هنا ، أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تبكيت وتثديد ، فليس في السائل مظنة أن يجهل ، ولا في المسترول مظنة أن ينسركر : ، وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها وأعرض عنها في الوقت الذي كان يجديه الإقبال عليها والإيمان بها ، وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال في النجاة بوضع يد المجرم على جسم جريمته ، وهو في الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسول في القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله - تعالى - « فلننصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ، (١) .

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال :

« والوزن يومئذ الحق ، فمن نقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ، .

الوزن : عمل يعرف به قدر الشيء ، يقال : وزنته وزناً ووزنه . وهو

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٠٤ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

محمود شلتوت - رحمه الله - .

مبتدأ ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره . والحق صفته . أى : والوزن الحق يوم القيامة .

ومعنى الآيتين السكريميتين : والوزن الحق ثابت فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم . ويخبرهم جميعا بما كان منهم فى الدنيا ، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح ، فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعم ، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصى فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب .

قال تعالى : ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين .

وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها الحسنات والسيئات تأكيذا للحجة وإظهارا للنصفة ، وقطعا للمعذرة . قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة .

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السوى ، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال ، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كالتقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه . أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

والذى نراه أن من الواجب علينا أن نؤمن بان فى الآخرة وزنا للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء ، وأنه وزن أو ميزان يليق بها يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد ، أما كيفية هذا الوزن فرده إلى الله ، لأنه شئ استأثر الله بعلمه ، وعلينا أن نعنى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خير قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله .

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : ... فإن قلت : أليس الله - تعالى - يعلم مقادير أعمال العباد ، فما الحكمة فى وزنها ؟ قلت فيه حكم : منها ، إظهار

العدل وأن الله - تعالى - لا يظلم عباده ، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقب . ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة ، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه - سبحانه - أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ وفي صحائف الحفظلة الموكين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه ، (١) .

وقوله - تعالى - . . . فن ثقلت موازينه ، تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن ، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غيرها ، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ماسواها .

وقوله - تعالى - . . . بما كانوا بآياتنا يظلمون ، متعلق بخسروا ؛ أي : أن خسرتهم لأنفسهم في الآخرة كان سببه جحودهم لآيات الله واستمراءهم بها في الدنيا .

ثم حكى القرآن جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه فقال - تعالى - :

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَسْجُدْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) » .

مكناكم : من التمكين بمعنى التملك أو معناه . جعلنا لكم فيها معاشاً وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها ومعاش : جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وما تكون به الحياة .

والمعنى : ولقد جعلنا لكم - يا بني آدم - مكاناً وقراراً في الأرض ،

وأقدرناكم على التعرف فيها ، وأنشأنا لكم فيها أنواعا شتى من المطاعم والمشارب التي تتعشون بها عيشة راضية ، واسكن كثيرا منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران . فضلا عن ذلك فنحن الذين خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك .

أو المعنى نحن الذين خلقناكم في ظهر آدم . ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق ، ثم أمرنا بعد ذلك ملائكتنا بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين .

والسجود : لغة ، التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره ، وخصر في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وللعلماء أقوال في كيفية السجود الذي أمر الله به الملائكة لآدم وأرجح هذه الأقوال . أن السجود المأمور به في الآية يحمل على المعنى المعروف في اللغة . أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما ، وإقرارا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذي هو عبادة ، إذ عبادة غير الله شرك يتزده الملائكة عنه ، وعلى هذا الرأي سار علماء أهل السنة .

وقيل إن السجود كان لله . وآدم إنما كان كالقابلة يتوجه إليه الساجدون تحية له . وإلى هذا الرأي اتجه علماء المعتزلة ، وقد قالوا ذلك هربا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، إذ أن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة والصالحون من البشر أفضل من الملائكة . واحتجوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة في ذلك ، وقالت الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقابلة .

والذي نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح لأن ما ذهب إليه المعتز يبعد أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة ، وإظهار فضله عليهم

لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود : وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، هو لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكم .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس ، وفعله بلس . والراجح أنه اسم أعجمي ، ومنعه من الصرف للعلية والعجمة وهو كائن حي ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس ، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه . قال - تعالى - إنه براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم .

وللعلماء في كون إبليس من الملائكة أو لا قولان : أحدهما أنه كان منهم ، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم توجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ولما استحق الخزي والنكال ، ولأن الأصل في المستثنى أن يكون داخل تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .

والثاني : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

ففي هاتين الآيتين بيان لنعمتين عظيمتين من نعم الله على عباده : أولاهما : نعمة التمكين في الأرض واتخاذهم إياها وطناً مزوداً بضرورتها مما يحتاجون إليه في معاشهم وما به قوام حياتهم وكما لها ، وثانيهما : نعمة خلقهم من أب واحد ، تجمعهم به رحم واحدة ، وبسببها كانوا خلفاء في الأرض وفي عمارة السكون ، وفضلوا على كثير من الخلق ، فكان الواجب عليهم أن يقابلوهما بالشكر والإيمان .

ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التي حملت إبليس على عدم السجود  
لآدم فقال :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي  
مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) » .

أى : قال الله - تعالى - لأبليس : ما ألزمتك واضطرك إلى أن  
لا تسجد لآدم ؟ فالمنع مجاز عن الإلجام والاضطرار . أو ما حملك ودعاك إلى  
ألا تسجد ؟ فالمنع مجاز عن الحمل . والاستفهام للتوبيخ والتفريع .  
وذلك في قوله ، ألا تسجد ، مزيدة للتنبية على أن الموبخ عليه ترك  
السجود . وتوكيد لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه ، كأنه قيل : ما منعك  
أن تحقق السجود وتلزمه بنفسك .

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : « قال أنا خير منه خلقتني  
من نار وخلقته من طين » ، أى : قال إبليس أنا خير من آدم ، لأنى مخلوق  
من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين ، والأشرف لا يليق به  
الانقياد لمن هو دونه ،

قال ابن كثير : « وقول إبليس - لعنه الله - « أنا خير منه .. » إلخ  
من العذر الذى هو أكبر من الذنب ، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق  
من النار وآدم خلق من الطين ، فنظرا للعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى  
التشريف العظيم ، وهو أن الله - تعالى - خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ،  
وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص ، وهو قوله - تعالى - « فقهوا له ساجدين » ،  
فشد من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته ، وكان قياسه فاسداً  
لأن النار ليست أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزاقاة والأناة  
والثبوت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها

الإحراق والطيش والسرعة ، ولهذا خان إبليس عنصره ، ونمغ آدم عنصره  
بالجوع والإنابه والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله . وفي صحيح  
مسلم عن عائشة قالت :

« قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « خلقت الملائكة من نور ،  
وخلقت إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (١) .  
وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله :

« قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ  
مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) » .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس فاهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى  
وخرجك عن طاعى .

وقيل إن الضمير فى « منها » يعود على المنزلة التى كان فيها قبل أن يطرده  
الله من رحمته . أى : فاهبط من رتبة الملائكية التى كنت فيها إلى رتبة العناصر  
الشريرة .

وقيل : إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع من الأرض خلق  
فيها آدم - عليه السلام - .

وقوله : « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » معناه : فما يصح ولا يستقيم ولا  
يليق بهأنك أن تتكبر فيها ، لأنها ليست مسكانا للتكبرين وإنما هى مسكان  
للطيبين الخاشعين المتواضعين .

وقوله « فَاخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ومتفرع عليه .  
وقوله : « إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » تعليل للأمر بالخروج . أى : فخرج  
منها فانت من أهل الصغار والخوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٣ تصرف . تلخيص .

ثم حكى القرآن ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما أجاب الله به عليه  
« قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)  
قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ  
مِنَ آيَاتِي وَمِنَ خَلْفِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ  
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا وَمَا مَذْذُورًا لَعَنَ  
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) » .

أى : قال إبليس لله - تعالى - أخـرزى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم  
وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة . وقد أراد بذلك  
النجاة من الموت : إذ لاموت بعد البعث . كما أراد بذلك أن يجد فسحة من  
الإغواء لبني آدم .

وقوله : « أنظرنى ، مأخوذ من الإنظار بمعنى الإمهال والتأخير . تقول  
أنظرته بحق أنظره إنظاراً أى : أهلهته .

وقوله : « قال إنك من المنظرين ، معناه : قال الله - تعالى - له : إنك  
من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم كما جاء ذلك فى قوله - تعالى - « قال  
رب فأنظرتنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم .  
وهو - على الراجح - وقت النفخة الأولى فىموت كما يموت غيره . وقيل :  
المراد به الوقت المعلوم فى علم الله أنه يموت فيه .

قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل . لما له فى ذلك من  
الحكمة والإرادة والمشئبة التى لا تخالف ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو  
سريع الحساب .

ثم حكى القرآن ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : « قال  
فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . . . » .

الباء للقسم أو للسببية أى : فأقسم بإغوائك إياى ، أو بسبب إغوائك إياى ، لا ترصدن لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة ، كما يترصد قطاع الطرق للساثرين فيها فأصدنهم عنها وأحاول بكل السبل أن أصدفهم عن صراطك المستقيم ، وإن أتىكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم .

والإغواء : خلق الغى بمعنى الضلال . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل -- كرضى -- غوى ، إذا بشم من اللبن ففسدت معدته ، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال ، يقال : غوى يغوى غياً وغواية فهو غاو وغوى إذا وضل . وأغواه غيره : أضله .

وقوله « ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، زيادة بيان لحرص الشيطان على إضلال بنى آدم بشق الوسائل ، أى : آتيهم من الجهات الأربع التى إعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها . والمراد لاسوائهم ولاضلتهم بحيث لا أفتر عن ذلك ولا أياس .

وقيل إن معنى « ثم لا تينهم ومن بين أيديهم » أى : من قبل الآخرة لأنها مستقبله آتية ، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدي . « ومن خلفهم » أى من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة ولأنها فانية متروكة . وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، أى : من جهة حسناتهم وسديئاتهم بحيث أزين لهم السديئات وأزهدم فى الحسنات .

وقوله « ولا نجد أكرم شاكرين ، أى : مطيعين مستعملين لقوام وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله .

وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن كقوله - تعالى - : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » .

ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث متعددة فى التحذير من الشيطان وكيدته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا

لأنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، وجاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن سيرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - : ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقدم له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتند دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعدناه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماك وإثما مهمل المهاجر كالفرس في الطول - أي كالفرس المربوطة بالحبل - قال : فعدناه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتنتكح المرأة ويقسم المال ؟ قال فعدناه فجاهد : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وان غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقسته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن عبد الله بن عمر قال لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي . يقول . اللهم اني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم أسـتر عورتي وآمن روعاتي . اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتي .

ثم حكى القرآن ما توعد الله به الشيطان واتباعه فقال : وقال اخرج منها مذموماً ، أي . اخرج من الجنة او من تلك الروضة مهاناً محقراً .

يقال . ذامه بذامه ذاماً اذا عاقبه وحقره فهو مذموم ، وقوله . مدحوراً ، أي . مطروداً مبعداً . يقال . دحره دحراً ودحوراً طرده وأبعده .

ومن تبعك منهم لاملان جهنم منكم أجمعين ، أي . لمن أضاعك من الجن والإنس لاملان جهنم من كفاركم . كقوله - تعالى - « قال ذاهب فن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، .

واللام في قوله ( لمن ) لتوطئة القسم والجواب ( لأملأن جهنم منكم أجمعين )  
ثم حكى القرآن ما أمر الله - تعالى - به آدم فقال .

« وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا  
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) » .

صدر الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به ، وتخصيص الخطاب  
بآدم - عليه السلام - الإيذان بأصالته بالتلقي وتعاطي المأمور به .

وقوله ( اسكني ) من السكنى وهو اللبث والاقامة والاستقرار ، دون  
السكون الذي هو ضد الحركة .

والزوج . يطلق على الرجل والمرأة . والمراد به هنا حواء ، حيث تقول  
العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة .

والجنة . هي كل بستان ذي شجر متكاثف ملفف الأغصان ، يظلل ماتحته  
ويستره من الجن وهو ستر الشيء عن الحواس .

وجهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب التي أعدها الله  
للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر الى الذهن عند الاطلاق .

ويرى جمهور علماء المعتزلة ان المراد بها هنا بستان يمكن مرتفع من  
الأرض ، خلقه الله لاسكان آدم وزوجته . واختلافوا في مكانه ، فقبل انه  
بفلسطين ، وقبل بغيرها .

وقد ساق ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح » أدلة الفريقين دون ان  
يرجح شيئاً منها .

والذي نراه ان الأحوط والأسلم . الكف عن تعيينها وعن القطع به ،  
والية ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدي في التأويلات ، إذ ليس لهذه

المسألة تأثير في اعتقادنا .

وتوجيه الخطاب اليهما في قوله ( فكلوا من حيث شئتما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما في مباشرة المأمور به . أى . كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا واسعا من أى مكان أردتم .

ثم بين - سبحانه - أنه نهى عن الأكل من شجرة معينة فقال :-  
« ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

القرب : الدنو والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة . وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة في النهى عن الأكل ، إذ في النهى عن القرب من الشيء نهى عن فصله من باب أولى . وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلما ، فقال « فتكونا من الظالمين » ، وقد ظلمنا أنفسهما إذ أكلا منها ، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التي كانا يعيشان فيها عيشة راضية .

وقد تكلم العلماء كثيرا عن إسم هذه الشجرة ونوعها ف قيل هي التينة ، وقيل هي السنبله ، وقيل هي الكرمه . . . الخ الا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته في عدم النعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سياق القصة الى بيانه .

وقد أحسن ابن جرير في التعبير عن هذا المعنى فقال : « والصواب في ذلك ان يقال : ان الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل عن شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر اشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعبادة دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل شجرة العنب ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وان جهله جاهل لم يضره جهله به ، (١)

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال :

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَا كَمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

مَلَائِكَةٍ أَوْ نَكُونًا مِنْ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَامَتَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ  
 النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَاهُمَا بِزُرُورٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لُهُمَا سَوْءَاتُهُمَا  
 وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا  
 عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)  
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَنْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ  
 الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ  
 فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا  
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) .

قوله - تعالى - : فوسوس لهما الشيطان ، أى : ألقى إليهما إبليس  
 الوسوسة ، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى ، ومنه قيل لصوت الخلى .  
 وسواس . والمراد بها هنا : الخبيث الخفى الذى يلقىه الشيطان فى قلب الإنسان  
 ليقارف الذنب .

وقوله : لبيدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، . « وورى » من  
 الموارد وهى الستر . والسوءة . فرج الرجل والمرأة ، من سوء . وسميت  
 بذلك ، لأن انكشافها بسوء صاحبها . وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة  
 وإسقاط الجاه .

والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة  
 لتسكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها  
 من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وفى هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة  
 من أقبح الفواحش التى نهى الله - تعالى - عنها .

وقد حكى القائل : **أنا لست بسوءة ، وإنما خدعتهما بقوله :**

« ما نها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ، » .

أى قال لهما : ما نها كما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين .

وقوله : « إلا أن تكونا ملكين ، استثناء مفرع من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفي ليكون علة . أى كراهية أن تكونا ملكين .

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتب بالوسوسة أو بالقول المجرد، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : « وقاسمهما إني لسكنا لمن الناصحين ، أى : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسهون لما فيه منفعتهما .

قال الألوسى : إنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة ، لأن من يبارى أحداً في فعل يجد فيه . وقيل المفاعلة على بابها ، والقسم وقع من الجانبين ، لسكته اختلاف متعلقه ، فهو أقسم لهما على النصيح وهما أقسما له على القبول (١) .

ثم حكى القرآن كيف نجح إبليس في خداع آدم وحواء فقال : « فدلاهما بغرور ، . أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطمعهما في غير مطعم بسبب ماغرها به من القسم .

ودلاهما مأخوذ من التولية ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى في البئر بدلوه ليشرب من مائها ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء ، فيكون مدلياً فيها بغرور . والغرور إظهار النصيح مع إبطال الغش ، وأصله من غررت فلانا أى أصبت غرته وغفلته ونلت منه ما أريد .

ثم بين القرآن الآثار التي ترقت على هذه الخديعة من إبليس لها فقال : فلما ذاقا الشجرة بدت لها سوء أتهما وطفقا بخصفان عليهما من ورق الجنة ،  
أى : فلما خالفا أمر الله - تعالى - بأن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما ، وظهرت لهما عوراتهما . وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترهما .

وبخصفان : مأخوذ من الخسف ، وهو خرز طاقات النمل ونحوه بالصاق بعضها ببعض ، وفعله من باب ضرب .

قال بعض العلماء : ولعل المعنى - والله أعلم - أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر هما أنهما قد زلا ، وخلصا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سواة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما ، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليسترأ بها ، وما هما إذ ذاك حيلة سوى ذلك . فلما سمعا النداء الرباني بتقريرهما ولو مهما ألهما أن يتوبا إلى الله ويستغفرا من ذنبيهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم ، وقال لهما فقط أولهما ولدنيتهما ، أولهما وإبليس : اهبطوا من الجنة إلى الأرض ، لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته في الأرض ، وعماراة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى . ومنازعة عدوهم لهم فيها ، والله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ، (١) .

ثم بين القرآن ما قاله الله - تعالى - لها بعد أن خالفا أمره . فقال :  
« وناداهما ربهما ، بطريق العتاب والتوبيخ » ألم أنهما عن ملكا الشجرة .

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٢٥٥ . لفضيلة الأستاذ الشيخ حسين

محمد مخلوف .

أى عن الأكل منها ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، أى : ظاهر  
العداوة لا يفتر عن إبدائك وإيقاع الشر بكما .

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ، قال ربنا ظلمنا أنفسنا ،  
أى : أضررناها بالمعصية والمخالفة ، وإن لم تفقر لنا ، ما سلف من ذنوبنا  
، وترحمنا ، بقبول توبتنا ، لنكونن من الخاسرين ، أى : لنصيرن من الذين  
خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة .

وقد حكى القرآن ما رد الله به على آدم وحواء وإبليس ، فقال : قال اهبطوا ،  
أى من الجنة إلى ما عداها . وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما . وقيل  
الخطاب لهما فقط لقوله - سبحانه - فى آية أخرى ، قال اهبطا منها جميعا :  
والقصة واحدة ، وضمير الجمع لكونهما أصل البشر .

وجملة ، بعضكم لبعض عدو ، فى موضع الحال من فاعل اهبطوا ، والمعنى  
اهبطوا إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته ، وبين إبليس  
وشيعته ، ولكم فى الأرض مستقر ، أى موضع استقرار ، ومتاع ، أى :  
تمتع ومعيشة ، إلى حين ، أى : إلى حين انقضاء آجالكم .

، قال فيها ، أى فى الأرض ، تحيون ، تعيشون ، وفيها تموتون ومنها  
تخرجون ، أى : يوم القيامة للجزاء ، كما فى قوله - تعالى - منها خلفناكم فيها  
نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، .

وبعد أن قص القرآن على بنى آدم قصة خلقهم وتصويرهم وما جرى بين  
أيهم وبين إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدع آدم وزوجه خداعا ترتب عليه  
إخراجهما من الجنة . . . بعد كل ذلك أورد القرآن أربع نداءات لبنى آدم  
حضرهم فيها على تقوى الله وحذرهم من وسوسة الشيطان وذكركم بنعمه عليهم ،  
فقال فى النداء الأول :

« يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) » .

السوءة : العورة . والریش : لباس الزينة ، استعير من ریش الطائر ، لأنه لباسه وزينته . وقال الجوهري : الریش والرياش بمعنى كاللبس واللباس ، وهو اللباس الفاخر .

والمعنى : يا بني آدم تذكروا واعتبروا واشكروا الله على ما حباكم من نعم ، فإنه - سبحانه - قد هيا لكم سبيل الحصول على الملابس الذي تسترون به عوراتكم ، وتزینون به في مناسبات التجميل والتعبد .

والمراد يازال ما ذكر أنه خلق لبني آدم مادة هذا اللباس التي تتكون من القطن والصوف والحزير وما إليها ، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وصناعتها بالغزل والنسج والخياطة .

والتعبير بأنزلنا يفيد خصوصية البشر باللباس الذي يستر العورة ، وبالرياش التي يتزينون بها ، أي أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سوا أنفسكم ، ولباسا يزینكم ، لأن الزينة غرض صحيح وحبها من طبيعة البشر . قال - تعالى - : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » .

قال الجمل : « وقوله - تعالى - « وريشا » ، يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات . والمعنى : أنه وصف اللباس بوصفين : مواراة السوءة ، والزينة . ويحتمل أن يكون من باب عطف الشيء على غيره . أي : أنزلنا عليكم لباسا موصوفا بالمواراة ، ولباسا موصوفا بالزينة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن هنالك لباسا آخر أفضل وأكل من كل ذلك

فقال : « ولباس التقوى ذلك خير ، أى : أن اللباس الذى يصون النفس عن الدنيا والآرجاس ، ويستزها بالإيمان والعمل الصالح هو خير من كل لباس حتى يتزين به البشر . فاسم الإشارة هنا يعود على لباس التقوى . وقد عبر القرآن هنا عن التقوى بأنها لباس ، وعبر عنها فى موضع آخر بأنها زاد ، مشاكلة للسياق الذى وردت فيه هنا وهناك . وذلك من باب تجميع المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى وردت فيه ، وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « ولباس التقوى ، مبتدأ ، وخبره إما الجملة التى هى ذلك خير ، كأنه قيل : ولباس التقوى هى خير ؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر . وإما المفرد الذى هو خير ، وذلك صفة للمبتدأ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير ، (١) . وقوله - تعالى - « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ، معناه : ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهور العورات وخصف الورق عليها ، إظهاراً للثبوت فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن القستر باب عظيم من أبواب التقوى (٢) .

ثم أتبع القرآن النداء الأول بندا ، آخر مبالغة فى وعظ بنى آدم وتذكيرهم بفضل الله عليهم ، فقال - تعالى - :

« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ

وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

والمعنى : يا بني آدم لا يصر ففكم الشيطان عن طاعة الله ، بأن تمسكوه من  
أن يوقمكم في المعاصي كما أوقع أبو يكم من قبل فيها ، فكان ذلك سبباً في  
خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بهنيمها .

وقوله : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » جملة حالية من أبو يكم .  
أى أخرجهما من الجنة حال كونه فازعاً عنهما لباسهما . وأسند النزاع إلى  
الشيطان لأنه كان متسبباً فيه . ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال :  
« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » أى : إن الشيطان و جنوده يرونكم  
يا بني آدم وأتم لا ترونهم ، فالجملة الكريمة تعليل للنهي السابق . وهو قوله :  
« لا يفتننكم » . ، وتأكيد للتحذير ، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان  
أشد وأخوف ، ولذا قال مالك بن دينار : « إن عدواً يراك ولا تراهُ لشديد  
المؤنة إلا على من عصمه الله » .

وقوله « وقبيله » معطوف على الضمير المستتر في قوله « يراكم » المؤكد  
بقوله « هو » .

قال الآلوسى مالمخصه : والقضية مطلقة لا دائمة ، فلا تدل على ما ذهب إليه  
الممثلة من أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس أصلاً ولا يتمثلون . ويشهد  
لما قلنا ما صح من رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لأحدهم حين رام أن  
يشغله عن الصلاة فأمسكته الله منه ، وأراد أن يربطه في سارية من سوازي  
المسجد ثم ذكر دعوة سليمان في قوله : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي  
لأحد من بعدي » فتركا (١) .

ثم بين -- سبحانه -- سنته في خلقه فقال : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، . أى : إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون ، مسيطرين عليهم ، متمكنين من إغوائهم ، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن ، متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس .

وبذلك نرى أن الآية الأولى التي ورد فيها النداء الأول قد ذكرت بنى آدم بجانب من نعم الله عليهم ، ثم جاءت هذه الآية مصدرية بندا . آخر حذرتهم فيه من وسوسة الشيطان ومداخله حتى لا يقعوا فيها وقع فيه أبوه آدم من قبل . ثم حكى القرآن بعض القبائح التي كان يفعلها المشركون ، وورد على أكاذيبهم بما يدحضها فقال :

« وَإِذَا قَمَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ (٢٨) . »

الفاحشة : هى كل فعل قبيح يتنافى مع تعاليم الشريعة مثل الإشراك بالله ، والطواف بالبيت الحرام بدون لباس يستر العورة .

قال الإمام ابن كثير : « كانت العرب - معاءدا قريشا - لا يطوفون بالبيت الحرام فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش - وهم الحسب (١) - يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحسى ثوبا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبا جديدا ولا أعاره أحسى ثوبا طاف عريانا ، وربما كانت المرأة تطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئا ليستتره بعض الستر ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة ليلا ، وكان هذا شيئا قد ابتلاعه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله فانكروا

(١) سمو بالحس لأنهم تحمسوا فى دينهم أى : تشددوا . واخفاة : الشجاعة .

الله عليهم ذلك وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها (١) . . . . »

فآلية الكريمة تحكى عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يرتكبون القبائح التي نهى الله عنها كالطواف بالكعبة عرايا ، وكالإشراك بالله ، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، وبأن الله قد أمرهم بذلك ، ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفجح ، فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ، »

أي : قل يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل . أما أن العقل يناقضه ويكذبه . فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم في أن ما تفعلونه هو من أقيح القبائح بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله ، وأما أن النقل يناقضه ويكذبه فلأنه لم يثبت عن طريق الوحي أن الله أمر بهذا ، بل الثابت أن الله لا يأمر به ، لأن الفاحشة في ذاتها تجاوز حدود الله ، وانتهاك حرمانه ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرمانه ؟ والاستفهام في قوله - تعالى - « أتقولون . . . » ، للإيثار والتوبيخ وفيه معنى النسي .

ثم بين - سبحانه - ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه المشركين فيما افتروه فقال :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّنتَدُونَ (٣٠) . »

أى : قل لهم يا محمد إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها ، لأنه هو الوسط بين الإفراط والتفريط ، كما أنه - سبحانه - قد أمركم بأزفة تتوجهوا إليه وحده فى كل عبادة من عبادتكم ، وأن تكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه ، فإنه منح العباداة .

ثم ذكرهم - سبحانه - بمبدئهم ونهايتهم فقال : كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة .

أى : أن الذى قدر على ابتدائكم وإنشائكم ولم تسكروا شيئاً ، يقدر على إعادتكم ليجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة والطاعة .

قال صاحب المنار : وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز ؛ فإنها دعوى متضمنة الدليل ، بقشبيته الإعادة بالبده فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقاً وتسكرونا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين ، فريقاً هدام فى الدنيا فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده فى العبادة ودعائه مخلصين له الدين ، وفريقاً حق عليهم الضلالة لإنباعهم لإغراء الشيطان ، وإعراضهم عن طاعة الرحمن ، وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على مات عليه ، ومعنى حقت عليهم الضلالة ، ثبتت بذنوب أسبابها الكسبية ، لأنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها ، يدل على هذا تأويلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله : إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ، ومعنى اتخذوا الشياطين أولياء ، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات ، ويحسبون أنهم مهتدون فيما تلقىهم الشياطين إياه من الشبهات (١) .

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء ثالثاً إلى بنى آدم أمرهم فيه بالتمتع بالحلال ، وزيينه الله التى أخرجها لعباده بدون إسراف أو تبذير فقال - تعالى :

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا  
وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) » .

والمعنى : عليكم يا بني آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم ، وأن تتحلوا  
بلباس زينتكم كلها صليتم أو طفتم ، واحذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام  
وأتم عرايا :

قال القرطبي : « يا بني آدم هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها  
من كان يطوف من العرب بالبيت عرايا ، فإنه عام في كل مسجد للصلاة .  
لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (١) » .

وقال ابن عباس : « كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال  
بالنهار ، والنساء بالليل . يقولون : لا تطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فأنزل  
الله - تعالى - « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد (٢) » .

ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال :  
« وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » .

أى : كلوا من الماء كل الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا  
لا في زينتكم ولا في ما كلكم أو مشربكم . لأنه - سبحانه - يكره  
المسرفين .

قال الإمام ابن كثير : « قال بعض السلف : جمع الله الطب في  
نصف آية في قوله « وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » ، وقال البخاري : قال  
ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان : « سرف  
ومخيلة » (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٧٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٨ ص ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢١ .

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدي الله في عبادتهم وهم في أكل زينة ، فهذا - مثلاً - الإمام الحسن بن علي ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقيل له : يا بن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربي ، لأنه هو القائل : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، (١) .

وقال السكيتي : « كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون لحماً ولا دسماً يعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون أن يفعلوا كفعالهم فأنزل - تعالى - « وكأوا واشربوا ولا تسرفوا » .

فهذه الآية الكريمة تهدي الناس إلى ما يلصق معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التي أخلقها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المنتظمين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله في قوله - تعالى - بعد ذلك :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٣٢) .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبیت عرايا ، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أنتم بهذا الحكم الذي عن طريقه حرمت على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده ؟ فالاستفهام لإفكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا : خالصة يوم القيامة » .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركون فيها المشركون أيضاً ، أما في الآخرة فهي خالصة للمؤمنين ولا يشاركون فيها أحد من أشرك مع الله آلهة أخرى .

وقوله - تعالى - وكذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون ، معناه : مش  
تفصيلنا هذا الحكم ففصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من  
توجيهات سامية ، وآداب عالية ،  
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التي نهى عباده عن  
اقترافها فقال تعالى .

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ  
بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا  
عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ (٣٣) » .

والمعنى : قل يا محمد طؤلا . الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله ، قل لهم :  
إن ما حرمه الله عليكم في كتبه وعلى السنة رسله هو هذه الأنواع  
الجنس التي أولها ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ، أي : ما كان قبيحا  
من الأقوال والأفعال سواء أكان في السر أو العلن ، وثانيها وثالثها ( الإثم  
والبغى بغير الحق ) والإثم : هو الشيء القبيح الذي فعله يعتبر معصية ، والبغى :  
هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .

قال الإمام ابن كثير : ، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة  
بالفاعل نفسه ، والبغى هو التمدي على الناس ، فحرم الله هذا وهذا ، (١) .  
وقيد البغى بـ يكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك . إذ معناه في اللغة  
تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح . إذ تجاوز الحد في فساده .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير في مقابلة بغيه ، فإنه يسمى بغيا  
في الجملة . لكنه بحق ، وهو قول ضعيف لأن دفع البغى لا يسمى بغيا ، وإنما يسمى  
انتصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن ، ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم  
من سبيل ، .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٢ .

وقيل إن القيد هنا لإخراج الأمور التي ليس لهم فيها حقوق ، أو التي تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبدلونها عن رضی وارتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها ببذلها .

ورابع الأمور التي حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . »

أى : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان . وقوله « ما لم ينزل به سلطانا » بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل ، فالجلمة الكريمة قد اشتملت على التهمك بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .

وخامسها قوله - تعالى - « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، أى : حرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو المحملات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون ،

قال صاحب المنار : « ومن تأمل هذه الآية حق التأمل ، فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئا أو يوجب عليهم شيئا في دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب - أيضا - أن يقول : هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع ... » (١) .

وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه . عقب على ذلك بأن بين أن أجل الناس في هذه الدنيا محدود ، وأنهم إن آجلا أو عاجلا سوف يقفون أمام ربهم للحساب فقال :

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٣٤) .

أى : لسكل أمة من الأمم ولسكل جيل من الأجيال مدة من العمر محدودة  
فى علم الله ، فإذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم وفارقوا هذه الدنيا بدون  
أى تقديم أو تأخير .

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطاح عليه الناس من كونها ستين دقيقة ،  
ولأنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القلّة .

ثم أورد القرآن بعد ذلك النداء الرابع والأخير لبني آدم ، وحضهم فيه  
على اتباع الرسل ، والسير على الطريق المستقيم فقال :

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ  
آيَاتِي ، فَمَن اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)  
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) »

والمعنى : يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم ، يتلون عليكم آياتي  
التي أنزلتها عليهم إلهاديتكم فأمنوا بهم وعزروهم وانصروهم ، فإن من آمن  
بهم واتقى ما نهاه عنه ربه ، وأصلح نفسه وعمله ، فأولئك لا خوف عليهم يوم  
القيامة ، ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا ، أما الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا  
عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فالأيتان الكريمتان تخبران جميع بني آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة  
وأدوا الأمانة ، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم .  
قال ابن الجمل : ، وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحدا وهو  
النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل إلى كافة الخلق ،  
فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله يا بني  
آدم ، لأهل مكة .

في قوله « يا بني آدم ، عام لكل بني آدم ، وانما قال منكم اى : من جنسكم ومثلكم من بنى آدم ، لأن الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم ، لانهم يعرفونه ويفرقون أحواله ، فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدره أماله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له ، وحجة على من خالفه ، (١) .

ثم تعرض السورة المكرمة بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى خمس عشرة آية فتصور لنا قاسلوبيها البليغ المؤثر حال المشركين عند قبض أرواحهم ، وحالهم عند ما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين ، وتحكى لنا ما يجرى بين رؤساء المشركين ومره وسبيهم من مجادلات وملاععات ، ثم تعقب على ذلك ببيان ما اعده الله للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل ، ثم يختم هذه المشاهدة بالحديث عما يدور بين اصحاب الجنة واصحاب النار من محاورات ونداءات . استمع الى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بقرينة التصوير المعجزة فيقول .

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيُّنَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) . »

أى . لا أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله ، بأن اجل ما حرمه أو حرم ما أحله ، او كذب بآياته المزاية على أنبيائه ، والإستفهام فى قوله فمن اظلم . . . . للإنكار .

ثم بين - سبحانه - غابقتهم فقال - داوائك ينالهم نصيبهم من الكتاب ،

أى . أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينالهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من رزق وأجر ، وخير وشر ، والمراد بالكتاب ، كتاب الوحي الذى أنزل على الرسل ، فإنه يتضمن ما أعد الله للمؤمنين من ثواب وما أعد للكافرين من عقاب وقيل المراد به اللوح المحفوظ ، أى أولئك ينالهم نصيبهم المكتوب لهم فى كتاب المقادير ، وهو : اللوح المحفوظ .

ثم صور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال . « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا . إنما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا . ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، .

أى . أولئك المفترون ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم ، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم سألتهم سؤالاً توبيخ وتقريع : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا ، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لى تنقذكم من هذا الموقف العصيب ؟ وهذا يجيب المشركون على الملائكة بقولهم بحسرة وندامة . « ضلوا عنا ، أى : غابوا عنا وصرنا لاندري مكانهم ، ولا نرجو منهم خيراً أو نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لغير الله الواحد القهار .

وهنا يصدر عليهم قضاء الله العادل الذى صورته القرآن فى قوله :

« قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا آذركوا فيها جميعاً قالت أحرأمة لأولام ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتتهم عذاباً ضغفاً من النار ، قال : لكل ضغف ولكن لا تعلمون ( ٣٨ ) . »

أى : فال الله - تعالى - لأولئك المكذبين ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتم فى الكفر ، وشاركنكم فى الضلالة .

ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم فقال ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ،  
أى : كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها في الدين والملة ، فالأمة  
المتبوعة تلعن الأمة التابعة لأنها زادتها ضللا ، والأمة التابعة تلعن الأمة  
المتبوعة لأنها كانت سببا في عذابها .

ثم قال - تعالى - « حتى إذا ادركوا فيها جميعا ... » ، أى : حتى إذا  
ما اجتمعوا جميعا في النار الرؤساء والأتباع ، والأغنياء ، والفقراء ، قالت  
أحرام دخولا أو منزله وهم الأتباع ، لأولام دخولا أو منزلة وهم الزعماء  
والمتبوعين « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » .

أى : قال الأتباع : يا ربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب في ضلالتنا وهلاكنا ،  
فأذقمهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم .

وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهم والسخرية ، فيقول الله لهم :  
« قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون » ، أى : لكل منكم ومنهم عذاب  
مضاعف من النار . أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى ، وأهأ هم فبسبب إضلالهم  
لكم ولغيركم ، ولكنكم يامعشر المقلدين لا تعلمون ذلك لجهلكم وانطماس  
بصيرتكم .

« وَقَالَتْ أُولَآئِمُّ لِأَخْرَامِ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا  
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) » .

أى : قال الزعماء لاتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم : إنا وإياكم  
متساوون في استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء ، لأننا لم نجبركم على الكفر ،  
ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتهم بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب  
المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه في الدنيا من قبائح ومنكرات :  
فقرله - تعالى - « بما كُنتم تكسبون » ، بيان لأسباب الحكم عليهم .

وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب ، ما اكتسبوه من آثام :  
وما اجترحوه من سيئات .

ثم بين القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان عذاب المكذبين فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ  
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ،  
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ  
غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) » .

فهاتان الآيتان تصوران أكمل تصوير استحالة دخول المشركين الجنة  
بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها .

وقد فسر بعض العلماء قوله - تعالى - « لا تفتح لهم أبواب السماء »  
بمعنى ، لا تقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله كما ترفع أعمال الصالحين . قال -  
تعالى - « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » :

وفسره بعضهم بمعنى أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت ، لأنها  
قد أغلقت عليهم بسبب شركهم ، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين :

والمراد أن الكافرين عند موتهم وعند حسابهم يوم القيامة يكونون عنى  
غضب الله ولعنته بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من شرك وظلم .

أما قوله - تعالى - « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط »  
فعناه : أن هؤلاء المشركين لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء  
ولا يدخلون الجنة حتى يدخل ما هو مثل في الضخامة وهو الجمل الكبير ،  
فيما هو مثل في الضيق وهو ثقب الإبرة .

وفي قرأة « حتى يلج الجمل » - بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها -  
وهو الجمل الغليظ أى : لا يدخلون الجنة حتى يدخل ذلك الجمل الغليظ الذى

تربط به السفن في ذلك الثقب الصغير للابرة ، وهيات أن يحصل هذا ، فكما أنه غير ممكن حصول ذلك فكذلك غير ممكن دخول المشركين الجنة .

قال الجمل في حاشيته : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ولولج الدخول بشدة ، ولذلك يقال هو الدخول في ضيق فهو أخص من مطلق الدخول . والجمل معروف وهو الذكر من الإبل ، وسم الخياط ثقب الابرة ، وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبرها ، وثقب الابرة من أضييق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الابرة الضيق محالاً فثبت أن الموقوف على المحال محال . فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميتوس منه قطعاً (١) .

وقوله ، وكذلك نجزي المجرمين ، معناه : ومثل ذلك الجزاء الرهيب نجزي جنس المجرمين ، الذين صار الاجران وصفا لازما لهم .

ثم بين - سبحانه - ما أعد لهم في النار فقال : لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزي الظالمين ، .

جهنم : لاسم لدار العذاب . والمهاد : الفراش . والغواشي جمع غاشية ، وهي ما يغطي الشيء أي يغطيه ويستره .

أي : أن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، فهي من تحتهم بمنزلة الفراش ، ومن فوقهم بمثابة الغطاء ، ومثل ذلك الجزاء نجزي كل ظالم ومشرك . وإلى هنا تكون الآيات السكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر مصور حال المشركين عندما تقبض أرواحهم ، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب ، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضا ، وحالهم والعذاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهي مشاهد تفرع النفوس ، وتحمل العقلا . على الاستقامة والاهتداء .

ثم نرى السورة بعد ذلك نسوق لنا ما أعده الله للمؤمنين بعد أن بينت فيما سبق عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَفِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) » .

أى : والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة التي لا عسر فيها ولا مشقة . إذ لا يكاف الله نفساً إلا وسعها ، أولئك الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وجملة - لا نكفّف نفساً إلا وسعها - معترضة بين المبتدأ الذي هو قوله « والذين آمنوا ... » وبين الخبر الذي هو قوله « أولئك أصحاب الجنة ... » .

قال الجمل : « وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر ، لأنه من جنس هذا الكلام : لأنه - سبحانه - لما ذكر عملهم الصالح ، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة (١) » .

وقال صاحب الكشاف : « وجملة « لا نكفّف نفساً إلا وسعها » معترضة بين المبتدأ والخبر ، للترغيب في اكتساب مالا يكسبته وصف الواصف من

النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح (١) .

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه في الجنة من صفاء نفسى ونقاء قلبى فقال - تعالى - : « ونزغنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، أى : قلنا ما فى قلوبهم من تحاقد وعداوات فى الدنيا ، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة ، زاخرة بالتواد والتعاطف حالة كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فيرونها وهم فى غرفات قصورهم فيزداد سرورهم وحبورهم .

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . » . أى : قالوا شاكرين لله أفعمه ومننه : الحمد لله الذى هدانا فى الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح ، وأعطانا فى الآخرة هذا النعيم الجزيل ، وما كنا لنهتدى إلى ما نحن فيه من نعيم لولا أن هدانا الله إليه بفضله وتوفيقه . وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : ولولا هداية الله موجودة ما اهتدينا .

وقوله « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، جملة قسمية ، أى : والله لقد جاءت رسل ربنا فى الدنيا بالحق ، لأن ما أخبرونا به قد وجدنا مصداقه فى الآخرة .

« ونودوا أن تتركهم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، أى : ونودوا من قبل الخالق - عز وجل - بأن قيل لهم : تتركهم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا قد أورثكم الله إياها بسبب ما قدمتموه من عمل صالح .

فآية الكريمة صريحة فى أن الجنة قد ظفر بها المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة .

فإن قيل : إن هناك أحاديث صحيحة تصرح بأن دخول الجنة ليس بالعمل وإنما بفضل الله ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته .

فاجواب على ذلك أنه لا تنافي في الحقيقة ، لأن المراد أن العمل لا يوجب دخول الجنة ، بل الدخول بمحض فضل الله ، والعمل سبب عادي ظاهري . ونوضح أن الأعمال مهما عظمت فهي ثمن ضئيل بالنسبة لعظمة دخول الجنة ، فإن النعمة الآخروية سلامة غالبه جداً فمثل هذه المقابلة كمثل من يبيع قصوراً شامخة وضياعاً واسمة بدرهم واحد .

فإقبال البائع على هذه المبادلة ليس للمساواة بين العمل ونعمة الجنة ، بل لتفضله على المشتري ورحمته به ، فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الفانية وأمواهم الزائلة ثمناً لنعيم لا يبلى ، ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ قوله - تعالى - : **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةَ** ، **نِعْمَتِ الصَّفَقَةِ** ، **أَنْفُسُهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ هِيَ رِزْقُهُمْ ثُمَّ يُنْفِقُهُمْ عَلَيْهَا الْجَنَّةَ** .

على أنه - سبحانه - هو المتفضل في الحقيقة بالثمن والمثمن جميعاً . لا جرم كان دخول الجنة بفضله - سبحانه - وهو الموفق للعمل والمعين عليه . ويمكن أن يجاب - أيضاً - بأن الفوز بالجنة ونعيمها إنما هو بفضل الله والعمل جميعاً ، فقوله : **وَنُودُوا أَنْ تُلَكِمَ الْجَنَّةَ** أورشتموها بما كنتم تعملون ، أي : مع فضل الله - تعالى - ، وإنما لم يذكر ذلك لئلا يتكلموا . وقوله - صلى الله عليه وسلم - **لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ** .. أي مجرداً من فضل الله ، وإنما اقتصر على هذا لئلا يفتروا .

هذه أصح الآراء في الجمع بين الآية والحديث ، وهناك آراء أخرى لم نذكرها لضعفها .

وبعد هذه الموازنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين ، بدأ القرآن

يسوق لنا مشهداً آخر من الحوار الذي يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

استمع إلى سورة الأعراف وهي تحكى لنا هذا المشهد المؤثر بأسلوبها العجيب فتقول :

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَمُ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا : مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْفَسْتُمْ لَأَيِّبَاتِهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، اذْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَايَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا الْقَاءَ يَوْمَئِذٍ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) » .

والمعنى : أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعبير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ومن الجزاء

فهل وجدتم أتم ما وعدكم ربكم حقا من العقاب وسوء المصير ؟ قالوا : نعم .  
أى : قال أهل النار : نعم وجدنا ما وعد ربنا على السنة رسله حقا .

وهذا النداء وإنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار  
في النار .

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن الجمع إذا  
قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد . فمكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان  
يعرفه من الكفار في دار الدنيا .

وعبر بالماضى مع أن هذا النداء يكون في الآخرة لتحقيق الوقوع  
وتأكده .

وكلمة « حقا » نصبت في الموضعين على الحالية ، وقيل إنها مفعول ثان  
ويكون وجد بمعنى علم .

ثم آيين - سبحانه - ماجرى بعد ذلك فقال : « فأذن مؤذن بينهم ، أن لعنة  
الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا .. » .

التأذين : رفع الصوت بالإعلام بالشىء . واللعنة : الطرد والإبعاد مع  
الحزى والإهانة .

والمعنى : بعد أن قامت الحججة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى  
مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم ، الذين من  
صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لها أن تكون  
معوجة غير مستقيمة حتى لا يقبها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب  
وعقاب جاحدون مكذبون .

وفي قوله « فأذن مؤذن بينهم » نكر المؤذن ؛ لأن معرفته غير مقصودة  
بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لا تعلم علما صحيحا إلا

بالتوقيف المستند إلى الوحي ، وما ورد في ذلك فهو من الآثار التي لا يعتمد عليها .

قال بعض العلماء : وفي هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهي نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الحزى والنكال ، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقفا في مقابلة النعيم الذي صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقفا وفي هذا نرى صورة من الحديث الذي يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب . ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر . ويصور الحكم النافذ الذي لا مرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من أهو ولا ماصوته ولا كيف يلقي أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا الأذن في نفوس سامعه .

ولأنه لتصوير قوي بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الاليمية المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هي تسجيل اللعنة عليهم ، والطرده والحرامان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان المائلة في ظلمهم الذي كونه صدم عن سبيل الله ، وبغيتهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء ، (١) .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول :

« وبينهما حجاب ، أي : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما ، ويمتنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر ،

ويرى بعض العلماء أن هذا الحجاب هو السور الذي ذكره الله في قوله

(١) تفسير القرآن الكريم من لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود

شلتوت .

- تعالى - في سورة الحديد . د يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

ثم قال - تعالى - د وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون .

الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها .  
ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذي يكون في أعلى الرقبة .

والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز - أى فى أعلاه - رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التي وصفهم الله بها فى كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها بالنسبة لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم ونحية لكم د لم يدخلوها وهم يطمعون .

هذا ، وللعلماء أقوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثني عشر قولاً من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقدرى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما وواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : د سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : د أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون .

وعن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وخلفت بهم الجنة ،

حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم (١) ، .  
وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأي ذكرها الإمام ابن كثير في  
تفسيره (٢) . .

أما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف  
الخلق وعدوهم كالأنبياء والصدّيقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد  
وإلى أبي مجلز فقد قال مجاهد : أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء ،  
وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة  
وأهل النار . ومعنى كونهم رجالاً - في قول أبي مجلز أي : في صورتهم .

وقد رجح بعض العلماء الرأي الثاني فقال : وليس أصحاب الأعراف  
من تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء في بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم  
من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم للمستكبرين :  
« ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، فإن هذا الكلام لا يصدر  
إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكاتبتهم . . . ولذا أرجح أن رجال  
الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس ، وفي مقدمتهم الأنبياء  
والرسل . . . » (٣) . .

والذي نراه : أن هناك حجاباً بين الجنة والنار ، الله أعلم بحقيقته ، وأن  
هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة ، وأن هذا الحجاب  
من فوقه رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه ،  
يحيون أهل الجنة ويقرعون أهل النار ، وأن هؤلاء الرجال - يغلب على  
ظننا - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) تفسير القرآن الكريم ج ٣ ص ٥٠٣ لفَضِيلَةَ الأَسْتَاذِ الأَكْبَرِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَلْتُوتِ

العلماء من السلف والخلف، ولأن الآثار تؤيده، ولذا قال ابن كثير، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله (١).

وقوله لم يدخلوها وهم يطعمون، فيه وجهان: أحدهما أنه في أصحاب الأعراف، أي أن أصحاب الأعراف عندما راوا أهل الجنة سلخوا عليهم حال كونهم أي أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون في دخولها مترقبون له.

وثانيهما: أنه في أصحاب الجنة: أي: أنهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب. وكريم اللقاء.

ثم قال - تعالى - : وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

أي: وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة أصحاب النار قالوا مستعيزين بالله من سوء ما رأوا من أحوالهم: يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين، ولا تجعلنا وإياهم في هذا المسكن المهيمن.

قال صاحب المنار: وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبني للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة، بل بصارف بصرفهم إليها قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ثم قال: والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦.

وسبائهم وكانوا موقوفين مجهولاً مصيرهم ... (١) ، ،

ثم بين - سبحانه - ما يقوله أهل الأعراف لرؤس الكفر في هذا الموقف العصيب فقال : و نادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون .

أى : و نادى أصحاب الأعراف رجالاً من أهل النار كانوا أصحاب وجهة وغنى في الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقرير ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الأرض يغير الحق . فقد صرتم في الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين .

وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل و نادوا ، لزيادة التقرير ، و كون هذا النداء خاصاً في موضوع خاص فكان مستقلاً .

وقوله : يعرفونهم بسيماهم ، أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلّة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التي كانوا يعرفونهم بها في الدنيا .

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أتم تحزنون .

أى : أن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين في الأرض ثم يقولون لرؤس الكفر الذين كانوا يعدونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم في الدنيا أن الله - تعالى - لا ينالهم برحمة في الآخرة لأنه لم يعطهم في الدنيا مثل ما أعطاهم من مال وبنين وسلطان .

وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم : أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أتم تحزنون .

أتى : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في المستقبل ، ولا أتم  
تحزنون على ما خلقتموه في الدنيا .

وقيل : إن قوله - تعالى - « ادخلوا .. » من كلام أصحاب الأعراف  
- أيضاً ، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم :  
أمكثوا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهداً ختامياً من مشاهد يوم  
القيامة تدور محاوراة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :

« وفادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما  
رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين اتخذوا دينهم هواً  
ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا  
بآياتنا يحدون ، .

إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة .

والمعنى : أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهين - أخذوا  
يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء .  
أو مما رزقكم الله من طعام ، لكي نستعين بهما على ما نحن فيه من سوء ووجيم .  
وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم :  
إن الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً ، أى  
الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتتات نواهيه - مادة  
للسخرية والتلوى ، وصرف الوقت فيم لا يفيد ، فأصبح الدين - فى زعمهم -  
صوراً ورسوماً لاتزكى نفساً ، ولاتنظر قلباً ، ولاتهدى حلقاً وهم فوق ذلك  
قد غرتهم الحياة الدنيا - أى شغلهم بمتعتها ولدائدتها وزينتها عن كل ما يقربهم  
إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .

وقوله - تعالى - « فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ، معاه فاليوم  
نفعل بهم فعل النامى » .

بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لإياتنا التي جاءتهم بها أنبياءهم .

فالذي يمان في حق الله - تعالى - مستعمل في لازمه ، بمعنى ، أن الله لا يجيب دعاهم ، ولا يرحم ضدهم وذلهم ، بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل الصالح في الدنيا .

وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد متنوعة لأحوال يوم القيامة ، فتحكي لنا أحوال الكافرين ، كما تصرر لنا ما أعدده الله للمؤمنين . كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات ومناقشات فيها العبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن الكريم في إياته للرسالة المحمدية عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة وبيان سوء عاقبة من كذب به ، فقال :

« وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) » .

قوله : « وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ ... الخ » ،

التفصيل : عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصلا بعضها عن بعض بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : ولقد جئنا هؤلاء الناس على لسالك يا محمد بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلا حكيما ، وبيننا فيه ما هم في حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بيانا شافيا يؤدي إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه .

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم هواً وأعباءً ، وقيل هو لهم وللمؤمنين ، والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

وقوله : على علم ، حال من فاعل : فصلناه ، ، أى : فصلناه على أكل وجه وأحسنه حالة كوننا عالمين بذلك أتم العلم .

فالمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما فى هذا القرآن من أحكام وتفصيل وهداية ، لم يحصل عبثاً ، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة ، ومنافع متزايدة .

وقرأ ابن محييص : فصلناه ، بالاضداد الممجمة . أى : فصلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك .

وقوله : هدى ورحمة ، حال من مفعول : فصلناه ، وقرئ . بالجر على البداية من : علم ، وبالرفع على إضمار المبتدأ ، أى . هو هدى عظيم ورحمة واسعة .

وقال : : لقوم يؤمنون ، لأنهم هم المنتفعون بهديه ، والمستجيبون لتوجيهاته ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الذى أنزله الله هداية ورحمة فقال : : هل ينظرون إلا تأويله ، .

النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية . فالمراد بينظرون ينتظرون ويتوقعون ، وتأويل الشيء : مرجعه ومصيره الذى يشول إليه ذلك الشيء . والاستفهام بمعنى النفي .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شيء ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا ما يشول إليه أمر هذا الكتاب وماتجلى عنه عاقبته ، من تبين صدقه ، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب ، وانتصار المؤمنين به واندهار المرصين عنه .

فإن قيل : كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به ؟

فالجواب : أنهم قائمة على ما صحت العقيدة ، صابروا كالمنتظرين له ،

لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاته ما وعدوا به ، وسينزل بهم  
لا عالة .

ثم بين - سبحانه - حالهم يوم الحساب فقال : يوم يأتي تأويله يقول  
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا  
أو نرد فنجعلها غير الذي كنا نعمل ، .

أى : يوم يأتي يوم القيامة الذي أخبر عنه القرآن ، والذي يقف الناس  
فيه أمام خالقهم للحساب ، يقول هؤلاء الكافرون الذين جحدوا هذا اليوم  
عندما تكشف لهم الحقائق ، فدجأت رسل ربنا بالحق ، وتبين صدقهم  
ولكننا نحن الذين كذبناهم وسرنا في طريق الضلال ، فهل لنا من شفعاء  
فيشفعوا لنا في هذه الساعة العصيبة ودفعوا عنا ما نحن فيه من كرب وبلاء ،  
أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملاً صالحاً غير الذي كنا نعمله من الجحود واللغو  
واللعب .

أى : أنه لا طريق لنا إلى الخلاص ما نحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد  
هذين الأمرين ، وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب ،  
أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل .

فالجملة السكريمة تصور حسرتهم يوم القيامة تصويراً يهز المشاعر ، ويحمل  
العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .

والاستفهام في قوله « فهل لنا من شفعاء... » للتمنى والتحسر ، ومن  
مزيدة للاستغراق والتأكيد وشفعاء مبتدأ مؤخر وأنا خير مقدم .

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : قد خسروا أنفسهم وضل عنهم  
ما كانوا يفترور ، .

أى : قد خسروا هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً أنفسهم ، بسبب  
إشراكهم بالله ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من أن أصنامهم  
ستشفع لهم يوم الجزاء ، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين في دعواهم .

ثم ذكر -- سبحانه -- جانباً من يدبغ صنعه ، وجليل قدرته ، امكئذ يدل  
على أنه هو المعبود الحق فقال -- تعالى :

« إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِمِيشًا ، وَالشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) . »

أى : إن سيدكم ومالككم الذى يجب عليكم أن تفرّدوه بالعبادة هو الله  
الذى أنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام .  
قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت ، فان أريد هذا فالمعنى فى ستة  
أوقات . وإن أريد المتعارف وهو زمان دلوغ الشمس إلى غروبها فالمعنى فى  
ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات فيقدر فيه مضاف (١) .  
وقال صاحب فتح البيان : د قيل هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل من أيام  
الآخرة ، قال ابن عباس : يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وقال سعيد  
ابن جبير ، د كان الله قادراً على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لحظة  
ولحظة ، فخلقهن فى ستة أيام تعالماً لخلقهن لتثبت والتأنى فى الأمور ، (٢) .

وقوله « ثم استوى على العرش ، قال الشيخ القاسمى :  
ورد الاستواء على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ، ومنه  
« استوت على الجودي ، وبمعنى القصد ومنه « ثم استوى إلى السماء ومردخان »  
وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب  
استوى إلى يخاصمى أى : قصد لى وأقبل على . ويأنى بمعنى الاستيلاء :

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٧٠٠ .

(٢) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان ج ٢ ص ٣٤٢ .

قال الشاعر : « قد استوى بشر على العراق » ويأتى بمعنى العلو ومنه هذه الآية .

قال البخارى فى آخر صحيحه فى كتاب الرد على الجهمية فى باب قوله - تعالى - « وكان عرشه على الماء » ، قال مجاهد : استوى وعلا على العرش .

وقال ابن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول ، « الرحمن على العرش استوى » ، أى : عز وارففع (١) .

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر إلا بالإسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محولا .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة انصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، وأنه يجب الإيمان بها كما وردت وتفويض الملم بحقيقتها إليه - تعالى - .

فمن أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى - « الرحمن على العرش استوى » ، أنها قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازي : إن هذا المذهب هو الذى تقول به ونختاره  
ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه - أى الاستواء - عن ظاهره  
لاستحالة ، وأن المراد منه - كما قال الإمام القفال - أنه استقام ملكه ، واطرد  
أمره ونفذ حكمه - تعالى - فى مخلوقاته ، والله - تعالى - دل على ذاته وصفاته  
وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم تدبيرها  
على عظامته وكمال قدرته وذلك مشروط بنفى التشبيه ، وبشهاد بذلك قوله - تعالى -  
« ثم استوى على العرش يدبر الأمر » (١) .

هذا وللعلماء كلام ، كلام طويل حول هذه المسألة التى تتعلق بالمحكم  
والمتشابه فليرجع إليها من شاء :

وقوله : « يغشى الليل النهار ، التغشية التغطية والستر ، أى : يجعل الليل  
غاشيا للنهار مغطيا له فيذهب بنوره ، ويصير الكون مظلماً به أن كان مضيئاً  
ويجعل النهار غاشيا ليل فيصير الكون مضيئاً به أن كان مظلماً ، وفى ذلك  
من منافع الناس ما فيه وبه تتم الحياة ، وهو دليل القدرة والحكمة والتدبير  
من الإله العلى العظيم .

ولم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاءً بأحد الأمرين عن الآخر  
كقوله - تعالى - « صر ابل تقيمكم الحر ، أو لدلالة الحال عليه ، أو لأن اللفظ  
يحتملها : يجعل الليل مفعولاً أول والنهار مفعولاً ثانياً أو بالعكس .

والآية الكريمة من باب أعطيت زيدا عمراً ، لأن كلا من الليل والنهار  
يصلاح أن يكون غاشياً ومغشياً ، فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوي والنهار  
هو المفعول من غير عكس لتلا يلتبس المعنى .

وقد قال - تعالى - في آية أخرى ، يكور الليل على النهار ويكور  
النهار على الليل ، .

وقوله ، يطلبه حثيثاً ، أى : يطلب الليل النهار أو كلاهما يطلب الآخر  
طلباً سريعاً حتى يلحقه ويدركه ، وهو كناية عن أن أحدهما يأتي عقب الآخر  
ويخلفه بلا فاصل ، فكأنه يطلبه طلباً سريعاً لا يفتّر عنه حتى يلحقه .

والحث على الشيء : الحوض عليه . يقال : حث الفرس على العدو ويحثه حثاً  
صاح به أو وكزه برجل أو ضرب . وذهب حثيثاً أى : مسرعاً .

والجملة حال من الليل ، لأنه هو المتحدث عنه أو حال من النهار أى :  
مطلوب حثيثاً ، أو من كل منهما على الرأى الثانى الذى يفسر ، يطلبه حثيثاً ،  
بأن كليهما يطلب الآخر .

وقوله : ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، أى : وخلق  
الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذلللات خاضعات لتصرفه ، منقادات  
لمشيئته ، كأنهن مميزات أمرن فانقدن ، فتسمية ذلك أمراً على سبيل التشبيه .

قال الألوسى : وبصح حمل الأمر على الإرادة . أى : هذه الأجرام  
العظيمة والمخلوقات البدئية منقادة لإرادته : ومنهم من حمل الأمر على الأمر  
الكلامى وقال : إنه - سبحانه - أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة  
المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء ولا مانع أن يعطيها الله إدراكاً  
وفهما لذلك (١) ، .

وقرأ الجمهور بنصب الألفاظ الثلاثة على أنها معطوفة على السموات ، أى :  
خلق السموات وخلق الشمس والقمر والنجوم . . . وينصب ، مسخرات ،  
أيضاً على أنها حال من هذه الثلاثة .

وقرأ أبو عامر بالرفع فى جميعها على الابتداء والخبر مسخرات . .

وقوله «ألا له الخلق والأمر» ألا : أداة يفتتح بها القول الذي يهتم بشأنه لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله . والخلق : إيجاد الشيء . من العدم . والأمر : التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه . فهو - سبحانه - الخالق والمدير للعالم على حسب إرادته وحكمته لا شريك له في ذلك .

وهذه الجملة الكريمة كالتذييل للكلام السابق أي : أنه - سبحانه - هو الذي خالق الأشياء كلها ويدخل في ذلك السموات والأرض وغيرهما ، وهو الذي دبر هذا الكون على حسب إرادته ويدخل في ذلك ما أشار إليه بقوله «مسخرات بأمره» .

وقوله : «تبارك الله رب العالمين» .

تبارك . فعل ماض لا يتصرف ، أي لم يجيء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل . من البركة بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة . أي : كثر خيره وإحسانه وتعاضمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .

أو من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ في موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شيء ثبت ودام فقد برك . أي : ثبت ودام خيره على خلقه .

أو المعنى : تعالى وتعظم وارتفع وتنزه عن كل نقص الله رب العالمين . ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء الخالص فقال :

«اذْهَبُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَسَدِّينَ (٥٥) وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)» .

التضرع : تفعل من الضراعة وهي الذلة والاستكانة . يقال : ضرع

فلان ضراعة : أى خشع وذل وخضع . ويقال : تضرع ، أى أظهر الضراعة والخضوع ، وتضرعاً حال من الضمير فى ادعوا .

الخفية : بضم الخاء وكسرهما - مصدر خفي كمرض بمعنى اختفى أى : استتر وتوارى ولم يجهر بدعائه .

والمعنى : سلوا ربكم - أيها الناس - حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار وإستتار فإنه - سبحانه - يسمع الدعاء ، ويجيب المضطر ، ويكشف السوء . وهو القادر على إيصالها إليكم ، وغيره عن ذلك عاجز .

ولنما أمر الله عباده بالإكثار من الدعاء فى ضراعة وإسرار ، لأن الدعاء ماهر إلا اتجاه إلى الله بقلب سليم ، واستعانة به بإخلاص ويقين ، لى يدفع المكروه ، ويمنح الخير ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا شك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسنى درجات الصفاء الروحى ، والنقاء النفسى ، ويكون كذلك مؤدياً لأشرف ألوان العبادة والخضوع لله الواحد القهار ، معترفاً لنفسه بالعجز والنقص . ولربه بالقدرة والسكال<sup>(١)</sup> .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن من آداب الدعاء الخشوع والإسرار واستدلوا على ذلك بأحاديث وآثار متعددة منها ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكننا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أي أرفقوا بها وأقصروا من

---

(١) راجع كتابنا الدعاء ، معناه ، فضله ، آدابه . شروطه ، فوائده . أ - من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية الكتاب السادس والعشرون .

الصياح -- فإنكم لاتدعون أصم ولا غائماً . إنه ، معكم . إنه سميع قريب .  
تبارك اسمه وتعالى جده ، (١) .

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إن كان  
الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ، لقد فقه الفقه  
الكثير وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته  
وعنده الزور -- أي الزوار - وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواما ما كان  
على الأرض عمل يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان  
المسلمون يحمدون في الدعا وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم  
وبين ربهم . وذلك أن الله - تعالى - يقول : وادعوا ربكم تضرعاً وخفية ،  
وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً ، ضى فعله وهو زكريا فقال : ذكر رحمة  
ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً ، (٢) .

وقال ابن المنير : وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقتراحه بالتضرع  
في الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله بالدعاء . وإن دعاه  
لاتضرع فيه ولا خشوع لقليل الجردى . فكذلك دعاه لاخفية فيه ولا  
وقار يصحبه . وترى كثيراً من أهل زمانك يعمدون على الصراخ والصياح  
في الدعاء خصوصاً في الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشتد ، وتستك المسامع  
وتستد ، ويهتز الداعي بالناس . ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت  
في الدعاء وفي المسجد ، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لاتحصل مع خفض  
الصوت ، ورعاية سمع الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هي إلا  
رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد ،  
لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء . وفي خفض

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في كتاب الجهاد . باب ما ينكره من  
رفع الصوت : وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٧٧ .

الصوت به أوفر وأرفى وأزكى فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثيرة من الخلق. اللهم أرنا الحق حتما وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، (١).

وقوله : فإنه لا يجب للمعتدين، الاعتداء بتجاوز الحد أى : لا يجب للمتجاوزين حدودهم في كل شيء. ويدخل فيه الاعتداء في الدعاء دخولا أوليا .  
ومن مظاهر الاعتداء في الدعاء أن يترك هذين الأمرين وهما التضرع والاختفاء . كذلك من مظاهر الاعتداء في الدعاء أن يتكلف فيه .

روى أبو داود في سننه أن سعد أبي وقاص سمع ابنا له يدعئ ويقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونجرا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال له يابني : إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء ثم قرأ سعد هذه الآية : ادعوا ربكم تضرعا وخفية . . ، وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، (٢) .

ثم نهى الله عباده عن كل لون من ألوان المعاصي فقال : ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، أى : لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان .

روى أبو الشيخ عن أبي بكر بن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - : ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، فقال : أن الله بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم -

(١) الانتصاف على الكشاف لابن المنير ج ٢ ص ١١٠ من تفسير الكشاف :

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الوتر باب الدعاء حديث رقم ١٤٨٠ طبعة

عليه وسلم - إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله به ، فمن دعا إلى خلاف  
ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو من المفسدين في الأرض .

قال صاحب المنار : وقال - سبحانه - « ولا تفسدوا في الأرض بعد  
إصلاحها ، لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحاً من الإفساد على الإفساد ، فإن  
وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سنته .  
فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه ؟ ولذا خص بالذكروا لا فالإفساد  
مذموم ومنهى عنه في كل حال ... » (١)

وقوله : « وادعوه خوفاً وطمعاً » .

أصل الخوف : انزعاج في الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع  
في المستقبل .

والطمع : توقع أمر محبوب يحصل في المستقبل .

والمعنى : وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره ، طامعين  
في رحمته وإحسانه وفي إجابته لدعائكم تفضلاً منه وكرماً .

قال الجمل : فإن قلت : قال في أول الآية : ادعوا ربكم تضرعاً وخفية  
وقال هنا : « وادعوه خوفاً وطمعاً » ، وهذا عطف للشيء على نفسه فما فائدة  
ذلك ؟ قلت : الفائدة أن المراد بقوله - تعالى - « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » ،  
بيان شرطين من شروط الدعاء ، وبقوله « وادعوه خوفاً وطمعاً » بيان  
شرطين آخرين ، والمعنى : كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء  
في أعمالكم ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم  
ثم فيما ، (٢) .

وقوله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، أى إن رحمته - تعالى -

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٦١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٥١ .

وإنعامه على عباده قريب من المتقين لأعمالهم ، المخلصين فيها ، لأن الجراء من جنس العمل ، فمن أحسن عبادته قال عليها الثواب الجزيل ، ومن أحسن في أمور دنياه كان أهلاً للنجاح في مسعاه ، ومن أحسن في دعائه كان جديراً بالقبول والاجابة .

قال الشيخ القاسمي : وفي الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته - سبحانه - وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيها تذكير على ما يتوسل به إلى الاجابة وهو الاحسان في القول والعمل .

قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين ، (١) .

هذا ، وكلمة « قريب » وقعت خبراً للرحمة ، ومن قواعد النحو أن يكون الخبر مطابقاً للمبتدأ في التذكير والتأنيث ، فكان مقتضى هذه القواعد أن يقال إن رحمة الله قريبة . وقد ذكر العلماء في تعليل ذلك بضعة عشر وجهاً ، منها أن تذكير « قريب » صفة لمحذوف أي أمر قريب ، أو لأن كلمة الرحمة مؤنثة تأنيثاً مجازياً ، فجاز في خبرها التذكير والتأنيث أو لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكور فيكون تذكير قريب باعتبار ذلك وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره هنا .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو الخالق للسماوات والأرض ، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأن رحمته قريبه من المحسنين الذين يكثرون من التضرع لإيابه بخشوع وإخلاص .

بعد كل ذلك تحدث - سبحانه - عن بعض مظاهر رحمته التي تتجلى في إرسال الرياح ، وإنزال المطر ، وعن بعض مظاهر قدرته التي تتجلى في بعث

(١) تفسير القاسمي ج ٧ ص ٢٧٥٦ .

الموتى للحساب ، وفي هداية من يريد ددايته وإضلال من يريد ضلالته فقال  
- تعالى - :

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا  
أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ  
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)  
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ  
إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) . »

وقوله - تعالى - « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ،  
معطوف على ما سبق من قوله - تعالى - « إن ربكم الله الذى خلق السموات  
والأرض ... » لبيان مظاهر قدرته ورحمته . وقرأ حمزة والكسائي « والريح »  
بالافراد :

و« بشرا » - بضم فسكون الشين - مخفف و« بشرا » - بضمتين - جمع  
بشير كمنذر وذنير ، أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .  
وقرأ أهل المدينة والبصرة « نشرا » - بضم النون والشين - جمع نشور  
-- كصبور وصبر -- بمعنى ناشر من النشر ضد الطى ، وفعول بمعنى فاعل  
بتردد جمعه .

وهناك قراءات أخرى غير ذلك .

والمعنى وهو - سبحانه - الذى يرسل الرياح مبشرات عباده بقرب نزول  
الغيث الذى به حياة الناس .

وقوله « بين يدي رحمته » أى بين يدي المطر الذى هو من أبرز مظاهر  
رحمة الله بعباده .

قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو

الولى الحميد .

وقال تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، » .

قال الامام الرازى : وقوله « بين يدي رحمته ، من حسن أنواع المجاز ، والسبب في ذلك أن اليدين يستعملهما العرب في معنى التقدمة على سبيل المجاز . يقال : إن الفتن تحصل بين يدي الساعة يريدون قبيلها ، كذلك مما حسن هذا المجاز أن يدي الانسان متقدمة ، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز لأجل هذا المشابهة ، فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لاجرم عبر عنه بهذا اللفظ ، (١) .

وقوله : « حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، حتى : غاية لقوله « يرسل » . وأقلت : أى حملت . وحقيقة أقله رجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله . لأن الحامل لشيء يستقل ما يحمله بزعم أن ما يحمله قليل .

ود سحابا ، أى : غيما ، سمي بذلك لانسحابه في الهواء ، وهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحدة بالتاء كتمر وتمررة ، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع .

ود ثقالا ، جمع ثقيلة من الثقل - كعنب - ضد الخفة . يقال : ثقل الشيء - كسكرم - ثقلا وثقالة فهو ثقيل وهى ثقيلة .

والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول الغيث ، حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا من كثرة ما فيها من الماء ، سقناه - أى السحاب - إلى « بلد ميت ، أى إلى أرض لا نبات فيها ولا مرعى ، فاهتزت وربت وأخرجت النبات والمرعى . فأطلق - سبحانه - الموت على الأرض

(١) تفسير لفخر الرازى ج ٤ ص ٢٤٢ طبعة المطبعة الشرقية سنة

التي لا نبات فيها ، وأطلق الحياة على الأرض الزاخرة بالنبات والمرعى لأن حياتها بذلك .

قال - تعالى - وراقه الذي يوعل الرياح فتشير سحابا فسقناه إلى بلد ميت . فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور .

وقوله : د فأزلنا به الماء ، أى : فأزلنا في هذا البلد الميت الماء الذى تحمله السحاب . فالباء فى د به ، للظرفية .

وقيل إن الضمير فى د به ، للسحاب ، أى : فأزلنا بالسحاب الماء وعليه فتكون الياء للسببية .

وقوله : د فأخرجنا به من كل الثمرات ، أى : فأخرجنا بهذا الماء من كل أنواع الثمرات المعتادة فى كل بلد ، تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها .

فليس المراد أن كل بلد ميت تخرج منه جميع أنواع الثمار التى خلقها الله ، متى نزل به الماء ، وإنما المراد أن كل بلد تخرج منه الثمار التى تناسب تربته على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه ، إذ من المشاهد أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه ، وهذا أدل على قدرة الله ، وواسع رحمته .

وقوله : د كذلك نخرج الموتى لعلمكم تذكرون ، إشارة إلى إخراج الثمرات ، أو إلى إحياء البلد الميت .

أى : مثل ما أحيينا الأرض بعد موتها وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات بسبب نزول الماء عليها ، ونخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء فى اليوم الآخر لنحاسبهم على أعمالهم ، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم . وهذا رد على منكرى البعث بدليل ملزم ، لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليها ، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم .

وقوله : د لعلمكم تذكرون ، تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكير . أى : لعلمكم تذكرون وتعتبرون بما وصفنا لكم فيزول إنكاركم للبعث والحساب .

قال الشيخ القاسمي : « من أحكام الآية كما قال الجشمي : أنها تدل على عظم نعمة الله علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج في إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر ، وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراج ما من غير ماء فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما شاهدته ، لضرب من المصلحة ديننا ودنيا . » (١)

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لاختلاف استعداد البشر للخير والشر فقال :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، .  
أصل النكد : العسر القليل الذي لا يخرج إلا بعناء ومشقة . يقال : نكد عيشه ينكد ، اشتد وعسر . ونكدت البر : قل ماؤها ، ومنه : رجل نكد ، ونكد وأنكد : شؤم عسر . وهم أنكد ومنها كيد .

وقال في اللسان : والنكد : قلة العطاء ، قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت ، أعطيت نافها نكدا  
أى : عطاء قليلا لا جدوى منه .

والمعنى : أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وأفيا حسنا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره ، والذي خبث من الأرض كالسبخة منها لا يخرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة .

فالأول مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو طيب وعمله طيب . والثاني مثل للكافر ، يقول : هو خبيث وعمله خبيث ، وفيهما بيان أن القرآن يشمر في القلوب التي تشبه الأرض الطيبة التربة ، ولا يشمر في القلوب التي تشبه الأرض الرديئة السبخة .

وإنك إذا منصوب على أنه حال أو على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير:  
والذي خبث لا يخرج إلا خروجا فكدا .

قال صاحب الكشف : ، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من  
المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم  
خبث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ،  
كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا تمثيل  
واقع على أثر ذكر المطر . وإنزله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على  
طريق الاستطراد ، (١) .

وقريب من معنى الآية الكريمة ما رواه الشيخان عن أبي موسى قال : قال  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل  
الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب  
الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنتفع الله بها الناس فشربوها وسقوا  
وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت  
كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل وعلم . ومثل من  
لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، (٢) .

وقوله : ذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ، أصل التصريف : تبديل  
حال بحال ومنه تصريف الرياح . والآيات : الدلائل الدالة على قدرة الله .  
أى : مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة  
على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جليلة واضحه لقوم يشكرون  
نعمنا ، باستعمالها فيما خلقت له ، فيستحقون مزيدنا منها وإنابتنا عليها .

وعبر هنا بالشكر لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد،

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، وأخرجه مسلم في كتاب الغضائيل .

بينما عبر في الآية السابقة عليها بالتذكر لأدب ، ووضوحها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله - تعالى - في إحياء الموتى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن عظمة القرآن الكريم وعن وجوب اتباعه ، وعن قصة آدم وما فيها من عبر وعظات ، وعمّا أحله الله وحرّمه ، وعمّا يدور بين أهل النار من مجادلات وآهات ، وعن العاقبة الطيبة التي أعدها الله للصالحين من عباده ، وعن المحاورات التي تدور بينهم وبين أهل النار ، ثم عن مظاهر قدرة الله ، وأدلة وحدانيته . . .

وبعد كل ذلك تبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم الخالية ، والقرى المهلكة التي جاء ذكرها في مطلعها .

• وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ، •

فتحدثنا السورة الكريمة عن مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم حديثا مستفيضاً عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل .

وقد تكلم الإمام الرازي عن فوائدها . قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم في هذه السورة بعد أن تحدثت عن أدلة توحيده وربوبيته - سبحانه - فقال :  
اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلالات ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة اتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيّنات ليس من خواص قوم النبي - صلى الله عليه وسلم - بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمّت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه - تعالى - يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويسكر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يمهّل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أمياً . وما طالع كتاباً ولا تلمذ على أستاذ . فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله - تعالى - ، (١) .

والآن فلنستمع بتدبر واعتبار إلى السورة الكريمة وهي تحدثنا عن قصة نوح مع قومه فتقول :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبَلَيْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَجْمِنَاهُ وَالَّذِينَ نَمَّوْا فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) » .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الشريفة سنة ١٣٢٤ هـ

تلك هي قصة نوح مع قومه كما وردت في هذه السورة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلاً في سورة هود ، والمؤمنون ، ونوح وغيرها .  
وقوله : « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، جواب قسم محذوف ، أى : والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، والدليل على هذا القسم وجود لامة في بدء الجملة .  
قال الألوسى : « واطرد استعمال هذه اللام مع قد في الماضي - على ما قال الزخشرى - وقل الاكتفاء بها وحدها . والسر في ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها ، فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه ، لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد ، (١) .

ويبنى نسب نوح - عليه السلام - إلى شِيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاث وأربعين موضعاً .

وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد يقم الرجل بين الأجناب فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحاً أيدهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين مانوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما زال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودأ وصواعاً وبنوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٨ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٢ .

وقوله ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غيره ، حكاية لما وجهه  
نوح لقومه من إرشادات ، أي : قال لهم بتلطف وأدب تلك الكلمة التي  
وجهها كل رسول لمن أرسل إليهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فإنه هو  
المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

وكلمة « غيره » قرئت بالحر كات الثلاث ، بالرفع على أنها صفة لإله باعتبار  
عله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية . وقرأ الكسائي بالجر باعتبار  
اللفظ ، وقرئ بالنصب على الاستثناء بمعنى ، ما لکم من إله إلا إياه .

ثم حكى القرآن أن نوحا قد حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب ، وأظهر  
لهم شفقتهم وخوفه عليهم فقال : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ،  
أي : إني أخاف عليكم إذا ما صرتم في طريق الكفر والضلال وتركتم عبادة  
الله وحده عذاب يوم عظيم . ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه  
ولتكميل الإنذار .

قال صاحب الكشف : فإن قلت ما موقع الجفتين بعد قوله « اعبدوا الله ،  
قلت : الأولى - وهي ما لکم من إله غيره - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ،  
والثانية وهي - إني أخاف . . . الخ - بيان الداعي إلى عبادته لأنه هو  
المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ،  
أو يوم نزول العذاب بهم وهو الطوفان ، (١) ،

بهذا الأسلوب اقنع المذهب دعا نوح قومه إلى وحدانية الله فكيف كان  
ردم عليه ؟

لقد ردوا عليه ردا سلبيا حكا القرآن في قوله : « قال الملائكة من قومه إذا  
انراك في ضلال مبين . . . »

الملائكة : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون

مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء . والملا : امم جمع لا واحد له من لفظه : كرهط .

والجملة الكريمة مستأنفة ، كأنه قيل فإذا أتوا له ؟ فقيل : قال الملا . . . الخ والرؤية هنا قلبية ومفعولها هما الضمير والظرف ، وقيل : بصرية فيكون الظرف في موضع الحال . أم : قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله : إنا لنراك بأرك لنا بعبادة الله وحده وترك آلهتنا في انحراف بين عن طريق الحق والرشاد .

يقال : ضل الطريق يضل وضل عنه ضللا وضلالة ، أى زال عنه فلم يهتد إليه ، وجعلوا الضلال ظرفا له ، في ضلال مبین ، مبالغة في وصفهم له بذلك وزادوا في المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرية بأن وإلام التأكيد .

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . وهكذا حال الفجار ، لأنما يرون الأبرار في ضلالة ، كقوله - تعالى - « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (١) » .

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم (٢) » ، إلى غير ذلك من الآيات (٣) .

ويرد نوح على قومه بأسلوب عف مهذب ، فينتفي عن نفسه الضلالة ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول - كما حكى القرآن عنه - : « قال يا قوم ليس بى ضلالة ، أى : قال نوح لقومه مستميلا لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شيء مما يسمى بالضلال فضلا عن الضلال المبين الذى ريمتمونى به ، فقد نفي الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه ، لأن التاء

(١) سورة المطففين الآية ٢٢ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

فى - ضلالة - للمرة الواحدة منه ، ونفى الأذى أبلغ من نفي الأعلى ، والمقام يقتضى ذلك ، لأنهم لما بالغوا فى رميه بالضلال المبين ، رد عليهم بما يبرته من أى لون من ألوانه . وفى تقديم الظرف (بى) تعريض بأنهم هم فى ضلال واضح .

ثم نفى على نفي الضلالة عنه بإثبات مقابله لنفسه وهى الهداية والتبليغ عن الله - تعالى - فقال : (ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) .

فأنت ترى أن نوحاً - عليه السلام - بعد أن نفي عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة :

أولها : قوله : (ولكنى رسول من رب العالمين) أى : لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه لحسب ، ولكنى فضلا عن ذلك رسول من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر .

قال الجمل : (وقد جاءت لكن هنا أحسن مجى . لأنها بين تقيضين ، لأن الإنسان لا يخلو عن أحد شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تنجم مع الضلال و (من رب العالمين) صفة لرسول ومن لا ابتداء الغاية (١) .

وثانيها : قوله : أبلغكم رسالات ربي) أى : أبلغكم ما أوحاه الله إلى من الأوامر والنواهي ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والذنائر ، والعبادات والمعاملات ،

قال الألومى : وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة ، رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات - ، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس

- عليه السلام - (١) والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير رسالته وتقرير أحكامها .

وثالثها : قوله : ( وأنصح لکم ) أى : أبلغكم جميع تكاليف الله وأحمرى مافيه صلاحكم وخيركم فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه .

وأنصح : مأخوذ من النصح - وهو كما قال القرطبي - لإخلاص النية من شوائب الفساد ، يقال : نصحت له نصيحة ونصاحة - أى أرشدته إلى مافيه صلاحه - ويقال : رجل فاضح الجيب ، أى : نقي القلب . والناصح الخالص من العسل وغيره ، مثل الناصع . وكل شيء خلص فقد نصح (٢) .

والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصح ، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها ، وأما النصح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرم من عذاب الله إن عصوه .

وأما الصفة الرابعة فى قوله ( وأعلم من الله ما لا تعلمون ) أى : أبلغكم رسالات ربي وأنصح لکم عن إخلاص ، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحي أشياء لا علم لکم بها ، لأن الله قد خصنى بها .

أو المعنى : وأعلم من قدرة الله الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، ما لا تعلمونه فانا أحذركم عن علم ، وأفذرکم عن بيته ( فاتقوا الله وأطيعون ) .

قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً نصيحاً فاصحاً عالمياً بالله لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن

(١) تفسير الألوسى - ٨٧ ص ١٥٢

(٢) تفسير القرطبي - ٧ ص ٢٢٤

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفى ما كانوا وأكثر جمعاً : أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ، ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد<sup>(١)</sup> .

وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع ، وبين لهم وظيفته أكل بيان أخذ ينسكركم عليهم استبعادهم أن يخصه الله بالنبوة فقال :

( أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واتتقوا ، ولعلكم ترحمون ) الهمزة في أول الجملة للاستفهام الإنكاري ، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة .

والمعنى : أكنذبتكم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أي موعظة من ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم ، تعرفون مولده ونشأته .

ولقد حكى القرآن عن قوم فوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم ، قال - تعالى - :

( فقال الملائكة الذين استكبروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة ماسمعا بهم هذا في آياتنا الأولى )<sup>(٢)</sup> .

وقوله ( لينذركم ) علة المبعي . أي : وليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصي .

وقوله ( ولتتقوا ) علة ثانية مرتبة على العلة التي قبلها ، أي : ولتوجد منكم التقوى ، وهي الخشية من الله بسبب الإنذار .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٣

وقوله « ولعلكم ترحمون »، علة ثالثة مترتبة على التي قبلها . أى : ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم .

قال بعض العلماء : وهذا : الترتيب فى غاية الحسن ، لأن المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار التقوى . ومن التقوى الفوز بالرحمة .

وفائدة حرف الترجى « ولعلكم » ، التفسير على عزة المطلب ، وأن التقوى غير موجبة للرحمة ، بل هى منوطة بفضل الله ، وأن المتقى يذنبى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله ، (١) .

وإلى هنا نكون قد عرفنا أسلوب نوح فى دعواته كما جاء فى هذه السورة الكريمة ، فإذا كان موقف قومه ؟

لقد صرحت السورة الكريمة بأن موقفهم كان قبيحا ، ولذا عوقبوا بما يناسب جرمهم قال - تعالى - « فكذبوه » ، أى : فكذب قوم نوح نبيهم ومرشدهم نوحا ، وأصرروا على التكذيب مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع أنه مكث فيهم ، ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فكانت نتيجة ذلك - كما حكى القرآن :

« فأنجيناها والذين معه فى الفلك » ، أى : فأنجيناها من الغرق هو والذين آمنوا معه بأن حملناهم فى السفينة التى صنعها . والفاء فى « فأنجيناها » ، للسببية .

قيل كان عدد الذين آمنوا معه أربعين رجلاً وأربعين امرأة . وقيل غير ذلك ، والقرآن قد صرح بأن المؤمنين به كانوا قلة ، فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

« وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين » ، عمين : جمع عم صفة مشبهة ، يقال : هو عم - كفرح - لأعمى البصيرة .

(١) حاشية الجمل ج ٢ ص ١٥٥ .

أى : وأغرقنا بالطوفان أولئك الذين كذبوا بآياتنا من قوم نوح لأنهم  
كافوا قوماً عمى البصائر عن الحق والإيمان . لا ننتفع فيهم المواعظ ولم يجد  
مهم التذكير .

وهذه سنة الله في خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين ، وسوء العذاب  
للجاحدين .

ثم تحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ،  
فية - قول :

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ  
غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ، إِنَّا لَنرَاكَ  
فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي  
سَفَاهَةٌ وَلَا كُنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أبلغكم رسالاتِ  
رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ  
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ  
قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ  
تَفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا  
فَأَتَيْنَا بِمَا آمَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ  
مِن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ  
وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، فانتظروا إني مَعَكُمْ مِنَ  
الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ

تلك هي قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكمتها سورة الأعراف .  
وقد وردت - أيضاً - في سور أخرى ، منها : سورة هود ، والشعراء ،  
والأحقاف ... الخ .

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام كما قال بعض المؤرخين -  
فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن بن عاد بن عوص بن إرم بن سام  
ابن نوح<sup>(١)</sup> .

وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذي كان يسمى بهذا الاسم -  
وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حقف وهو الرمل  
الكثير المائل .

وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، فأرسل الله إليهم هوداً لهدايتهم .  
ويقال بأن هوداً - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية  
فهم قوم صالح ، وبينهما مائة سنة .

وقوله ، وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله  
غيره ، أخرج معطوف على قوله - تعالى - ، لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، والمعنى :  
وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : يا قوم  
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ووصفه بأنه أخاهم لأنه من قبيلتهم نسباً ، أو لأنه أخوهم في الإنسانية .  
ثم حكى القرآن أن هوداً أنكركم على قومه عبادتهم لغير الله ، وحضهم على  
إفراده بالعبادة فقال : ، أفلا تتقون ، أي : أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا  
عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه .

قال أبو حيان : وفي قوله ، أفلا تتقون ، استعطاف وتحضيض على تحصيل

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ للشيخ عبد الوهاب النجار .

التقوى . ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم : « إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعمد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم ، أفلا تتقون ، . والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خيره في الدنيا ، فقوله ، أفلا تتقون ، إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة (١) ، .

و كأمعاء عظم على هؤلاء الطغاة أن يستنكر عليهم هود - عليه السلام - عبادتهم لغير الله ، فردوا عليه رداً قبيحاً حكاه القرآن في قوله :  
« قال الملأ الذين كفروا من قومه ، إنا لنراك في سفاهة ، أى : قال الأغنياء الذين كفروا من قوم هود له : إنا لنراك متمكناً في خفة العقل ، راسخاً فيها ، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر . وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، فقد أرادوا أنه متمكن فيها ، غير متمكن عنها .

وأصل السفه : الخفة والرقة والتحرك والاضطراب . يقال : ثوب سفيفه إذا كان رديء النسيج خفيفة ، أو كان بالياً رقيقاً : تسففت الريح الشجر : مالت به . وزمام سفيفه : كثير الاضطراب لمنازعة الناقة إياه . وشاع السفه في خفة العقل وضعف الرأى .

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه بل أضافوا إلى ذلك قولهم : « وإنا لنظنك من الكاذبين ، أى : وإنا لنظنك من الكاذبين في دعوى التبليغ عن الله تعالى .

وأكدوا ظنهم الآثم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم في الإساءة إليه . ويرجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقته ، لأنهم لو قالوا وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين ، لكانوا كاذبين على أنفسهم في ذلك ، لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة .

ومن بلاغة القرآن وإضافه في أحكامه أنه قيّد القائلين لهود هذا القول  
الباطل بأنهم ، الملائ الذين كفروا من قومه ، ليخرج منهم الملائ - أى الأشراف  
الذين آمنوا من قومه .

وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته  
بأسلوب حكيم فقال :

يا قوم ليس بي سفاهة ، أى : ليس بي أى نوع من أنواع السفاهة  
كما تزعمون ، وليكنى رسول من رب العالمين : أبلغكم رسالات ربي وأما لكم  
ناصح أمين ، .

فأنت ترى أن هودا في هذا الرد الحكيم على قومه ، قد فني عن نفسه تهمة  
السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة ، ثم بين لهم بعد  
ذلك وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى أخوته لهم  
ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله - ،  
ولنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوؤهم :

قال صاحب الكشاف : وفي إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من  
نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابواهم به من الكلام الصادر عن الحلم  
والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس  
وأسفهم - في إجاباتهم هذه أدب حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله -  
عز وجل - ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يفضون عنهم  
ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ، (١) .

ونلمس من خلال التعبير القرآني أن قوم هود قد تمجبا من اختصاص  
هود بالرسالة كما تعجب قوم نوح من قبلهم من ذلك ، فأخذ هود - عليه السلام -  
في إزالة هذا العجب من نفوسهم ، فقال :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ليندكم » أى : أ كذبتهم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه ، إن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة فقد إقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدكم إلى الطريق القويم و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم أخذ في تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لاكى يحملهم على شكر الله فقال :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » أى : اذكروا بتأدل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم ووجودهم .

قال الآلومى ما ملخصه : و « إذ منسوب على المفعولية لقوله « اذكروا » أى : اذكروا هذا الوقت المشتعل على النعم الجسام . وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للبالغة فى إيجاب ذكره ، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضر ابتفاصيله . وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : لانهجبوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » (١)

ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : « وزادكم فى الخلق بسطة » أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة : أو زادكم بسطة فى قوة أبدانكم وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الإستخلاف وتلك القوة ، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهى روايات ضعيفة لا يعتد بها ، ولذا أصر بنا عنها ، ويكفيها أن القرآن الكريم

قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما في قوله - تعالى - :  
« وإذا بطشتم جبارين » وكما في قوله : « كأنهم أعجاز نخل خالوية » .

ثم كرر هود - عليه السلام - تذكيرهم بنعم الله فقال : « فاذكروا  
آلاء الله لعلكم تفاجرون » . أي : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم  
تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم ، ولن تكفروا  
كذلك إلا بعبادتهم له وحده - عز وجل -

وآلاء الله : نعمه الكثيرة . والآلاء جمع إلى كحمل وأحمال . أو إلى ،  
كقفل وأقفال . أو إلى ، كمعى وأمعاء

والى هنا يكون هود - عليه السلام - قد رد على قومه رداً مقنعا  
حكيميا ، كان المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعائه ،  
ولكنهم لم يسموا تفكيرهم وانظماس بصيرتهم ، أخذتهم العزة بالإثم فسالوا  
لنبيهم ومرشدهم .

« أجمتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما نعدنا ان كنت  
من الصادقين » أي : قالوا له على سبيل الإنكار والإستهزاء أجمتنا يا هود  
لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام  
إن هذا ان يكون منا أبداً فأتنا بما نعدنا به من العذاب ان كنت من الصادقين  
فيما تخبر به .

ونظر في هذا الرد من قوم هود فزأه طافحا بانهور والتحدى والاستهزاء  
واستهجال العذاب .

حتى لكان هودا - عليه السلام - يدعوهم الى منكر لا يطيقون سماعه  
ولا يصبرون على الجدل فيه ۱۱

أليس هو يدعوهم الى وحدانية الله وإفراده بالعبادة وترك ما كان يعبد  
آباؤهم ، وهذا في زعمهم أمر منكر لا يطيقون الصبر عليه .

وهكذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتة-كبيرهم فيصور لهم  
الحسنات في صورة سيئات والسيئات ، في صورة حسنات .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى المجيء في قوله « أجتئنا » ،  
قلت فيه أوجه . أن يكون هود - عليه السلام - مكان معزول عن قومه  
يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحراء قبل المبعث ،  
فلما أوحى إليه جاء قومه بدعوم . وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا  
يعتقدون أن الله - تعالى - لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجتئنا من  
السماء كما يجيء الملك . وأنهم لا يريدون حقيقة المجيء . ولكن التعرض بذلك  
والقصد كما يقال : ذهب يشتري ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا أقصدتنا  
لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ، (١) .

وقولهم « فأننا بما تمدنا إن كنت من الصادقين ، يدل على أنه كان يتوعدهم  
بالعذاب من الله . إذا استمروا على شركهم ، وبدل - أيضا - على تصميمهم  
على الكفر ، واحتقارهم لأمر هود - عليه السلام - واستعجالهم إياه بالعقوبة  
على سبيل التحدي ، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبداً .

وإزاء هذا التحدي الأسافر من قوم هود له رد دعوته ولو عيب الله لهم ، ما كان  
من هود - عليه السلام - إلا أن جابهم بالرد الحاسم الذي تتجلى فيه الشجاعة  
التامة ، واليقظة الكاملة بأن الله سينصره عليهم ويفتقم لهم منهم :

« قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وعضب ، أي : قال هود لقومه  
بعد أن لجوا في طغيانهم : قد وقع عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط  
بسبب إصراركم على الكفر والعناد .

والرجس والرجز بمعنى ، وأصل معناه الاضطراب يقال : رجست السماء

أى : رعدت رعداً شديداً ، وهم فى مرجوسة من أمرهم أى : فى اختلاط  
والتباس . ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حل به .  
وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه قد وقع ، مبالغة فى تحقيق الوقوع ،  
وأنه أمر لا مفر لهم منه .

وعطف الغضب على الرجس ، للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب  
هو انتقام لا يمكن دفعه ، لأنه صادر من الله الذى غضب عليهم بسبب كفرهم ،  
وبعد أن أنذروهم بوقوع العذاب عليهم ، ووبخهم على مجادلتهم لإياه بدون  
علم فقال : و أنجادلوني فى أسماء سميتوها أتم وأباؤكم ؟

أى : أنجادلوني وتخاصموني فى شأن أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها  
مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده  
لإذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شئ . أما هذه الأصنام التى زعمتم  
أنها آلهة فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

فأنت ترى أن هوداً - عليه السلام - قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء  
لا تبلغ أن تكون شيئاً وراء الاسم الذى يطلق عليها ، وهذا أعمق فى الإنكار  
عليهم ، والاستهزاء بعقولهم .

وقوله : ما أنزل الله بها من سلطان ، أى : ما أنزل الله بها من حجة أو دليل  
يؤيد زعمكم فى ألوهيتها أو فى كونها شفعاء لكم عند الله ، وإنما هى أصنام  
باطلة قلتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير .

ثم هدد بالعاقبة المقررة المحتومة فقال : فانتظروا لى معكم من المنتظرين  
أى : فانتظروا نزول العذاب الذى استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم ، فأتنا  
بما تعدنا ، فإنى معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم  
وتكذيبكم .

ولم يطل انتظار هود عليهم ، فقد حل بهم العقاب الذى توعدهم به سريعاً  
ولذا قال -- تعالى -- ، فأنجينا والذين معه برحمة منا ، الفاء فصيغة . أى :

فرقع ما وقع فأجينا هودا والذين اتبعوه في عقيدته برحمه عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا .

« وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، أى : استاصلناهم عن آخرهم بالريح المقيم التي ، ماتذر من شيء . أنت عليه إلا جماعته كالريم ، . »

فقطع الدابر كناية عن الاستئصال والاهلاك للجميع يقال قطع الله دابره أى : أذهب أصله .

وقوله « وما كانوا مؤمنين ، عطف على « كذبوا ، داخل معه حكم الصلة أى : أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرجعوا عن ذلك أصلا . »

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة نفي الايمان عنهم فى قوله . . . « وما كانوا مؤمنين » مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم - كمرثد بن سعد - ومن نجامع هود - عليه السلام - كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أن الهلاك للمكذبين ونجى الله المؤمنين (١) .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق قبل ذلك فى قوم نوح .

ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح - عليه السلام - مع قومه . فقالت :

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١١٩

يوم أليم (٧٣) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأناكم  
في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتمتصتون الجبال بيوثاً  
فاذكروا آلاء الله ولا تمنوا في الأرض مفسدين (٧٤) قال الملا  
الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون  
أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال  
الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون (٧٦) فمقرؤا التثاقفة  
وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من  
المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨)  
فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ،  
ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩) .

هذه قصة صالح مع قومه كما حكمتها سورة الأعراف ، وقد وردت هذه  
القصة في سور آخر كسور هود والشعراء والنمل والقمر وغيرها .

وصالح - كما قال الحافظ البغوي - هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد  
ابن حاذر بن ثمود ؛ وينتهي نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

و ثمود اسم للقبيلة التي منها صالح سميت باسم جدّها ثمود ، وقيل سميت  
بذلك لقلة ماؤها لأن الثمد هو الماء الثقيل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، والحجر مكان  
يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وموقعه الآن - تقريباً - المنطقة  
التي بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذي كانوا يسكنونه يسمى  
بمدائن صالح إلى اليوم ، وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو  
ذاهب إلى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة

وقبيلة صالح من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء القوم هود - عليه السلام - بعد أن هلكوا فورثوا أرضهم ، وآتاهم الله زهما وفيرة ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نبيهم صالحا مبشرا وناذرا .

قال - تعالى - : وإلى نوح وأخاه صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرة قد جاءكم بينة من ربكم ، .

أى : وأرسلنا إلى نوح وأخاه صالحا في النسب والموطن صالحا - عليه السلام - فقال لهم الكلمة التي دعا بها كل نبي قومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله سواه ، قد جاءكم دمجزة ظاهرة الدلائل ، شهادة بنوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربى .

وقوله : من ربكم ، متعلق بمحذوف صفة لبينة ، أى هذه البينة كائنة من ربكم وليست من صنعى فعليكم أن تصدقونى لأنى مبلغ عن الله - تعالى - .

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : هذه ناقة الله لكم آية ، أى : هذه التى ترونها وأشير إليها ناقة الله ، والتى جعلها - سبحانه - علامة لكم على صدقى .

وأضاف الناقة إلى الله للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها . وقيل لأنه - سبحانه - خلقها على خلاف سننه فى خلق الإبل وصفاتها ، وقيل لأنها لم يكن لها مالك .

وقد ذكر المفسرون عنها قصصاً لا تخلو من ضعف ، لذا اكتفينا بما ورد فى شأنها فى القرآن الكريم .

ثم أرسدهم إلى ما يجب عليهم نحوها فقال : قد زورها تأكل فى أرض الله ولا يمسوها بسوء فىأخذكم عذاب أليم ، .

أى اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه

ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء ، لأنكم لو فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم .

والغناء فى قوله ، فذروها ، للتفريع على كونها آية من آيات الله ، فيجب إكرامها وعدم التعرض لها بسوء . و « تأكل » مجزوم فى جواب الأمر .

وأضيفت الأرض إلى الله - أيضا - قطعا لعذرهم فى التعرض لها فكأنه يقول لهم ، الأرض أرض الله والناقة ناقته ، فذروها تأكل فى أرضها لأنها ليست لكم ، وإيسر ما فيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لىكم فى التعرض لها ؟

وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهى عن مسها بسوء إكراما لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعهامز السكلا والماء من باب أولى . فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء .

وقوله ، فإأخذكم عذاب عظيم ، الفعل المضارع منصوب فى جواب النهى .

وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأندرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ فى تذكيرهم بنعمه الله عليهم . وبمصائر الماضين قبلهم .

فقال - كما حكى القرآن عنه - : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، » .

أى : واذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهللكم الله بسبب « نياتهم وشرهم » .

وقوله ، وبوأكم فى الأرض ، أى : أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله وهيناه له ويمكن له فيه .

والمراد بالأرض : أرض الحجر التي كانوا يسكنونها وهي بين الحجاز والشام ، تتخذون من سهولها قصورا وتنتحون الجبال بيوتا ، .

السهول : الأراضى السهلة المنبسطة . والجبال : الأماكن المتحجرة المرتفعة .  
أى أنزلكم فى أرض الحجر ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا عالية ، ومن جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها .  
يقال : نحتته ينحته - كىضربه وينصره ويعلمه - أى : يراه وسواه .

قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء . أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ومن التعبير القرآنى نلح أثر النعمة والتذكير فى الأرض لقوم صالح ، وفدرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت ، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم ، ولذا نجد صالح - عليه السلام - يكرر عليهم التذكير بشكر النعم فيقول :  
فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، .

أى : فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم ، واشكروه على هذه النعم الجزيلة : وخصوه وحده بالعبادة ، ولا تتمددوا فى الفساد حال إفسادكم فى الأرض .

والمقصود النهى عما كانوا عليه من التمدد فى الفساد . مأخوذ من العبث وهو أشد الفساد . يقال : عثى - كرضى - عثوا إذ أفسد أشد الإفساد .  
وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ذكرت لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح لقومه فإذا كان موقفهم منه .

لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد عن موقف قوم نوح

« قال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منا  
أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، ؟ »

أى : قال المترفون المتكبرون من قوم صالح المؤمنين المستضعف  
الذين هدام الله إلى الحق : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعباد  
وحده لا شريك له ؟

وهو سؤال قصد المترفون منه تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم  
يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه .

ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال بأن يقولوا  
لهم : نعم أنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقولهم : « إنا بما أرسل  
مؤمنون ، مسارة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهار الإيمان  
الذي استقر في قلوبهم ، وتنبئها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - ،  
الظهور والوضوح بحيث لا ينبغي لما قل أن يسأل عنه ، وإنما الشيء الجدل  
بالسؤال عنه هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتثال لما يقتض  
العقل السليم . وهو رد من المؤمنين المستضعفين يدل على شجاعتهم في الج  
بالحق وعلى قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم .

وقوله : « لمن آمن منهم ، بدل من « الذين استضعفوا » بإعادة الجار با  
كل من كل ، والضمير في « منهم » يعود على قوم صالح .

وهنا يعلن المتكبرون عن موقفهم في عناد ، وصلاف وجحود ، واست  
إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : « قال الذين استكبروا إنا بالذي آمننا  
به كافرون ، .

أى : قال المتكبرون ردا على المؤمنين الفقراء : « إنا بما آمتهم به كافرو  
ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون ، لإظهار المخالفتهم لإياهم ، وردا على مقاب  
« إنا بما أرسل به مؤمنون ، .

قال صاحب الإلتصاف : ولو طابقوا بين الكلامين لمكان مقتضى المطابقة أن يقولوا ، بما أرسل به كافرون ولكنهم أبو ذلك حذرا بما في ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهمك ، كما قال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، فأثبت لرساله تهكما ، وليس المقام هنا مقام التهمك ، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذابين عن حاله ، فرد كل فريق على الآخر بما يناسبه ، (١)

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح بفعل أفتح يتجلى في قوله - تعالى - عنهم : فعقروا الناقة ، أى : نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر ، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره .

أى : عقروا الناقة التى جعلها الله حجة لنبيه صالح - عليه السلام - التى قال لهم صالح فى شأنها : لا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب أليم ، .

وأصل العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم ويقال للقبيلة الكبيرة أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم ، لكونه بين أظهرهم .

وقوله : وعتوا عن أمر ربهم ، أى : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه . من العتو وهو النبو ، أى : الارتفاع عن الطاعة والتكبر عن الحق والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتو عتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار . فهو عات وعتى .

وقد إختار القرآن كلمة « عتوا » ، لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور خلال إقترافهم للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقور الناقة ، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر .

ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبيهم في سفاهة وتطول : يا صالح  
أتنتا ، بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، .

نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعريضا بما يظنون من عجزه ؛ وقالوا له على  
سبيل تعجل العذاب الذي توعدهم به إذا استمروا في طغيانهم أتنتا بما توعدتنا  
به إن كنت صادقا في رسالتك .

ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعا ؛ قال - تعالى -  
« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، » :

الرجفة : الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ترجف رجفا ، إذا  
إضطربت وزلزلت ؛ ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .

وجاثمين : من الجثوم وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للابل ، يقال جثم  
الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره أو لزم مكانه فلم  
يبرح .

والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرجفة ، أي : الزلزلة الشديدة  
فأهلكتهم ، فأصبحوا في بلادهم أو مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين  
على وجوههم ، هامدين لا يتحركون . وما ظلمهم الله ولاكن كانوا أنفسهم  
يظلمون .

ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذي كذبوه  
فيقول : « فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم  
ولكن لا تحبون الناصحين ، » .

أي : فأعرض عنهم نبيهم صالح ، ونقض يديه منهم ، وتركهم للمصير  
الذي جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسرا على ما فاتهم من الإيمان :  
يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي كاملة غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب

تارة وبالترهيب أخرى ، وإمكن كان شأنكم الاستمرار على بفض الناصحين  
وعداوتهم .

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
تقدم على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح وهو ذاهب إلى تبوك سنة  
تسع من الهجرة ، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم  
ما أصاب أهلها ، ونهاهم عن أن يشربوا من مائها .

روى الامام أحمد عن ابن عمر قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم -  
بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار  
التي كانت تشرب منها ثمود فمحنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبي  
صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجيين الابل ، ثم ارتحل بهم  
على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين  
عذبوا وقال : إن أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم (١)

وروى الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم  
تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قنع رأسه  
بأسرع السير حتى جاوزوا الوادي (٢) .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وحلت العقوبة  
بين كانوا يتعجلونها ويستهمون بها .

ثم حكمت لنا السورة بعد ذلك جانباً مما دار بين لوط وقومه فقالت :

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ص ١٢٧ طبعة الحلبي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي : باب نزول النبي - ص - الحجر

الحديث رقم ٢٨٤ محمد فؤاد عبد الباقي . وأخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق

« وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ  
مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ  
أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ بِتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ  
إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) » .

قال ابن كثير : لوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم ،  
وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل  
سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف  
وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها  
لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو لإتيان الذكور دون  
الاناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يحظر بياهم ، حتى  
صنع ذلك أهل سدوم - وهي قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله <sup>(١)</sup> .

وقوله - تعالى - « وَلَوْطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق  
أى : وأرسلنا لوطا و « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » ظرف لأرسلنا ، وجوز أن يكون  
« لوطا » منصوبا باذكر محذوفا فيكون من عطف القصة على القصة ، و « إِذْ »  
بدل من لوط بدل اشتغال بناء على أنها لا تلزم الظرفية .

وقوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » .

أى : أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت نهايتها القبح والنفحس ، والتي ما فعلها  
أحد قبلكم فى زمن من الأزمان فأنتم أول من ابتدئتم فعلها فعليكم وزرها ووزر

من عملها إلى يوم القيامة والاستفهام ، لانكار والتوبيخ قال عمر بن دينار :  
« ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . » .

وقال الوليد بن عبد الملك : « لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يهلو ذكراً ، والباء في « بها » كما قال الزمخشري - للتعدية ،  
من قولك سبقتك بالكرة إذا ضربتها قبله ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -  
« سبقك بها عكاشة » ، و « من » في قوله « من أحد » التأكيد للنفي وعمومه  
المستفروق لكل البشر .

والجمله - كما قال أبو السعود - مستأنفة مسوقة لنا كيد التنكير وتشديد  
التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح ، فأنكر عليهم  
أولا لإتيان الفاحشة ، ثم وبخه بأنهم أول من عملها .

ثم أضاف لوط إلى انكاره على قومه إنكار آخر وتوبيخاً أشنع فقال :  
« إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء . » .

أى : إنكم أيها القوم الممسوخون في طبائعكم حيث تأتون الرجال  
الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة  
الخبثية القدرة .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع . من أتى المرأة إذا غشيها .  
وفي إيراد لفظ « الرجال » ، دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغه في  
التوبيخ والتقريع .

قال صاحب الكشاف : و « شهوة » مفعول له ، أى للاشتهاء ولا حامل  
لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولاذم أعظم منه ، لأنه وصف  
لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطالب النسل ونحوه .  
أو حال ، بمعنى مشتبهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السباحة ، (١)

وقرله ، من دون النساء ، حال من الرجال أو من الواو في تأتون ، أى :  
تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللاتي هن موضع الاشتباه عند  
ذوى الطباع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

قال الجمل : وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله -  
تعالى - خلق الإنسان وركب فيه شهوة الفكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ،  
وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل . فإذا تركن الإنسان وعدل عنهن  
إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشيء في غير  
محلّه وموضعه الذى خلق له ، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى  
مقصود بتلك الشهوة للإنسان ، (١)

يقوله : بل أنتم قوم مسرفون ، إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن  
الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم عادتهم الإسراف  
وتجاوز الحدود فى كل شىء .

أى : أنتم أيها القوم لستم من يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله  
بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ، لا تقفون عند حد الاعتدال  
فى عمل من الأعمال .

وقد حكى القرآن أن لوطا - عليه السلام - قال لهم فى سورة العنكبوت :  
« إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبل ، وتأتون فى ناديتكم المنكر ، » .

وقال لهم فى سورة الشعراء : « بل أنتم قوم عادون ، أى : متجاوزين  
لحدود الفطرة وحدود الشريعة . »

وقال لهم فى سورة النمل : « بل أنتم قوم تجهلون ، وهو يشمل الجهل الذى  
هو ضد العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش . »

وبمجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق ، ولما يشار إلى الغي والعدوان على الرشاد والتدبر .

واقدم حكي القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم ، فقال : وما كان جواب قرمه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم . .

أى : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريبتكم سدوم التي استوطنتموها وعشتم بها .

وقوله : «إلا أن قالوا . . . استثناء مفرغ من أعم الأشياء . أى : ما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم . . .

لماذا هذا الإخراج ؟ بين القرآن أسبابه كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة ، وانفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال : «إنهم إناس يتطهرون ، بهذه الجملة التعليلية .

أى : إن لوطا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه مناسبا لهم . يقال : تطهر الرجل ، أى : تنزه عن الآام والقبايح .

وما أعجب العقول عندما تنعكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، لإنهاء تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجها ، ليبقى لها الملوكون الممسوخون . ولأنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا ورحمهم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقولهم «إنهم إناس يتطهرون ، سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القدارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم : أبعثوا عنا هذا المتعسف وأريحوفا من هذا المتزهد ، (١) .

ثم حكمت السورة عاقبة القريريين فقالت : « فأنجيئناه وأهله ، أى : أنجيئنا لوطاً ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين »

قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال - تعالى - « فأنجيئنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . » وقوله « إلا أمرأته ، استثناء من أهله ، أى : فأنجيئناه وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجها لحبها وعدم إيمانها .

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، مما لهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفائه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال هاهنا : « إلا امرأته آتت من الغابرين ، أى : « الباقيين فى العذاب ، (١) »

والغابر : الباقي . يقال : غير الشئ . يغبر غبوراً ، أى : بقى . وقد يستعمل فيما مضى - أيضاً - فيكون من الأضداد ، ومنه قول الأعشى : فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

وقوله : « وأمطرنا عليهم مطراً ، أى : وأرسلنا على قوم لوط نوعاً من المطر عجيباً أمره ، وقد بينه الله فى آية أخرى بقوله « فجعلنا عليها سافها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، (٢) . »

أى : جازيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء ، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) سورة الحجر الآية ٧٤ .

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال - تعالى - :  
فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ، :

أى : فانظر أيها العاقل نظرة تدبر وانعاط في مآل أولئك الكافرين  
المقترفين لأشنع الفواحش ، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم  
وسر في الطريق المستقيم لتنال السعادة في الدنيا والآخرة .

هذا . وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد يرى  
الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس .

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجدتموه يعمل عمل  
قوم لوط . فاقتلوا الفاعل والمفعول به ، .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاهق ويتبع بالحجارة  
كما فعل بقوم لوط .

وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم ، سواء أ كان محصنا أو غير محصن (١) .

ثم قصت علينا سورة الأعراف بعد ذلك قصة شعيب مع قومه ، فقالت :

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ،

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْمُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ

تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ،

وَإِذْ كُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) راجع تفسير القاسمى > ٧ ص ٢٨٠٧ وما بعدها . وتفسير الألوسى

> ٧ ص ١٧٢ وما بعدها .

المُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ  
وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)»

وقوله : ، وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله  
غيره ، أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا . ومدين اسم للقبيلة التي تنسب  
إلى مدين بن إبراهيم -- عليه السلام -- وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى  
معان بين حدود الحجاز والشام ، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة  
بالشجر كانت مجاورة لقرية معان ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله  
شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم في  
النسب وكان النبي - صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيب قال : ذلك خطيب  
الأنبياء لحسن مراجعته أقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبخس للكيفال والميزان فدعاهم إلى توحيد الله  
- تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

وعن السدي وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين  
أهلكوا بالصيحة ، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ،  
وأنه لم يبعث نبي مرتين إلا شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنها أمة واحدة ، فأهل مدين هم  
أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أي السحابة - ،  
وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل في بدء دعوتهم قال لهم  
: قد جاءكم بينة من ربكم ، أى . قد جاءكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى  
توجب عليكم الإيمان بي والأخذ بما أمركم به والانتها عما أنهاكم عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما كانت معجزته ؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله : قد جاءتكم بيئته من ربكم ، ولأنه لا بد لدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبها لانبيأ ، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبيينا صلى الله عليه وسلم - فيه (١)

ثم أخذ في نهيهم عن أبرز المنكرات التي كانت متفشية فيهم فقال - كما حكى القرآن عنه - :

« فأوفوا الكيل والميزان ، الكيل والميزان مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن به ، كالعيش بمعنى ما يعاش به . أو المكيل والموزون .

أى : فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .

يقال : بخسه حقه يخسه إذا نقصه إياه . وظله فيه ، وتبخسوا ، تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم .

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده .

قال الألوسى : وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه . وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم . . . قيل ويدخل في ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقيع اللائق به وبيان فضله على ما هو

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٧ .

عليه للسائل عنه . وكثير من ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس ، وليتهم قنعوا به بل جمعوا حشفا وسوء كيلة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون<sup>(١)</sup> ، ثم نهام عن الافساد بوجه عام فقال : « ولا تفسدوا في الأرض بفساد إصلاحها ، أى : لا تفسدوا في الأرض بما تركبون فيها من ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون في معاملاتهم ويلتزمون الحق في كل تصرفاتهم .

ثم ختمت الآية بتلك الجملة المكرمة التي استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان في نفوس قومه حيث قال لهم : « ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى : ذلكم الذى أمركم به وأنهاكم عنه خبير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم .

فاسم الإشارة « ذلكم » يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الافساد فى الأرض .

ثم انتقل شعيب إلى نهيبهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، توعدون : من التواعد بمعنى التخويف والتهديد . أى : ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل ، وتخيفونه بأنواع الأذى ، وتلصقون بى وأنا نبيكم التهم التى أنا برى منها ، بأن تقولوا لمن يريد الايمان برسالتى : إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يدتنكم عن دينكم .

وقوله : « وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا ، أى : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها ، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد ما يكون عن شائبه الاعوجاج .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : صراط الحق واحد ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، فكيف قيل : بكل صراط ؟ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أو عدوه وصدوه فإن قلت : لإلام يرجع الضمير في آمن به ، قلت : إلى كل صراط . والتقدير : توعدون من آمن به وتصدون عنه . فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير زيادة في تقييح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه (١) .

وقوله : توعدون . وتصدون ، وتبغون هذه الجمل أحوال ، أى : لاتقعدوا موعدين وصادين ، وباغين ، ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال : « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، أى : اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد ، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم ، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم ، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة ثم اتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الافساد فقال : « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ، أى : انظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، كقوم لوط وقوم صالح ، فمسترون أنهم قد دمروا تدميراً بسبب إفسادهم فى الأرض ، وتكذيبهم لإرسالهم ، فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين ، لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار .

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر ، وأن يتركوا أتباعه أحراراً فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين ، فقال : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، .

أى : إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق ، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده ، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل ، الذى يتجلى فى نصره المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ، وهو - سبحانه - خير الحاكمين .

قال صاحب الكشاف : وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله : « فتربصوا إنا معكم متربصون ، أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم . ويجوز أن يكون خطابا للفرقيين . أى : ليصبر المؤمنون على أذى الكفار ، وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب (١) . »

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكمت لنا جانبا من الحجج الناصحة ، والنصائح الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء - إلى قومه .

وارجع البصر - أيها القارىء الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر قومه بوحداية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فيأمرهم بإيقافهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخش الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض ، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الأباطيل . . . مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة . وبنقمه من المكذبين تارة أخرى .

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلاً حسناً ،  
وأن يصدقوه فيما يبأه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصبوا عن  
الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا  
كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ  
نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ،  
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا  
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ  
لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا  
فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ  
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ  
أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آتَى عَلَى قَوْمِ  
كَافِرِينَ (٩٣) » .

أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له رداً على مواعظه  
لهم : والله انخرجناك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ،  
ودفعنا لفتنتكم المترتبة على مساكننا ومجاورتنا ، أو لتمودن وترجعن إلى  
مِلَّتِنَا وما تؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها .  
خيلك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج  
من قريتنا أو العودة إلى مِلَّتِنَا .

« كَذَا قَالَ الْمُتَرَاتِبُونَ » ملام وغلظتوه غضباً ،

وجملة ، قال الملائكة ، مستأنفه استئنافا بيانيا ، كأنه قيل : فإذا كان رد قوم شعيب على نصائحه لهم ؟ - فكان الجواب : قال الملائكة . . . إلخ .  
وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للبيانة في إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ ما يريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الإخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا ، للتنبيه على أصلته في ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ماخرج هو كان خروج غيره أسهل .  
وجملة : ، أو لتعودن في ملتنا ، معطوفة على جملة : لنخرجنك . . . ، وهي - أي جملة : أو لتعودن في ملتنا ، المقصود الأعظم عندهم ، فهو لاء المستكبرون بهم في المقام الأول أن يعودن من فارق ملتهم وديانتهم إليها ثانية .

والتعبير بقولهم : أو لتعودن في ملتنا ، يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب ، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا ، قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التى سبق أن كنتم فيها ، فأدركوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من العلماء وعلى رأسهم صاحب الكشف ، فقد قال : فإن قلت : كيف خاطبوا شعيبا عليه السلام - بالعود فى الكفر فى قولهم : ، أو لتعودن فى ملتنا ، وكيف أجابهم بقوله : ، إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها ، والأنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير ، فضلا عن الكبائر ، فضلا عن الكفر ؟ قلت : قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، فمطفوا على ضميره الذين دخلوا

، الايمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلب الجماعة على الواحد ، فجعلوهم  
اندين جميعا ، لإجراء الكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب  
- عليه السلام - جوابه فقال : « إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ،  
هو يريد عودة قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئا من ذلك  
جراه لكلامه على حكم التغليب ، (١) .

هذا هو الجواب الذي اختاره الزمخشري وتبعه فيه بعض العلماء ، وهناك  
جوبة أخرى ذكرها المنسرون ومنها :

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان في ملتهم ، لسكوته قبل البعثة  
بن الانكار عليهم .

٢ - أنه صنف عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهاماً لهم بأنه كان على  
ينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة .

٣ - أن قولهم « أو لتعودن في ملتنا » بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيراً  
ايرد « عاد » بمعنى « صار » ، فيعمل عمل كان . ولا يستدعي الرجوع إلى حالة  
سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤتلفة ،  
كأنهم قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن  
كفاراً مثلنا .

قال الامام الرازي : تقول العرب : قد عاد إلى فلان مكروه ، يريدون :  
صار إلى منه المكروه ابتداء .

وقال صاحب الانتصاف : إنه يسلم استعمال « العود » بمعنى الرجوع إلى  
مر سابق ، ويحاج تن ذلك بمثل الجراب عن قوله - تعالى - « الله ولي الذين  
نوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت  
فرجونهم من النور إلى الظلمات » . والخراج يستدعي دخولا سابقا فيما  
قع الخراج منه . ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الايمان لم يدخل أظفي ظلمة

الكفر ، ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلي ، لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراد ، فعبّر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله إلى الإيمان ، إخباراً بالخراج من الظلمات إلى النور توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس في حق الكافر وفائدة اختياره في هذه المواضع ، تحقيق التمكن والاختيار ؛ لاقامة حجة الله على عباده ، (١) هذه بعض الأجوبة التي أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب « أولتعودن في ملتنا ، ولعل أرجحها هو الرأي الذي اختاره صاحب الكشف ولبعده عن التكلف ، واتساقه مع رد شعيب عليهم . فقد قال لهم :

« أولو كنا كارهين » . أي : أنجبرونا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا أنها باطلة رقيقة ومنافية للعقول السليمة والأخلاق المستقيمة . لا . لن نعود إليها بأي حال من الأحوال . فالهمزة لانكار الوقوع ونفيه ، والتعجب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول في العقائد اختياري محض ولا ينفذ فيه الاجبار أو الاكراه .

ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال : « قد افتربنا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » .

أي : قد اختلفنا على الله - تعالى - أشنع أنواع الكذب إن عدنا في ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدأيننا إلى الدين الحق وتزبيننا عن الاشرار به . - سبحانه - .

قال صاحب المنار : وهذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين بالرفض والكرامية ، وهو إنشاء في صورة الخبر ، فيما أن يكون تأكيداً قسماً لرفض دعوة الملائكة لإيادهم إلى العودة في ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الذمة إن فعلت كذا ، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أهرق منه في التوكيد وإما أن يكون تعجباً خرج لأعلى مقتضى الظاهر ، وأكد بقدر وبالفعل الماضي ، والمعنى

ما أعظم افتراءنا على الله - تعالى - إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها .  
وعدانا إلى صراطه المستقيم . . . ، (١)

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال : وما يكون لنا أن نعود فيها  
إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء . علما ، أي ما يصح لنا ولا يتأتى  
مننا أن نعود في ملتكم الباطلة في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات  
إلا في حال أو في وقت مشبهة الله المتصرف في جميع الشئون عودتنا إليها ، فهو  
وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن ، لأننا موقنون بأن  
ملتكم باطلة وملتنا هي الحق والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما  
ذلك بيد مقلب القلوب ، الذي وسع علمه كل شيء .

وهذا اللون من الأدب العالي ، حكاة القرآن عن الأنبياء - عليهم الصلاة  
والسلام - في مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته  
المطلقة في أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبداً ، مع ذلك هو يفوض  
الأمر إلى الله تادباً معه ، فلا يجزم بمشيبته هو ، بل يترك الأمر لله ، فقد يكون في  
علمه سبحانه ما يخفى على البشر ، مما تقتضيه حكمته وإرادته .

قال صاحب الانتصاف : وموقع قوله ، وسع ربنا كل شيء علما ، الاعتراف  
بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة ، فإن العود إلى الكفر  
جائز في قدرة الله أن يقع من العبد : ولو وقع فبقدره الله ومشيئته المغيبة عن  
خلقه . فالخذر قائم ، والخوف لازم ، ونظيره قول إبراهيم - عليه السلام -  
« ولا أخاف ما يشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما  
أفلا تتذكرون : لمارد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة ، مجد الله - تعالى -  
بالانفراد بعلم الغائبات ، (٢) .

ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه

(١) تفسير المنار - ٩ ص ٥ .

(٢) الانتصاف على المشيئة ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما . ١٢

إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

أى : على الله وحده وكتانا أمرنا ، فهو الذى يكفيننا أمر تهديكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، خلّو حكمك عن الجور والحيف ، فقوله : « على الله توكلنا ، إظهار للعجز عن جانب شعيب ، وأنه في مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده ، ولا يأوى إلا إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين . والجملة السكريمة تفيده الحصر لتقديم المعمول فيها .

وقوله « ربنا افتح بيننا . . . » إعراض عن مجادلتهم وهفواضتهم بعد أن تبين له عنادهم وسقمهم : وإقبال على الله - تعالى - بالتضرع والدعاء .  
والفتح : أصله إزالة لأغلاق عن الشيء ، واستعمل في الحكيم ، لما فيه من إزالة الاشكال في الأمر . ومنه قيل للحاكم فاتح وفتح لفتح أغلاق الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة - بضم الفاء وكسر ها - .

أخرج البيهقي عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى قوله - تعالى -  
« ربنا افتح . . . » حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينهما وبينه كلام : تعالى أفتحك ، تريد أفاضيك وأحاكك ، .

وقوله . بالحق . بهذا القيد إظهاراً للصفة والعدالة .

والخلاصة أنك إذا تأملت في رد شعيب - عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم وتهديهم بالرفض التام لما يبغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم بكل الأمور كلها إلى الله ، مظهراً الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إليه - سبحانه - بالدعاء ملتصقاً منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته في التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين .

وهنا نلمح أن الملائ من قوم شعيب قد ينسوا من استمالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذوا يحذرون الناس من السير في طريقه ، ويحكي القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : « وقال الملائ الذين كفروا من قومه ، لئن اتبعتم شعيباً لإنكم إذآ لخاسرون .

أى : قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : « لئن اتبعتم شعيباً لإنكم إذآ لخاسرون ، لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آباءكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم وربحكم المادى . لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم .

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، وتبسيطهم عن الايمان به ، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة . وتقاليدهم البالية التى ورثوها عن آباءهم وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم . وقولهم هذا معطوف على قوله - تعالى - فيما سبق « قال الملائ الذين استكبروا من قومه ، . . . وليس رداً على شعيب ، لأنه لو كان كذلك لجاء مفصلاً بدون عطف ، وقد أكدوا قولهم بعدة مؤكدات منها اللام الموطئة للقسم ، والجملة الاسمية المصدرية بيان . . . وذلك لكي يحددوا السامعين بأنهم ما يريدون إلا خيرهم وعدم خسرانهم .

وحذف متعلق الخسران ليهم كل أنواعه الدينية والدينيوية .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب القسم الذى وعظاته اللام فى قوله : « لئن اتبعتم . . . وجواب الشرط ؟ قلت : قوله « لإنكم إذآ لخاسرون ، ساد مسد الجوابين ، (١) .

وبعد هذه المحاورات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه ، جاءت

الخاتمة التي حكاها القرآن في قوله : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . أي : فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم هامدين صرعى لاحرك بهم .

قال ابن كثير ماله لخصه : أخير - سبحانه - هنا بأنهم أخذتهم الرجفة ، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلال . ، كما أخير عنهم في سورة هود بأنهم أخذتهم الصيحة ، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تكلموا به في قولهم « يا شعيب أصلاتك تأمرك . . . » ، جاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال في سورة الشعراء « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، وماذا لك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة « فأسقط علينا كسفاً من السماء . . » ، فأخبر - سبحانه - أنهم أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة . وهي سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخذت الأجسام ، (١) .

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم : إن من يتبع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه ، فيقول : « الذين كذبوا شعيبا كان لم يخسروا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » .

أي : الذين كذبوا شعيبا وتناولوا عليه وهددوه وأتباعه بالخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم فاعمى البال ، يظلم العيش الرغيد ، والغنى الظاهر .

يقال : غنى بالمكان يعني ، أقام به وعاش فيه في نعمه ورغد .

والجملة الكريمة استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : « لنخرجنك يا شعيب

والذين آمنوا معك من قريتنا، فكأن سائلا، قال : فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالآخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لم يكن لهم ما يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطاقا ، لأنه متى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن .

والأسم الموصول « الذين » مبتدأ ، وخبره جملة « كان لم يبقوا فيها » .

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، والإيضاح بأن ما ذكر في حيز الصلاة هو الذي استوجب العقوبتين فقال : الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ، .

أى : الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا وديويا ، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون .

وبهذا القدر أكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه في سورة هود فقال : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه .. » . قال صاحب للكشاف : وفي هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياءهم ، وتسفيه رأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم .

وأخيراً تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيك والاهمال من رسولهم وأخيهم في النسب فتقول : فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ، .

الآسى : الحزن . وحقيقته اتباع الفئات بالغم . يقال : آسى عليه - أسأ ، أى : حزنت عليه .

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النعمة والعذاب وقال مفرعا إياهم يا قوم : « لقد أبلغتكم رسالات ربي ، التي أرسلني بها إليكم من المقائد والأحكام » فيه من إصلاحكم

وهدايتكم ، فكيف أحزن على قوم كافرين ، بذلت جهدي في سبيل هدايتكم  
ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصيح ، واستجبر العمي على الهدى .  
لا ، لن آسى عليهم . وان أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لا يستحقون  
ذلك .

وإلى هنا تمكّن السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصص نوح  
وهود ، وصالح ، لوط ، وشعيب مع أقوامهم . بعد أن بدأت بقصة آدم وإبليس  
وسراها بعد قليل تحدثنا حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع  
بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت في حديثها عن هؤلاء الرسل  
الكرام التسلسل التاريخي ، وذلك لأهداف من أهمها .

١ - إبراز وحدة العقيدة في دعوة الأنبياء جميعا ، فأنت رأيت أن كل  
رسول أتى قومه ليقول لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، يقو لها  
ثم يسوق لهم بأسلوبه الخاص أنصع الدلائل ، وأقوى الحجج ، وخير البراهين  
ومختلف وجوه الارشاد ، لكي يقنعهم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

٢ - تصوير وحدة طبيعة الايمان ووحدة طبيعته الكفر في نفوس الناس  
على مدار التاريخ ، فالؤمنون يلتفون حول رسولهم يصدقون قوله ، ويتأسون  
به في كل أحواله ويدافعون عن عقيدتهم بقوة وشجاعة ، والكافرون  
يستكبرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، ويأبون بدافع الحقد والعناد والتطاول  
الاستجابة لرجل منهم ، ويلقون التهم جزافا لكي يصرفوا الناس عنه .

وهكذا نرى أن نفوس المؤمنين تتشابه في إخلاصها ونفائها وصفائها  
وحسن تقبلها للخير . بينما نفوس الكافرين تتشابه أيضا في ظلامها وقسوتها  
وفجورها وسوء تقبلها للهداية .

٣ - بيان العاقبة الطيبة التي انتهت إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصبرهم



أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسْنَأَ بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَاعُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ  
الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسْنَأَ ضُحَىٰ وَهُمْ يَلْمَعُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ  
فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ  
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ  
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقَرْيَةُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ، وَلَقَدْ  
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ،  
كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ  
مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) .

هذه هي الآيات التي جاءت في السورة الكريمة بعد حديثها المتنوع عن  
بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقبل حديثها المستفيض - الذي سنراه بعد قليل  
عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل .

وقد بدئت بقوله - تعالى - « وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا  
أهلها بالباساء والضراء لعلمهم يضرعون ، البأساء : العساة والمشقة كالحرب  
والجذب وشدة الفقر . والضراء : ما يضر الانسان في بدنه أو معيشته كالمرض  
والمصائب .

والمعنى : ذلك الذي قصصناه عليك يا محمد شأن الرسل السابقين مع  
أقوامهم الهاالكين وقد جرت سنتنا أنما ما أرسلنا في قرية من نبي كذبه أهلها  
إلا أخذناهم وأنزلنا بهم قبل إهلاكنا لهم ألوانا من الشدائد والمصائب لعلمهم  
ينقادون لأمر الله ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويكثر من التضرع إليه  
والاستجابة لهديه .

فالآية الكريمة إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم ، أثر بيان  
أحوال الأمم التي سبق الحديث عنها وهي أمة نوح وهود وصالح ولوط  
وشعيب - عليهم السلام - .

والمقصود منها التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم ، لينزجروا  
عن الضلال والعناد ، ويستجيبوا لله ورسوله .

وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع الفوم الذين بعث إليهم ، ويدخل تحت هذا  
اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام .

وقوله ، من بنى ، فيه حذف وإضمار والتقدير : من بنى كذبه قومه أو  
أهل القرية لأن قوله ، إلا أخذنا أهلها ، لا يترتب على الأرسال ، وإنما يترتب  
على التكذيب والعصيان . و ، من ، لتأكيد النفي .

والاستثناء في قوله ، إلا أخذنا أهلها ، مفرغ من أعم الأحوال ، وأخذناه  
في موضع نصب على الحال من فاعل ، أرسلنا ، أى : وما أرسلنا في قرية من  
القرى المهلكة بسبب ذنوبها نبياً من الأنبياء في حال من الأحوال إلا حال  
كوننا آخذين أهلها بالأيام والضراء . قبل إنزال العقوبة المستأجلة لهم .

وجملة ، لعلمهم بضرعون ، تعليلية . أى : فعلنا ما فعلنا لكي يتضرعوا  
ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم .

فأ يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفي  
— تعالى الله عن ذلك — وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة ، وتنعظ  
المشاعر الخاملة ، ويتوجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه  
ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

ثم بين — سبحانه — لونا آخر من ألوان ابتلائه للناس فقال : ثم بدلنا  
مكان السيئة الحسنة ، المراد بالسيئة ما يسوء ويحزن كالشدائد والأمراض .  
وبالحسنة السمة والصحة وأنواع الخيرات .

أى : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالأيام والضراء رفعنا ذلك عنهم ،  
وابتليناهم بضده ، بأن أعطيناهم بدل المصائب زماماً ، فإذا رخاء ينزل بهم مكان  
( ٩ — — سورة الأعراف )

الشدة ، والبسر مكان المخرج ، والعافية بدل الضر ، والذرية بدل العقم .  
والسكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .

قال الآلوسی : وقوله « ثم بدلنا ، معطوف على « أخذنا » داخل في حكمه ،  
وهو - أي بدلنا - متضمن معنى أعطى الناصب لمفعولين وهما هنا الضمير  
المحذوف والحسنة أي : أعطيتناهم الحسنة في مكان السيئة ومعنى كونها في مكانها  
أنها بدل منها .

ويرى بعض العلماء أن لفظ « مكان » مفعول به لبدلنا وليس ظرفا ، والمعنى  
بدلنا مكان الحال السيئة الحال الحسنة ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة في مكان  
السيئة المتروكة (١) .

وقوله « حتى عفوا » أي : كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم . يقال : عفا  
النبات ، وعفا الشحم إذا كثر وتكاثف . وأعفيتها . أي : تركته يعفو  
ويكثر ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - « وأعفوا للحي ، أي :  
وفرّوها وكثروها .

فإذا كان موقفهم من ابتلاء الله لإيامهم بالشدائد تارة وبالنعيم أخرى ؟ لقد  
كان موقفهم يدل على فساد فطرتهم ، وانحطاط نفوسهم ، وعدم تعاضلهم بما تجرى  
به الأقدار ، وبما بين أيديهم من سرّاء وضرّاء تحمل كل عاقل على التفكير والاعتبار .

استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم فيقول : « وقالوا قد مس آباءنا  
الضرّاء والسرّاء » .

أي : أنهم حينما رأوا ألوان الخيرات بين أيديهم بعد أن كانوا في بأساء  
وضرّاء ، لم يعتبروا ولم يشكروا الله على نعمه ، بل قالوا بغياهم وجمال . قد مس  
آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وقناوهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم

بيننا ما أصابهم ، وقد أخذنا دورنا من الضراء كما أخذوا ، وجاء دورنا في راء فلنغتمها في إرواء شهواتنا . وإشباع متعنا ، فتلك عادة الزمان في أبنائه داعى لأن فنظر إلى السراء والضراء على أنهما نوع من الابتلاء والاختبار .

وهذا شأن الغافلين الجاهلين في كل زمان ومكان ، إنهم لا يعتبرون بأى من ألوان العبر ، ولا يستشعرون في أنفسهم تخرجا من شيء يعملونه .

وإن قولهم هذا إيوحى بحالة نفسية خاصة ، حالة عدم المبالاة والاستهتار بحالة أكثر ما تكون مشاهدة في أهل الرخاء والجاه . فهم يسرفون بذرون بدون تخرج ، ويرتكبون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اثرات ، وتغشاهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ، مع كل ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون .

هذا شأنهم ، أما المؤمنون فإنهم ليسوا كذلك ، وإنما هم كما وصفهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله : « عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله ير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته ضراء - شدة - فذكر خيرا له . إن أصابته ضراء - صبر - فذكر خيرا له . » .

ولم يترك القدر أولئك الغافلين بدون قصاص ، وإنما فاجأهم بالعقوبة التي سببهم ، قال - تعالى - : « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ، أى : فكان نية بطرهم وأشرهم وغفلانهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم لك ، ولا خطور شيء من المكارها بياهم ، لأنهم كانوا - لغياتهم - فون أنهم سيعيشون حياتهم في نعم الحياة ورغدها بدون محاسبة لهم على إلهم القبيحة ، وأقولهم الذميمة .

فاجلة الكريمة تشير إلى أن أخذهم بالعقوبة كان أليما شديدا ، لأنهم فوجئوا مفاجأة بدون مقدمات . وجملة « وهم لا يشعرون » ، حال من المفعول به في أخذناهم ، مؤكدة لمعنى الغتة .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد جرت بفتح أبواب خيرات المحسنين ،  
ويانزال نقمه على المكذبين الضالين فقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا  
لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

البركات : جمع بركة : وهى ثبوت الخير الإلهى فى الشيء ، وسمى بذلك  
لثبوت الخير فيه كما ثبت الماء فى البركة .

قال الراغب : « ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس ، وعلى  
وجه لا يحصى ولا يحصر ، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو  
مبارك وفيه بركة ، (١) .

والمعنى : ولو أن أهل تلك القرى المهاجرة آمنوا بما جاء به الرسل . واتقوا  
ما حرمة الله عليهم ، لأنناهم بالخير من كل وجه . ولوسعنا عليهم الرزق سعته  
عظيمة ، ولماشوا حياتهم عيشة رغدة لا يشوبها كدر ، ولا يخالطها خوف .  
وفى قوله : « ففتحنا » استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات ونوسعتها  
عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول .

وقيل المراد بالبركات السماوية المضر ، وبالبركات الأرضية النبات والثمار  
وجميع ما فيها من خيرات .

وقوله « ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ، بيان لموقفهم الجحودى .  
أى : ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم  
فكانت نتيجة تكذيبهم وتناديهم فى الضلال أن عاقبتهم بالعقوبة التى تناسب  
جرمهم واكتسابهم للمعاصى ، فذلك هى سنتنا التى لا تتخلف . ففتح للمؤمنين  
المتقين أبواب الخيرات ، وفتقم من المكذبين الضالين بفنون العقوبات .

وقد يقال : « إننا ننظر فنرى كثيرا من الكافرين والعصاة مفتوحا عليهم  
فى الرزق والقوة والنفوذ وألوان الخير ، ونرى كثيرا من المؤمنين مضيقاً

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤ للراغب الأصفهاني .

المهيم في الرزق وفي غيره من وجوه النعم ، فأين هذا من سنة الله التي حكمتها  
لآية للكريمة ؟

والجواب على ذلك أن الكافرين والمعصاة قد يبسط لهم في الأرزاق وفي  
وان الخيرات بسطا كبيراً ، ولكن هذا على سبيل الاستدراج كما في قوله  
- تعالى - « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا  
رحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وما لاشك فيه أن الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره في الآية السابقة ، ثم  
لنا مكان السيئة الحسننة حتى عفوا . . . ، لا يقل خطراً عن الابتلاء بالشدة .  
قد ابتلى الله كثيراً من الناس بالوأن النعم فأشروا وبطروا ولم يشكروه عليها  
أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وشتان بين نعم تساق لإنسان على سبيل الاستدراج في الشرور والآثام  
تكون نعمة على صاحبها لأنه يعاقب عقاباً شديداً بسبب سوء استعمالها ، وبين  
نعم التي وعد الله بها من يؤمنون ويتقون . إنها نعم مصونة عن المحق والسلب  
الخوف ، لأن أصحابها شكروا الله عليها . واستعملوها فيما خلقت له ، فكانت  
نتيجة أن زادهم الله غنى على غنائهم ، وأن منحهم الأمان والاطمئنان وذلك  
بفضل الله يؤتبه من يشاء .

ثم يتجه القرآن إلى الغافلين ، ليوقظ فيهم مشاعر الخوف من بأس الله  
عقابه فيقول : أفا من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، .  
البيات : قصد العدو ليلاً . يقال : بيت القوم العدو بياتاً ، إذا أوقفوا به  
بلا ، وهو حال بمعنى بائتين .

والاستفهام للإنكار والتعجب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل .  
المراد بأهل القرى : أهل مكة وغسيرهم من القرى التي بعث إليها الرسول  
صلى الله عليه وسلم .

وقيل المراد بهم : الأعداء .

لتعثير بها نزل بغيرها كما يرشد إليه قوله - تعالى - بعد ذلك ، أو لم يهد للذين  
يرثون الأرض من بعد أهلها . . .

وقيل المراد بهم من ذكر حالهم فيما تقدم من القرى المهلكة بسبب ذنوبها -  
قال الجمل : والفاء للعطف على ، أخذناهم بغتة ، وما بينهما وهو قوله  
« ولو أن أهل القرى . . . إلى هنا ، اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه جرى  
به المسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور إنما هو بما كسبت أيديهم . والمعنى :  
أبعد ذلك الأخذ أن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا بيئاتا وهم فاثمون (١) ؟

فآية الكريمة تحذر الناس من الغفلة عن صاعة الله ، وتحثهم على التيقظ  
والاعتبار : وقوله « أو أن أهل القرى ، إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ  
والتشديد أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم ينامون ، أى : أن يأتيتهم عقابنا في ضحوة  
النهار وانبساط الشمس ، وهم لاهون لاعبون من فرط الغفلة .

فقد خوفهم - سبحانه - بنزول العذاب بهم في الوقت الذي يكونون  
فيه في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت  
الذي يغلب على المرء التشاغل فيه بالذات .

وقوله : « أفأمنوا مكر الله ، تكرير لمجموع الإنكارين السابقين . جمعا  
بين التفريق قصدا إلى زيادة التحذير والإفذار .

والمكر في الأصل الخداع ، ويطلق على الستر يقال : مكر الليل أى : ستر  
بظلمته ما هو فيه ، وإذا نسب إليه - سبحانه - فالمراد به استدراجه للعبد  
العاصي حتى يهلكه في غفلته تشبيها لذلك بالخداع .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله « أفأمنوا  
مكر الله ؟

قلت : هو تكرير لقوله « أفأمن أهل القرى ، ومكر الله : استعارة لأخذ

مبد من حيث لا يشعر ولا استدراجه ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من  
مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه السكين والبيات والغيلة . وعن  
ربيعة بن خشم أن ابنته قالت له : ما لي أراك لا تنام والناس ينامون ؟ فقال :  
ابنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله : . أن يأنيهم بأسنا بياتا (١) .

والمعنى : أقامنوا مكر الله وتدييره الخفي الذي لا يعلمه البشر فغفلوا عن  
عن قدرتنا على إنزال العذاب بهم بيانا أو ضحوة ؟ لئن كانوا كذلك فهم  
بلا ريب عن الصراط لما يكون ، وعن سنن الله في خلقه غافلون ، فإنه لا يأمن  
مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أي : إلا القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم ،  
ولم يستفيدوا شيئا من أنواع العبر والعظات التي بشها الله في أنحاء هذا الكون .  
هذا ، ويرى الإمام الشافعي وأتباعه أن الأمن من مكر الله كبيرة من  
الكبائر ، لأنه استرسال في المعاصي اتكالا على عفو الله .

وقال الحنفية إن الأمن من مكر الله كفر كاليأس ، لقوله - تعالى -  
: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وقوله : فلا يأمن مكر الله  
إلا القوم الخاسرون . .

ثم بين - سبحانه - أن من الواجب على الأحياء الذين يرثون الأرض من  
بعد أهلها الذاهبين المهلكين ، الذين أهلكتهم ذنوبهم ، وجنت عليهم غفاتهم ،  
وعوقبوا على استهتارهم وغرورهم . . . من الواجب على هؤلاء الأحياء أن  
يعتبروا ويتعظوا ويحسنوا القول والعمل حتى ينجو من العقوبات .  
قال - تعالى - : أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء  
أصبناهم بذنوبهم . .

الاستفهام للانكار والتوبيخ . ويهد : أي يقين ، يقال : هداه السبيل  
أو الشيء وهداه إليه ، إذا دله عليه وبينه له .

أى : أولم يتبين لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التي ورثوها بعد أهلها المهلكين ، أننا في قدرتنا أن نزل بهم العذاب بسبب ذنوبهم كما أنزلناه بأولئك المهلكين .

والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أهل مكة ومن حولها الذين أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - لهدايتهم . وقيل المراد بهم الأحياء في كل زمان ومكان الذين يخلفون من سبقهم من الأمم .

قال الجمل : وفاعل يهد ، فيه وجوه أظهرها : أنه المصدر المؤول من أن وما في جزأها والمفعول محذوف . والتقدير : أولم يهد أى يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم لإصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك . . . (١) .

وقوله : ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ، جملة مستأنفة لإثبات حصول الطبع على قلوبهم .

أى : ونحن نطبع على قلوبهم ونختم عليها ، بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، فهم لذلك لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاط . والذى يتأمل في الآيات السابقة يراها تحذر الناس بأمايب متنوعة حكيمة من الغفلة عن العظات والعبير ، وتحضهم على التخلص من الأمن الكاذب ، والشهوات المردية . والمتع الزائلة .

وما يريد القرآن بهذا أن يعيش الناس قلة من ، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار .

كلا ، ما يريد منهم ذلك لأن القلق الدائم من المستقبل ، يشل طاقة البشر ، وقد ينتهى بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج وتنمية الحياة .

ولأنما الذى يريد القرآن منهم أن يتعظوا بآيات الله في كونه ، وأن يكونوا دائماً على صلة طيبة به ، وأن يتفخوا فيما آتاهم الله من فضله الدار الآخرة دون

أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، ولا يفتروا بطراوة العيش ، ورخاء الحياة، وقوة الجاه ، كى لا يفقدهم ذلك إلى الفساد والطغيان ، والاستهتار والانحلال .

وإذا كان القرآن في هذه الآية قد حذرو وأندرو ، فلأنه يعالج كل أمة وجماعة بالطب الذى يناسبها ويلانمها ، فهو يعطيها جرعات من الأمن والثقة والطمانينة حين يرسخ الإيمان فى قلوب أنبائها ، وحين يراقبون خالقهم فى سرهم وعلنهم ، ويشكرونه على نعمه ، وهو يعطيها جرعات من التحذير والتخويف ، حين تستولى الشهوات على النفوس ، وحين تصبح الدنيا بمتعتها ولذائدها المطلب الأكبر عند الناس .

هذا وبعد أن اتهمت السورة الكريمة من الحديث عما جرى لبعض الأنبياء مع أقوامهم ، ومن بيان سنن الله فى خلقه ، وبعد أن حذرت وأندرت ، انجمت بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتطلعه على النتيجة الأخيرة لابتلاء تلك القرى ، وما تكشف عنه من حقائق تتعلق بطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان فقالت : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، .

أى : تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها ، وجهل قريتها أىها الرسول الكريم أحوالها . وهى قرى قوم نوح وعباد ثمود وقوم شعيب ، نقص عليك مافيه العظات والعبر من أخبارها . ليسكون فى ذلك تسليمة لك وتثبيتاً لفؤادك ، وتأيداً لصدقك فى دعوتك .

قال الزمخشري : قوله - تعالى - : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، كقوله : « هذا بعلى شيخاً ، فى أنه مبتدأ وخبر وحال . ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خراً ، وأن يكون « القرى نقص ، خيراً بعد خبر . فإن قلت : مامعنى « تلك القرى ، حتى يكون كلاماً مفيداً ؟ قلت : هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالخال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة فى قولك : هو الرجل الكريم .

أنبيائها؟ قلت : معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أخبارها ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك ، (١) .

وإنما قصر الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنباء أهل هذه القرى ، لأنهم اغتروا بطول الأمهال مع كثرة النعم ، فتوهّموا أنهم على الحق ، فذكروا الله لمن أرسل إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحترسوا عن مثل تلك الأعمال ، وليعتبروا بما أصاب الغافلين الطاغين من قبلهم .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أعذر إليهم بأن وضع لهم الحق بالحجج على السنة الرسل فقال : « ولقد جاءتهم رسالهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » أي : ولقد جاء إلى أهل تلك القرى رسالهم بالدلائل الدالة على صدقهم ، فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات من رسالهم بما كانوا قد كذبوا به قبل رؤيتها منهم ، لأنهم لجحودهم وعنادهم نجرت قلوبهم ، واستوت عندهم الخالتان : حالة مجيئ الرسل بالمعجزات وحالة عدم مجيئهم بها .

وقيل إن المعنى : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم ، ونظيره قوله - تعالى - « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » .

وقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » أي : « مثل ذلك الطبع الشديد المحكم الذي طبع الله به على قلوب أهل تلك القرى المهلكة ، يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين جاءوا من بعدهم بسبب إيثارهم الضلالة على الهداية .

ثم كشف القرآن عن طبيعتهم فقال : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

أي : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم في الإيمان والتقوى ،

بل الحال والشأن أننا علمنا أن أكثرهم فاسقين ، أى خارجين عن طاعتنا ،  
تاركين لأوامرنا ، منتهكين لحرماتنا .

وبعضهم يجعل الضمير فى د أكثرهم ، لاهل القرى المهلكة ، وأنهم كانوا  
إذا عاهدوا الله بعهد نقضوه ولم يوفوا به . والأول أرجح .

والمراد بالعهد ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .  
ومن فى قوله د من عهد ، مزيدة للاستغراق وتأكيد النقي .

ولنما حكم على الأ أكثرين منهم بنقض العهد ، لأن الأقلية منهم قد آتوا  
ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والعمل الصالح .

وهذا لون من الاحتراس الذى امتاز به القرآن فى عرضه للحقائق ، فهو  
لا يلقى التهم جزافاً ، وإنما يعطى كل ذى حق حقه ، فإن كان الأ أكثرون قد استحقوا  
الذم الكفرهم ونقضهم لعهدهم ، فإن هناك قلة آمنت فاستحققت المدح والثناء .

قال الألوسى : وه إن ، مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف ، ولا عمل  
لها فيه لأنها ملغاة على المشهور . وذهب الكرفيرين إلى أن « إن » هنا نافية  
واللام فى « لفاسقين » بمعنى إلا ، أى : ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين « (١) .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى جاءت فى أعقاب الحديث عن أهل  
القرى المهلكة ، قد بينت لنا السنن الإلهية فى سعادة الأمم وشقاها ، وكشفت  
لنا عن حكمته - سبحانه - فى ابتلائه لعباده بالسراء تارة وبالضراء أخرى ،  
وحضت الناس على المراقبة لله وشكره على نعمائه ، وحثتهم من الغفلة  
والآمان من مكره - سبحانه - فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .  
ثم اتجهت فى النهاية بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فأطلعتنا على الطبائع الغالبة فى البشر حتى لا يضيق ذرعاً بأحوال من  
أرسل إليهم .

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فحدثنا عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل بعد حديثها قبل ذلك عن شعيب الذي كان معاصراً لموسى - عليهما السلام - .

فأنت ترى أن السورة الكريمة قد التزمت الترتيب التاريخي في حديثها عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولقد قلنا من قبل إن الأسلوب البارز في هذه السورة الكريمة وهي تدعو للناس إلى وحدانية الله يتجلى في تذكيرهم بنعم الله التي لا تحصى ، ونحو فهم عن طريق سرد أحوال الأمم الماضية ، بسبب مخالفتها لرسولها ، وعتوها عن أمر ربها ، ولعل هذا هو السر في أنها ساقت لنا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أنهم الذين أهلوا بكوا بسبب كفرهم ولم تذكر لنا - مثلاً - قصة إبراهيم مع قومه مع أن لوطاً - عليه السلام - كان معاصراً له ، وذلك لأن قوم إبراهيم لم يهلكوا ، ولم يلبتس هو من ربه ذلك ، بل اعتزلهم وما يعبدون من دون الله .

فالسورة الكريمة قد التزمت في مجموعها الحديث عن مصارع المكذبين لئلا يكونوا عبرة لكل عاقل ، وذكرى لكل عبد منيب .

ومن هنا فهي لا تحدثنا عن قصة موسى من أولها كما جاء في سورة القصص مثلاً وإما هي تبدأ حديثها عنها بالعرض الذي جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وهكذا تصرح السورة الكريمة في أول آية من قصة موسى بالهدف الذي سيقت من أجله وهو النظر والتدبر في عاقبة المفسدين .

ثم بعد ذلك تحدثنا حديثاً مستفيضاً زاخراً بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات انتهت بخرق فرعون وقومه ثم

عما دار بين موسى وبين بني إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم في الكذب والافساد والفسوق عن امر الله.

والآن فلنستمع إلى السورة المكرّمة وهم تحكى لنا قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل في نحو سبعين آية تبدو ما يقوله - تعالى - :

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ نَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (١٠٦) فَاتَّقِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السّٰحِرُ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فإِذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوَكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السّٰحِرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُ بَوْمٌ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ ألقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السّٰحِرَةُ سَٰحِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ

الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ  
أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُؤُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا  
أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لِأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافِ  
مُؤْمِنٍ لِأَصَابِنَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)  
وَمَا نَنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا  
صَبْرًا وَتُوفِنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) .

هذا هو الدرس الأول من قصة موسى مع فرعون وفيه نرى ما دار بين  
موسى وفرعون من محاورات ، وما دار بين موسى والسحرة من مناقشات  
ومساجلات انتهت بإيمان السحرة وهم يضرعون إلى الله بلسان صادق ، وقلب  
سلم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : دربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا  
مسلمين . . ولتبدأ في تفسير آيات هذا الدرس من أولها فنقول :

قوله - تعالى - : ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ،  
معلوف على ما قبله من قصص الأنبياء الذين تحدث عنهم السورة الكريمة .  
وهو موسى - عليه السلام - هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب .  
ويرى بعض المؤرخين ان ولاده موسى كانت في حوالي القرن الثالث عشر قبل  
الميلاد ، وان بعثته كانت في عهد منفتحاح بن رمسيس الثاني .

وفرعون : لقب ملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر ملوك الروم ، وكسرى  
ملوك الفرس ، والمعنى : ثم بعثنا من بعد اولئك الرسل الذين سبق الحديث  
عنهم - وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - بعثنا من بعدهم موسى  
بآياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه ، وهم اشراف  
قومه ، ووجهاء دولته .

قال بعض العلماء : ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، لأن  
الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستبعبدين لبني إسرائيل ، ويبدم امرم ،

وليس لسائر المصرين من الأمر شيء ، ولأنهم كانوا مستهينين - أيضا  
ولكن الظالم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد (١) .

وقوله « آياتنا » متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا ، أو صفة  
لمصدره . أى : بعثناه - عليه السلام - ملتبساً بها . أو بعثناه بعثاً  
ملتبساً بها .

والمراد بها الآيات التسع وهى العصا ، واليد البيضاء ، والسفون ، ونقص  
التمر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

ثم بين - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه القصة كيف تلقى فرعون  
وملأه دعوة موسى وآياته فقال : « فظلموا بها ، أى : فكفروا بهذه الآيات  
تكبراً وجحوداً ، فكان عليهم وزر ذلك ، وقد عدى الظلم هنا بالبلاء مع أنه  
يتمدى بنفسه لتضمنه معنى الكفر ، إذ هما من واحد قال - تعالى -  
إن الشرك لظلم عظيم .

ويجوز أن تكون الباء للسببية والمفعول محذوف ، أى : ظلموا أنفسهم  
بسببها بأن عرضوها للعقاب المهيمن . أو ظلموا الناس بصددهم عن الإيمان  
بهذه الآيات ، واستمروا على ذلك إلى أن حق عليهم العذاب الأليم ،

ثم ختمت الآية بالأمر بالتدبر فى أحوال هؤلاء الظالمين وفيما حل بهم من  
سوء المصير فقال - تعالى - فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، أى : فانظر  
أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل - كيف كانت عاقبة فرعون وهلمته  
الذين أفسدوا فى الأرض ، لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم ، وموسى  
وقومه ينظرون اليهم ، وتلك عاقبة كل من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ووضع - سبحانه - المفسدين موضع ضميرهم للإيدان بأن الظالم مستلزم  
للافساد .

و « كيف » خبر لكان مقدم عليها لاقتضائه الصدارة . و عاقبة ،

إسمها ، وهذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على إسقاط حرف الجر ، إذ التقدير : فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلناه بهم .

وهكذا نرى السورة الكريمة ترينا في أول آية من هذه القصة الغرض الذي سيقت من أجله وهو التدبر في عواقب المكذبين ، والتخويف من المصير الذي ساروا إليه ، وتنبه الناس في كل زمان ومكان عن السير على منوالهم . والسورة الكريمة عندما ترينا ذلك في مطلع هذه القصة تكون متناسقة كل التناسق مع أسلوبها الذي إختارته في دعوة الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وهو أسلوب التذكير بالنعيم ، والتحذير من عواقب الظلم والظلمة . كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في التمهيد بين يدي السورة -

ثم بعد هذا التنبيه الإجمالي إلى مآل المفسدين ، أخذت السورة تحكي لنا ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون بصورة مفصلة فقالت :  
« وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ، أي : قال موسى - عليه السلام - لفرعون في أدب وإعزاز إني رسول من رب العالمين ، أرسلني إليك لأدعوك لعبادته والخضوع له .

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق فقال : « حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، أي : جدير بالأقول على الله إلا القول الحق و « حقيق ، : صفة رسول ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي : أنا حقيق . أو خبر بعد خبر . و « على ، بمعنى الباء .

« قرأ أي : حقيق بأن لأقول على الله إلا الحق ، قرأ عبد الله ابن مسعود « حقيق ألا أقول ... ،

« قرأ نافع « حقيق على ان لا أقول على الله إلا الحق ، أي : واجب وحق على ان لا اخبر عنه - تعالى - إلا بما هو حق وصدق .

ثم قال : « قد جئتكم ببينة من ربكم ، أي : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به . وفي قوله « من ربكم إشعار بأن ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه . وإنما هو من عند رب العالمين ، الذي بيده ملكوت كل شيء .

« فأرسل معي بنى إسرائيل ، أى : قد جئتمكم ببينة عظيمة الشأن في الدلالة على صدقي . فأطلق بنى إسرائيل من أسرك واعتقهم وزرقت وقهرت ، ودعمهم يخرجون أحراراً من تحت سلطانتك ليذهبوا معي إلى دار سوى دارك .

وإلى هنا يكون موسى - عليه السلام - قد بين فرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فإذا كان رد فرعون .

يحكى القرآن رده فيقول : « قال إن كنت جئت بآية ، أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ، فأنت بها ، أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك في دعواك ، إن كنت من الصادقين ، في دعواك أنك من المنزمن لقول الحق .

وعبر بأن المفيدة للشك في تحقيق مضمون الجملة الشرطية . للإبذان بأنه ليس معتقداً في صدق موسى - عليه السلام .

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : « فالتى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، : أى فالتى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هي ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاخفاء في كونه ثعباناً حقيقياً يسمى في خفة وصرعة كأنه جان .

والثعبان الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : لأنه الحية مطلقاً :

وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحاً لضعفها .

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقه فقال : « ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ، النزع : لإخراج الشيء من مكانه . أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق فيصه ، أو من إبطه فإذا هي بيضاء بياضاً عجيباً خارقاً للعادة من غير أن يكون بها علة من مرض أو غيره . قيل : لأنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس :

قال الآلوسى : قوله ، فإذا هي بيضاء للناظرين ، أى : بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظر . . وقيل المعنى : بيضاء لأجل النظر لا أنها بيضاء فى أصل خلقتها ، لأنه - عليه السلام - كان آدم - أى أسمر - شديد الأدمة فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزبط ، وعنى - صلى الله عليه - وسلم - بالزبط جنسا من السودان والهنود<sup>(١)</sup> . .

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملاه إلى الإيمان به فهل آمنوا ؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله - تعالى - . قال الملائكة من قوم فرعون إن هذا ساحر عليم . .

أى : قال الأشراف من قوم فرعون إن هذا ساحر عليم ، أى : رأسخ فى علم السحر ، ماهر فيه . . ولم يكتبوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يشيرون الناس على موسى ، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا : يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره . .

أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم ، وأن يصبح هو ملكا على مصر ، فإذا تأمرون ، لانقضاء هذا الخطر الدائم ؟ وبماذا تشيرون فى أمره ؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة . يقال : أمرته فأمرنى . أى : شاورته فأشار على .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء حيث قال : قال للملائكة حوله - أى قال فرعون للملائكة حوله - إن هذا ساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون ؟ وهنا عزى إلى الملائكة فكيف الجمع ، قلت : قد قاله هو وقالوه هم فحسبى قوله هناك

وقولهم ههنا . أو قاله ابتداءً فتلقتة منه الملائق قائلوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس عن طريق التبليغ كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . . وقولهم : « فإذا تأمرون ، من امرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى : وقيل : « فإذا تأمرون ، من كلام فرعون ، قاله للملائق قائلوه : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم ، كأنه قيل : فإذا تأمرون ؟ فأجابوه : أرجه وإخاه .. » (١) .

ثم حكى القرآن ما أشار به الملائق من قوم فرعون فقال : قالوا أرجه وإخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . .

أرجه : أصله أرجته - وقد قرئ به - حذف الهمزة وسكنت الهاء ، شبيها للضمير المنفصل بالضمير المتصل . والإرجاء التأخير . يقال : أرجيت هذا الأمر وأرجأته ، إذا أخرته . ومنه : ترجى من تشاء منهم . .

والمدائن : أى : البلاد جمع مدينة ، وهى من مدن بالمكان - كنصر - إذا أقام به ، و « حاشرين ، أى : جامعين ، يقال . حشر الناس - من باب نصر وضرب - يحشرم حشرا إذا جمعهم ، ومنه : يوم الحشر والحشر .

والمعنى : قال الملائق من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره وأمر أخيه - ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك لسحرة المهرة ، لى يوقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبطالوه بسحر مثله أو أشده ، وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل ملكته .

وقال بعضهم : الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو أنهم بقوته ، فقالوا له : أخره ليتبين حاله للناس .

وقال الجشمي : تدل الآية على معجزة عظيمة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسمى لا يقدر عليه إلا الله وتدل على أن من عادة البشر أن من رأى أمراً عظيماً يعارضه ، فلذلك دعا فرعون بالسحرة ... وتدل على أنهم أنكروا أمره بحفاضة على الملك والمال ، لذلك قالوا : يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فيدل على أن من أقوى الدواعي إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه كما هي عادة الناس في هذا الزمن ، (١) .

وقوله ، في المدائن ، متعلق بأرسل ، و ، حاشرين ، نعمت لمخدوف أى : رجالا حاشرين . ومفعوله مخدوف . أى : حاشرين السحرة بدليل ما بعده . ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة ، ولا أنهم جمعهم ، وإنما يترك ذلك للعقل بفهمه حيث لا داعى لذكر هذه التفاصيل . ويتجه القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول :

« وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين ، .

أى : وأقبل السحرة سريعاً على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما بعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجراً عظيماً إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم ؟ فهم يستوثقون أولاً من جزالة الأجر وضخامته . وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلاً عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى ، فهو يفرجهم بالأجر المادى ويعدمهم بالقرب المعنوى من قلبه تشجيعاً لهم على الإجابة ، وهو وهم لا يعلمون ان الموقف ليس موقف الاحتراف

والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التي لا يستطيع الوقوف في وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم .

هذا ، وقد اختلف المفسرون في عدد هؤلاء السحرة فقيل ، كانوا إثنتين وسبعين ساحراً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وبعد أن إطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم اليه ، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى يقولون له بلفظة الواثق من قوته ، المتحدى لخصمه : « يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ، .

أى : أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاك أولاً ، وبين أن تلقى نحن أولاً وأنت تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفي كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فأرح نفسك وإستسلم لنا مقدما .

ويرى الزمخشري أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا في الصراع (١)

ولقد حكى لنا القرآن في سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه في معركة هم الخاسرون فيها قطعاً فقال : « قال لهم موسى ويلكم لانفتروا على الله كذبا فيستحكم بهذاب وقد خاب من إفتري ، (٢)

أما هنا فيحكى لنا القرآن ان موسى - عليه السلام - قد طلب منهم أن يلقوا أولاً مستهيناً بتخديهم له ، غير مبال بهم ولا بمن جمعهم ، لأنه قد اعتمد على خالقه ، قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ٦١ من سورة طه .

أى : قال لهم موسى القديما ما أنتم ملقونون أريلا ، فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصى ، سحروا أعين الناس ، أى : خيلوا إلى الألبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل - سبحانه - سحروا الناس .

وقوله : واسترهبوهم ، أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر . وجاءوا بسحر عظيم ، أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه ، فصارت كأنها نعامين .

والتعبير بقوله - سبحانه - واسترهبوهم ، تعبيرا مصورا بليغ ، فهو يوحى بأنهم أستجاشوا وجدان الناس قسرا ، وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لا تستند إلى واقع سليم .

روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبًا طوالا ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضها .

وروى أنهم لو نوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يؤم الحركة . قيل . جعلوا فيها الزيتق .

وقال بعض العلماء : قيل لإنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زيتقا ، وقد حفرها قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملؤها نارا ، فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة بالزيتق حركها ، لأن شأن الزيتق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مؤمها على غير حقيقته . . . فعلى هذا يكون سحروهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية ، (١)

ويعنى القرآن فيبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تهاوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، أستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك

فيقول : د وأوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبو هنالك وانقلبوا صاغرين .

اللقف:التناول بسرعة . يقال:لقف الشيء . يلقيه لقفًا ولقفانًا، أخذه بسرعة والإفك : الكذب . يقال أفك أفك يأفك، وأفك يأفك إفكا وأفكا - كضرب وعلم - إذا كذب ، وأصله من الأفك - بفتح أوله - وهو بمعنى صرف الشيء عن وجهه الذي يجب أن يكون عليه . واطلاق على الكذب إفك - بكسر الهمزة - لكونه مصروفًا عن وجه الحق ، ثم صار حقيقة فيه .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن ألقى عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى ، فألقاها فإذا هي تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة « فوق الحق » أي : ظهر وتبين وثبت الحق الذي عليه موسى - وفسد وبطل ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره . وترتب على ذلك ان اصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملائه وسجراته في ذلك المجمع العظيم ، الذي حشر الناس له في يوم عيدهم وزيارتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين اذلاء ، بعد ان أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

وان قوله د أن ألق ، يجوز ان تكون مفسرة لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو الايحاء ، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هي وما بعدها مفعول الايحاء .

والفاء في قوله د فإذا هي تلقف ، فصيغة اي : فألقاها فصارت حية فإذا هي تلقف ما يأفكون .

وإنما حذف هذا المقدر للايدان بمسارعة موسى إلى الالتقاء ، وبغاية سرعة الانقلاب ، كأن إبتلاعها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالإلقاء .

و د ما ، في قوله د ما يأفكون ، موصولة والعائد محذوف اي : الذي يأفكونه ، أو مصدر تميم مع الفاعل اي : فأذاهي تلقف المأفوك .

وفي التعبير بقوله - سبحانه - « فوقع الحق ، تجسيم لهذا الحق الذي كان عليه موسى ، وتثبيت واستقرار له ، حتى لا كأنه شيء ذو ثقل نزل على شيء آخر خفيف الوزن فأزاله ومجاه من الوجرد .

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس بريقه لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى لينخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف . . . . . ولا يمكن ما أن يواجهه الحق الهادي . الثابت المستقر بقوته التي لا تغالب حتى يزهد ويزول . وينطفئ كشمعة الهيشيم ، وإذا بانباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تنهاوى ، وآمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديدتهم الصريح ، ونظاؤهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين ، وذل مشين .

ثم يحكي لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا باعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر : « وألقى السحرة ساجدين ، أوى : خروا سجدا . كأنما - كما قال الزمخشري - ند القاهم ملق لشدة خروورهم أولم يتمالكوا أنفسهم مما رأوا فكأنهم ألقوا

والمراد أن ظهور بطلان سحورهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكان أحدا قد دفعهم إليه دفعا ، وألقاهم إليه إلقاء .

وقوله « قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ، أوى : قال السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بما لك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، وجملة « رب موسى وهارون ، بدل من الجملة التي قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان . وفائدة ذلك نفي توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله - تعالى - كقول فرعون « أنا ربكم الأعلى ، .

، وهكذا نرى أثر الحق عندما تخاطب بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن

السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ماجا، به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لا يمحده إلا مكابر حقود .

ولكن فرعون وملاه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب ، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، أى : قال فرعون منكرأ على السحرة لإيمانهم ، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن أمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

ثم اضاف إلى ذلك إتهامهم بأن لإيمانهم لم يكن عن إحلاص ليصرف الناس عنهم فقال : إن هذا لمكركم مكر تموة فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، أى : إن ما صنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن إقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها اتم وموسى قبل أن يلقى كل منكم بسحره ، لكي تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطؤ مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى أخراجهم من اوطانهم ، فعليهم أى القبط - أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة لبنى إسرائيل .

ولاشك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صدق الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - .

ثم أتبع هذا الإتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : فسوف تعلمون ، أى : فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم . ثم فصل هذا الوعيد بقوله : لا قطعن أيديكم وأرجلكم

أى : أقدم لأفطن من كل شق منكم عضواً مغايراً الآخر ، كاليد من الجانب الأيمن ، والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبكم أجمعين تفضيلاً لكم ، وتنكيلاً لامثالكم . ومع أن فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطىء المرهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل ، والإيمان العميق ، والاستمانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات واطمئنان : « إنا إلى ربنا منقلبون ، قال صاحب الكشاف : فيه أوجه : أن يريدوا - إنا لانبأ بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقاءك . أو ننتقل إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب . أو إنا جميعاً يمتنون أنفسهم وفرعون ننتقل إلى الله فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه (١) » .

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ، وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ، أى : وما تنكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله ، مع أن ما تنكره منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نمدل عنه طلباً لمرضاتك .

يقال : نقم عليه أمره ، ونقمت منه نقما - من باب ضرب - عبه وكرهته أشد الكراهة .

قال الجمل : وقوله « إلا أن آمننا ، يجوز أن يكون فى محل نصب مفعولاً به ، أى : ما تعيب علينا إلا إيماننا . ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله . أى : ما : ما تنال منا وتهذبنا الشئ من الأشياء إلا لإيماننا . وعلى كل من القولين فهو إستثناء مفرغ (٢) » .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٩ .

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والاتجاه إلى الله - تعالى - فقالوا : « ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ، أى : ياربنا افض علينا صبراً واسعاً انثبت على دينك ، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مدعنين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك .

وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس في كل زمان ومكان أروع الأمثال في التضحية من أجل العقيدة، وفي الوقوف امام الطغيان بثبات وعزة، وفي الصبر على المسكاره والآلام ، وفي المصارعة إلى الدخول في الطريق الحق بعد ان تبين لهم ، وفي التعالى عن كل مغريات الحياة .

قال قتادة : « كانوا في اول النهار كفاراً سحرة . وفي آخره شهداء بررة ، فرضى الله عنهم وحشرنا في زميرتهم .

وبعد هذا الحديث الذى ساقته السورۃ عمادار بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة ، والذى انتهى بإيمان السحرة برب العالمين بعد ذلك بدأت السورة تحكى لنا ما قاله الملأ من قوم فرعون بعد هزيمتهم المنكرة ، وما قاله موسى - عليه السلام - لقومه بعد ان بلغهم وعيد فرعون وتهديده لهم ، وما رد به قومه عليه بما يدل على سفاهتهم فقالت :

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَالْمَلِكُ ؟ قَالَ سَنَقْتَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) » .

قوله - تعالى - « وقال الملا من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذكرك وآلهتك ، » .

أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابهم الهزيمة والخذلان في معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهبيج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين في أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس في دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .

روى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عدداً كبيراً من الناس ، قد دخل في الإيمان متبعاً السحرة الذين قالوا « آمنا برب العالمين ، » .

وقوله « ويذكرك وآلهتك ، » معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، فيظهر للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التي بها يفسد ملكك .

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه الرب الأعلى .

وقال الحسن إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للمالئ السفلى كله ، وهو رب النوع الانساني .

وقد قرئ « ويذكرك ، » بالنصب والرفع . أما النصب فعلى أنه معطوف على « ليفسدوا ، » وأما الرفع فعلى أنه عطف على « أتذر ، » أو على الاستئناف ، أو على أنه حال بحذف المبتدأ أى : وهو يذكرك .

والمأمل في هذا الكلام الذي حكاه القرآن عن الملا من قوم فرعون ، براه يطفح بأشد ألوان التآمر والتجربص . فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان تحطيم الأوهام التي يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : « سنقتل أبناءهم ، ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . »

أى : لا تخافوا ولا ترقاعوا أيها الملا فإن قوم موسى أهون من ذلك ،

وسنزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقطيل الأبناء ، وترك الفساد  
أحياء ، وإنا فوقهم غالبون كما كنا ما تغير شيء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن  
الأقوياء ، وهم الأذلة ونحن الأعزة .

فأنت ترى أن مقاله المأل من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء في كل  
عهد الطغيان فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله لإفساد في الأرض ، لأنها  
ستأني على بنيانهم من القواعد ولأنها هي الدعوة إلى وحدانية الله التي ستحرر الناس  
من ظلمهم وجبروتهم ، وتفتح العيون على النور الذي يخشاه أولئك الفاسقون .

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائماً . فهم يلجأون  
إلى قوتهم المادية ليحموا بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ،  
والبطش ، والمنافع الشخصية .

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال  
موسى - عليه السلام - ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى  
قومه بالصبر ، ولوح لهم بالنصر . إستمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى  
- عليه السلام - فيقول :

« قال موسى لقومه إستعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من  
يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسليمة حين ضجروا وارتعبوا  
من تهديدات فرعون وملئه : يا قوم إستعينوا بالله في كل أموركم . واصبروا  
على البلاء ، فهذه الأرض ليست ملكاً لفرعون وملئه ، وإنما هي ملك لله رب  
للعالمين ، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته  
- سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحداً سواه .

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة ، وصى موسى قومه  
بني إسرائيل فإذا كان ذلك كله قد كان ، وهم بدأوا سفاهتهم ، فقد قالوا

له: أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، أى : قال بنو إسرائيل لموسى رداً على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألواناً من الظلم والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا . واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهيبة ، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئاً ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لا جدوى من ورائها ؟

ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : دعى ربكم أن يهلك عدوكم ، فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم ، وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .

ويستخلفكم فى الأرض ، أى يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته . « فينظر كيف تعملون ، أى : فى ربى - سبحانه - السكان منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلفكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان . فإن أحسنتم زادكم الله من فضله ، وإن أسأتم كان مصيركم كصير أعدائكم .

وفى التعبير « بعسى » الذى يدل على الرجاء ، أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل - : وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الانكسار وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد اعتماداً على ذلك .

وقيل : إن موسى ساق لهم ما واعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم للملكة وقوته ، فكأنهم يرون أن ما قاله لهم موسى مستبعد الحصول ، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء .

ثم تبنى السورة الكريمة بعد ذلك فتحدثنا فى بضع آيات عن العذاب

الذى أخذ الله به آل فرعون بسبب ظلمهم وطغيانهم، وكيف أن الله - تعالى -  
قد حقق لموسى رجاءه، وكيف أن أولئك الظالمين لم يمتنعوا من العذاب الذى  
نزل بهم من إرتكاب المنكرات والآثام ..

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ، وَتَقْصِيهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ  
يَذْكُرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ  
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْأَنَّا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا  
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ  
وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا  
مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ بِكَ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوقُ  
إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ  
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ  
وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) » .

تدبر معنا أيها القارىء الكريم تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل ذلك  
وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين »

يعنى الجذب ، وهذا معروف فى اللغة ، يقال : أصابتهم سنة ، أى : جذب .  
وتقديره : جذب سنة ، وفى الحديث « اللهم إجمعها عليهم سنين كسنى يوسف » .  
والسنة هنا بمعنى الجذب لا بمعنى الحول . ومئة أسنت القوم ، أى أجدبوا .  
وقحطوا (١)

وقال الألوسى : هذا شروع فى تفصيل مبادئ الهلاك الموعود به ، وإيدان  
بأنهم لم يمهلوا حتى تحوّلوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب  
الإستئصال (٢)

والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : لإختبرناهم وامتحانهم بالجذب  
والقحط ، وضيق المياه شدة ، وإنتفاض الثمرات لهمم يشوبون إلى رشدهم ؛  
ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر  
والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب  
فى الضراعة الى الله ، وتدعوا إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا .  
إتقاء للبلايا .

وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لإظهار الاعتناء بضمونها .

والمراد بآل فرعون قومه واتباعه ، فهم مؤخذون بظلمه وطغيانه ، لأن  
قوته المالية والحندية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً ؛ واكرمهم بالعقل  
والفطرة التى تنكره الظلم والطغيان بالعبودية فكان حقاً عليهم الا يقبلوا  
إستعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه ، لا يسجد بعثة موسى — عليه السلام —  
ووصول دعوته إليهم ، ورؤيتهم لما أبداه الله به من الآيات (٣) .

(١) تفسير القرطبى > ٢ ص ٢٩٢

(٢) تفسير الألوسى > ٨ ض ١٣٨

(٣) تفسير المنار > ٩ ص ٨٦

وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف ، لما فيه من الشرف  
الذي يوصى الظاهر ، وإن كان في نفس الأمر خسيساً .

ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا به - إذا الأخذ والامتحان ،  
وإنما ازدادوا تمرداً وكفراً فقال : ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . .

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بفرور  
وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له ، ونحن مستحقوه بكفنا  
واجتهادنا وإتياننا على غيرنا فاسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم ، غافلين عن  
شكره على نعمائه .

، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، أى : وإن انفق أن  
أصابتهم سيئة أى : حالة تسوءهم كجذب أو قحط أو مصيبة في الأبدان أو  
الأرزاق ، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا  
إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .

وأصل ، يطيروا ، يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء لمقاربتها لها . والتطير  
التشاؤم والأصل في إحلاق التطير على التشاؤم : أن العرب كانت تزجر الطير  
فتتشام بالبارح وهو ما طار إلى الجهة اليسرى ، وتيامن بالساح وهو ما طار  
إلى الجهة اليمنى . ومنه سموا الشؤم طيراً وطائراً ، والتشاؤم تطيراً . وقد يطلق  
الضائر على الحظ والنصيب خيراً كان أو شراً ، ولكنه غالب في الشر .

وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق - وهي إذا - أسكثرة  
وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، لأن العناية الإلهية اقتضت سبق  
الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال . وذكر السيئة وذكرها بأداة  
الشك - وهي إن - لدورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالتبعية ،  
فإن النعمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بسبب الأعمال السيئة .

وقوله - تعالى - : ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ،  
استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباضيهم . وصدر بلفظ . ألا ، الذي  
يفيد التنبية لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر ،

أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهي التي ساقط لإيهم ما يسوؤهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك . واكن أكثرهم يحولون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم .

وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها .

هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا لا بالرءاء ولا بالشدائد . الرءاء العظيم ، والخصب الواسع زادم غرورا وبطرا ، والشدائد والمحن جعلتهم يفسبون أسبابها إلى غيرهم دون أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم . مع أن الشدائد -- كما يقول صاحب الكشاف -- تجعل الناس دأضرع خدودا وألين أعطافا ، وأرق أفئدة .

ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا فى طغيانهم بعمهون فقالت : **« وقالوا مهمما تأتانا به من آية لنسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين »** .

أى : قال الملا من بنى إسرائيل لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : **« إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين . »**

ومنظفهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لا يجدى معها دليل ولا ينفع فيها إقناع ، لانهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أنام فيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، لانهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفكير والتدبر .

قال الجمل : **« ودمهما »** اسم شرط جازم -- يدل على العموم -- ، **« ودمه »**

آية ، بيان له ، والضميران في د به ، ود بها ، راجعان لمهما الأول مراعاة للفظها لإيهامه ، والثاني مراعاة لمعناها (١) .

وسموا ما جاء به مومى - عليه السلام - آية من باب المجازاة له والاستهزاء بها حيث زعموا أنها نوع من السحر كما ينهى عنه قولهم د لتسحرنا بها .  
ثم حكى السورة المكربة ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوم وعنادهم فقالت : د فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا دوما مجرمين .

أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان .  
قال الآلوسى : أى : ما طاف بهم ، وغشى أما كتبهم وحروثهم من مطر وسيل ، فهو اسم جنس من الطواف . . وقد اشتهر في طوفان الماء ، وجاء تفسيره هنا بذلك في عدة روايات عن ابن عباس . وجاء عن عطاء وبجاهد تفسيره بالموت ، وفسره بعضهم بالطاعون وكانوا أول من عبدوا به د (٢) .

وأرسلنا عليهم د الجراد ، فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .

وأرسلنا عليهم د القمل ، وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية ، وقيل هو السوس الذى أكل حبوبهم وما اشتملت عليه بيوتهم .  
وأرسلنا عليهم د الضفادع ، فصعدت من الأنهار والخلجان والمنايع فغطت الأرض وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم .

وأرسلنا عليهم د الدم ، فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فأت السمك فيها ، وتيل المراد بالدم الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم .  
تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .  
وقوله : د آيات ، حال من العقوبات الخمس المتقدمة .

وقوله : « مفضلات » ، أى : مميزات واضحات لإبشك عاقل فى كونها آيات إلهية لا مدخل فيها للسحر كما يزعمون .  
وقيل « مفضلات » ، أى : مميزا بعضها عن بعض ، منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم . وكان بين كل اثنين منها شهر ، وكان امتداد كل واحدة منها شهرا ، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس (١) :  
ثم وضحت الآية فى نهايتها موقفهم من هذا الابتلاء . وتلك العقوبات فقالت :  
« فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » أى فاستكبروا عن الإيمان بموسى -- عليه السلام -- وعما جاء به من معجزات ، وكانوا قوما طبيعتهم الاجرام ودينتهم الكفر والفسوق .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل » .

أى وحين وقع على فرعون ومثله العذاب المذكور فى الآية السابقة ، والمتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، حين وقع عليهم ذلك أخذوا يقولون لموسى بتذلل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لا نقاذفا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نقسم لك بأنك إن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .

قال صاحب الكشف : بما عهد عندك ، ما مصدرية ، والمعنى بعهده عندك وهو النبوة . والباء إما أن تتعلق بقوله : ( ادع لنا ربك ) على وجهين : أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة . أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهده عندك . وإما أن يكون قسما مجابا ، بلؤمنن ، أى . أقسمنا بعهده الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (٢) .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودي فقال : فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينسكتون ، أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت إغراقهم فى اليم ، إذا هم ينسكتون أى : ينقضون عهدهم الذى التزموه ، ويحتشون فى قسمهم فى كل مرة .

وينسكتون : من النسكت . وأصله فك طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانياً ، ثم استعير لتقض العهد بعد إبرامه .

قال الألوسى . وجواب « لما » ، فعل منذر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة المقترنة بها ، أى : فلما كشفنا عنهم ذلك فاجأوا بالنسكت من غير توقف ، (١) . هذا ، وقد ساق بعض المفسرين آثاراً متعددة فى كيفية نزول هذا العذاب بهم . ومن هذه الآثار ما رواه أبو جعفر بن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال :

لما أتى موسى - عليه السلام - فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل ، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعاه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل . فأثبت لهم فى تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلاء ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلاء ، فلما رأوا أنه فى الكلاء عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعاه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا فى البيوت قالوا : قد أحرزنا . فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه ، كان الرجل يخرج عشرة أجرية إلى الرحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أقصرة

(١) تفسير الألوسى ، ص ٩٦ ، ٢٦٠

— والجريب والقفيز مكيالان للجبوب ، والجريب أربعة أقفزة — فقالوا يا موسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عناء فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون : ما تأتي أنت وقومك من هذا فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ، فأأمسوا حتى كان الرجل يجاس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه فقالوا لموسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا استغفوا من الأنهار والآبار ، وما كان في أوعيتهم وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم نأيس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أيز سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا ؟ فأتوا وقالوا : يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، (١) .

قال ابن كثير : وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بهذا .

ثم حكى السورة السكرية نهايتهم الألية ، بسبب تقضيمهم ليهودهم ومرايقتهم في كل مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله . وعصيانهم لنبيه موسى — عليه السلام — فقالت : فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، أي : فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم . بأأغرقتناهم في اليم — أي البحر — ، وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة وحببنا الساطعة ، وكانوا عنها غافلين بحيث لا يتدبرونها ، ولا يتفكروا فيها تحمله من عظمات وعبر .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجمة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها في مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام لا اخذ الحاسم بمد الإهمال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل. إن الحسم السريع هنا أوقع في النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يظلب عليها هذا الأسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة ، ويفرس في النفوس الرهبة والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسالها وعتت عن أمر ربها .

ثم وهى تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم واثمها كمهم لحرمت الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، .

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه بالاستعباد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق ، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم ، واختبارا لنفوسهم .

وجمع - سبحانه - بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجاهده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكرنا بعنوان القوم ، إظهارا لجمال اللطف بهم ، وعظيم الإحسان إليهم ، حيث رفعوا من حضيبض المذلة إلى أوج العزّة .

وقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، أى :  
ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه -  
النصر على أعدائهم ، والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون  
وملئه .

قال الزمخشرى : وحسبك به حائنا على الصبر . ودالا على أن من قابل  
البلاء بالجزع وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وافتظار النصر ، ضمن الله  
له الفرج .

وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله - تعالى - ثم تلا  
هذه الآية ، وأورثنا القوم الذين كانوا . . . . . ومعنى « خف ، طاش جزعا  
وقلة صبر ، ولم يرزق رزانه أولى الصبر (١) .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه  
من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ،  
والصروح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .

و « يعرشون ، بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشئ  
المسقف المرفوع .

قال الجمل : وقوله « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، فى إعرابة  
أوجه ، أحدها : أن يكون فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم ، والجملة  
التيكونية صلة وانعائد محذوف . والتقدير : ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه .  
الثانى : أن اسم كان ضمير عائد على ما الموصولة ، ويصنع مسند لفرعون .  
والجملة خبر عن كان ، والعائد محذوف ، والتقدير : ودمرنا الذى كان هو  
يصنعه فرعون . الثالث : أن تكون كان زائدة وما مصدرية والتقدير ودمرنا  
ما يصنع فرعون أى : صنعه . . . (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٨٥ .

وهكذا انتهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف في الأرض.

ثم بدأت السورة بعد ذلك مباشرة حديثاً طويلاً عن هؤلاء المستضعفين من بني إسرائيل يذنت فيه ألواناً من جحودهم لنعم الله، ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخلق - عز وجل وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم، واستمع إلى القرآن وهو يحكى لونا من رذائلهم فيقول:

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى  
أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ  
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبِرٌ مَأْمُومٌ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا  
يَفْعَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُونَكُمْ سُوءًا  
الْعَذَابِ ، يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ  
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) » .

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبني إسرائيل ملخصها: أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليخيدوهم إليها، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر، ولكنهم ما إن جاؤوا البحر الذي غرق فيه عدوهم والذي مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام، فماذا كان من بني إسرائيل؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذي جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التي يعبدونها أولئك القوم .

وهنا غضب عليهم موسى غضباً شديداً . ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه المشركون ، وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، ويجب عليهم لإفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وقوله - تعالى - « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، بيان للمنة العظيمة التي منحهم الله إياها ، وهي عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقاً يابساً يسرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحمدهم عنايته ورعايته .

وجاوز بمعنى أصل الفعل الذي هو جاز ، أى : قطعنا بهم البحر . يقال : جاز الوادى وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره .

والمراد بالبحر : بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله تعالى ( فأتوا على القوم يعكفون على أصنام لهم ) بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فإذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم . منذ أن كانوا يسامرون سوء العذاب في ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذي دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكي يزيل عنهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تغلر قلوبهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت

أبصارهم على قوم يعكفون ويدأومون على عبادة أصنام لهم (١)، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذي جاء لهدايتهم، أن يجعل لهم وثناً كغيرهم لكي يعبدوه من جديد . لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، مالبثوا أن قالوا لنبيهم ( يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ) . قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم ، مازال متمكناً من نفوسهم ، ومسيطرأ على عقولهم ، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بني إسرائيل ما تكاد تهتدي حتى تفضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ؛ وما تكاد تسير في طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفي قولهم لنبيهم ( اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ) بصيغة الأمر ؛ أكبر دليل على غياب عقولهم ، وسوء أدبهم ؛ لأنهم لو استندنوه - مثلاً - في اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لسكان شأنهم أقل غرابة ؛ ولكن الذي حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله تعالى ؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثني الجبار - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكي يعبدوه كغيرهم ١١ ،

قال القرطبي : ونظيره قول جهال الأعراب وقد راوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى يلقونها - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة في كل ستة يوماً ، قال الأعراب : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله - صلى الله

(١) اختلف المفسرون في شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بني إسرائيل بهم ، ف قيل هم من عرب لحنم . وقيل هم من لحم وجدام . وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى - قومه بقتالهم ، وقيل إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر .

عليه وسلم - د الله أكبر . قائم والذي نفسى بيده كما قال قوم موسى د اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ، لتركين سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة (١) حتى لانهم لو دخلوا حجر ضرب لدخلتموه ، وكان هذا في مخرجه إلى حنين ، (٢) .

واقعد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم رداً قوياً فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال: (إنكم قوم تجهلون) أى : لانكم يا بني إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما استحقه الألوهية ما استحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يحملونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل . وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه في ذاته ، وقيح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ( إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعدلون ) .

متبر : من التبير بمعنى الإهلاك أو التاكسير والتحطيم يقال : تبره يتبره وقبره أى أهلكه ودمره .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم في عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر في هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار -

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون ، وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير .

(١) القذة: ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلاً للشيثيين يستويان ولا يتفاوتان .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٧٣ .

قال الإمام الرازي : ( والمراد من يطلان عملهم أنه لا يعبد عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول في هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سببا لاستحكام ذكر الله تعالى في القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها ، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره ، ويصير ذلك التعلق سببا لأعراض القلب عن ذكره تعالى . وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع . وسعى في تحصيل ضد هذا الشيء ونقيضه . لأننا بينا أن المقصود من العبادة ، رسوخ معرفة الله - تعالى - في القلب والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب ، فكان هذا ضد الغرض ونقيضا للمطلوب - والله أعلم - ) (١) .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب ، وبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ( أغير الله أبعثكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ) .

أى قال موسى - عليه السلام - مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع أغير الله أطلب لكم معبوداً أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمي زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة ، كما إختصكم هو بشتى النعم الجليله . فالاستفهام فى الآية الكريمة للانكار المشرب معنى التعجب لا بتفاهتهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمروهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

و د غيره ، كما قال الجمل - منصوب على أنه مفعول به لا بغيركم على حذف اللام والتقدير : أأبغى لكم إلهاً ، فإنا حذف الحرف وصل الفعل بنفسه وهو غير منقاس . و « إلهاً » تمييز لغير .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنبائهم من العذاب والتكليل ، ليهتليهم

أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : ( وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ) .

« إذ » بمعنى وقت ، وهي مفعول به لفعل ملاحظ في الكلام وهو اذكروا أي : اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون . والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .

وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه . ويطلق غالباً على أولى الشأن والخطر من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الاسكاف .

و « يسومونكم سوء العذاب » يبيعون لكم أشد العذاب وأفضحه من السوم وهو مطلق الذهب ، أو الذهب في إبتغاء الشيء . يقال : سامت الأبل فهي سائمة ، أي ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة ، إذا طلبها وابتغها .

والسوء - بالضم - كل ما يحزن الانسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الآخروية . ويستحيون : أي يستبقون . يقال : إستحياءه أي : إستبقاه ، وأصله : طلب لة الحياة والبقاء . والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر .

والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل لتعذبوا وتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نساءكم ليستخدموهن ويستذلوهن . وفي ذلكم العذاب وفي النجاة منه إمتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الاذلال في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الأمر بتعذيب بني إسرائيل ، للتنبية على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له على إذاقتهم سوء العذاب ، وفي إنزال ألوان الاذلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة إستحياء النساء عقوبة لبني إسرائيل - مع أنه

في ظاهره نعمة لهم - لأن هذا الإبقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن في شتى أنواع الخدمة، وإذلالهن بالاسترقاق، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل؛ وعذاب أليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الحرة الأبية.

قال الامام الرازي ما ملخصه : في قتل الذكور دون الاناث مضره من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى إنقطاع النسل ، لأن النساء إذا لم يفرذن فلا تأثير لهن البتة في ذلك ، وهذا يقتضى في نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء في أمر المعيشة . فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها الرجال . لما قد تقع فيه من فكده العيش بالانفراد .

ثالثها : ان قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد، والرجاء القوي في الانتفاع به من اعظم العذاب . فنعمة الله في تحليصهم من هذه المحنة كبيرة . رابعاً : ان بقاء النساء بدون الذكور ان من افاربهن ، يؤدي الى صيرورتهن مستغفرشات للأعداء . وذلك نهاية الذل والهوان (١)

وقد رجح كثير من المفسرين ان المراد بالأبناء هنا الأطفال البالغين ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل الرجال لا يفيدهم حيث انهم كانوا يستعملونهم في الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت ام موسى بإقامته في اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال الأبطال، لأن لفظ الأبناء هنا جعل في مقابلة النساء ، والنساء هن البالغات .

والذي نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه أتم في إظهار نعمة الانجاء ، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل ، ويسترقون الأمهات لاستعباداً لهن ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير . فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم الهة كما لغيرهم آلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه في ذاته ، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون الهائم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر ، ثم ذكرت في ختامها بوجوه النعم التي أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم ، هو من قبيل مقابلة الاحسان بالجحود والنيكران ، ولتحميلهم على أن يتدبروا أمرهم ، ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحاً . إن كانوا ممن ينتفع بالعظمت ويعتبر بالملات .

ثم حكمت لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهد تطلع موسى - عليه السلام - للقاء ربه ، ووصيته لأخيه هارون قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم فقالت :

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ  
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ  
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ  
رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرَأَيْتَ أَنْظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى  
الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

دَكَأَ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ  
الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي  
وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي  
الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ  
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) .

قال صاحب الكشاف : « روى ان موسى - عليه السلام - وعد بنى  
إسرائيل وهو بمصر ، إن اهلك الله عدوهم اتمام بكتاب من عند الله ، فيه  
بيان ما يأتون وما يندرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب وأمره  
بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة ، فلما اتم الثلاثين انكر خلوف فمه  
فتسوك . فقالت له الملائكة : كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك  
فأمره الله - تعالى - ان يزيد عليها عشرة ايام من ذى الحجة لذلك . وقيل امره  
الله ان يصوم ثلاثين يوماً وان يعمل فيها بما يقربه من الله ثم انزل الله عليه  
في العشر التوراة وكله فيها<sup>(١)</sup> . »

والمواعدة مفاعلة من الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها  
هنا ان الله - تعالى - امر موسى ان ينقطع للمناجاة اربعين ليلة تمهيداً لإعطائه  
التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة ابى عمرو ويعقوب « وعدنا » .  
وقيل المفاعلة على بابها على معنى ان الله - تعالى - وعد نبيه موسى ان يعطيه  
التوراة وامره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال ،  
وقوله « ثلاثين » مفعول ثان لو اعدنا بحذف المضاف ، اى : اتمام ثلاثين  
ليلة او اثنائها .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٥١ .

والضمير في قوله « وأتمناها بعشر » يعود على المراجعة المفهومة من قوله « واعدنا ، أي : وأتممتنا مواعدته بعشر ، أو أنه يعود على ثلاثين :

وحذف تمييز عشر لدلالة السلام عليه ، أي : وأتمناها بعشر ليال .

و « أربعين » منصوب على الحالية أي . قتم ميعات ربه بالغاً أربعين ليلة .

ثم حكى -- سبحانه -- ما روى به موسى أخاه هارون فقال : « وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي ، أي : قال موسى لأخيه هارون حين استودعه لينذهب لمناجاة ربه : كن خليفتي في قومي ، ورافهم فيما يأتون ويذرون فإنهم في حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم ، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم . وأصلح ولا تتبع طريق المفسدين الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً .

وإننا لنلح من هذه الوصية أن موسى - عليه السلام - كان مترقياً شراً من قومه ، ولقد صح ما توقعه ، فإنهم بعد أن فارقه موسى استغلوا جانب اللين في هارون فعبدوا عجلاً جسداً له خوار صنعهم لهم انسامرى . .

ثم حكى القرآن ما كان مو موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، أي : وحين حضر موسى لميقاتنا الذي وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه ، أي : خاطبه من غير واسطة ملك » قال رب أرني أنظر إليك ، أي : قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرني ذاتك الجليلة . والمراد : مكثي من رؤيتك . أو تجل لي أنظر إليك وأراك .

و « أرني » فعل أمر مبني على حذف الياء . وياء المتكلم مفعول ، والمفعول الثاني محذوف أي : ذاتك أو نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم ، وزيادة في التأدب مع الخالق - عز وجل - .

وجملة « قال لن تراني » مستأنفة إستئنافاً بيانياً ، كأنه قيل : فإذا قال

الله - تعالى - حين قال موسى ذلك ، فكان الجواب د قال لن ترانى ، أى :  
لن تطبق رؤيتى ، وأنت فى هذه النشأة وعلى الحالة التى أنت عليها فى هذه الدنيا  
فمنى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما فى الآخرة فقد ثبت فى الأحاديث  
الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات .

ثم قال - تعالى - . ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف  
ترانى ، أى : لن تطبق رؤيتى يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن  
أنظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه حين  
التجلى له ولم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف ترانى أى تثبت لرؤيتى إذا تجليت  
لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى .

وفى هذا الاستدراك ، ولكن أنظر . . . الخ ، تسلية لموسى - عليه  
السلام - وتلطف معه فى الخطاب ، وتكريم له ، وتعظيم لأمر الرؤية ، وأنه  
لا يقوى عليها إلا من قواه الله بموئنته .

ثم بين - سبحانه - ما حدث للجبل عند التجلى فقال : فلما تجلى ربه  
للجبل جعله دكا ، أى : حين ظهر نوره - سبحانه - للجبل على الوجه اللائق  
بجلاله ، جعله دكا ، أى مدقوقا مفتتا ، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل  
مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلى ، فالأدى مع ضعف بنيته  
لأولى بأن لا يستقر . والدك والدق بمعنى ، وهو تفتيت الشيء وسحقه وفعله من  
باب رد .

قال الألوسى : وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التى يملك فيها طريق التسليم  
وهو أسلم وأحكم ، أو التأويل بما يليق بجلال ذاته - تعالى - .

وقوله د وخر موسى صعقا ، أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى  
حصل به التجلى مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة .

بقال : صعقتهم . . . غشى عليه :

وقوله : « فلما أفلق قال سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، أي : فلما أفلق موسى من غشيبته ، وعاد إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يخرج من غشيبته عليه ، قال تعظيماً لأمر الله « سبحانه » ، أي تنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء . « تبت إليك » من الإقدام على السؤال بغير إذن . « وأنا أول المؤمنين » بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد .

قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون . ولكن يقول أنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال ابن كثير : وهو قول حسن .

هذا ، وقد توسع بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية في الحديث عن رؤية الله - تعالى - وعلى رأس هذا البعض الإمام الألوسي ، فقد قال - رحمه الله - : « واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته - سبحانه - بهذه الآية على جوازها في الجملة ، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، وخلاصة الكلام في ذلك أن أهل السنة قالوا : إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين : الأول : أن موسى - عليه السلام - سأله بقوله « رب أرني أنظر إليك » ، ولو كانت مستحيلة فإن كان موسى عالماً بالإستحالة فالعالم فضلاً عن النبي مطلقاً ، فضلاً عن من أولى العزم لا يسأل لمحال ولا يطلبه . وإن لم يكن عالماً بذلك ، لزم أن يكون آحاد المعتزلة أعلم بالله مما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي ، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة . حيث بطل القول بالإستحالة تعين القول بالجواز .

والثاني : أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن في ذاته . ما علق على الممكن بممكن .

ثم قال ماملخصه : واعترض الخصوم على الوجه الأول بوجوه منها أنها لا تسلم أن موسى سأل الرؤية وإنما سأل العلم الضروري به - تعالى - إلا أنه يعرفه بالرؤية مجازاً . . . أو أنه سأل رؤية علم من أعلام الساعة بطريق

حذف المضاف ، أى : أرني أنظر إلى علم من أعلامك الدالة على الساعة .  
أو أنه سأل الرؤية لالتمسه ولكن لدفع قومه القائلين « أرنا الله جهرة ، وإنما  
أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعه أبلغ في دفعهم وردعهم عما سألوه  
تنبيها بالأدنى على الأعلى ....

واعترضوا على الوجه الثاني بأننا لانسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن ،  
لأن التعليق لم يكن على استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة  
وجود الشرط ، لأن الجبل حال سكونه كان مستقرا ، بل على استقراره حال  
حركته وهو محال لذاته .

ثم أورد الألوسى بعد ذلك ما رده كل فريق على الآخر مما لا مجال  
لذكره هنا (١) .

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخر ممكنة كما قال أهل السنة ولورد الآيات  
القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أما فى الدنيا فقد منع  
العلماء وقوعها ، وقد بينا ذلك بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى -  
« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (٢) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله - تعالى - به موسى - عليه السلام  
فقال : « قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » .

الاصطفاء . افعال من الصفوة ، وصفوة الشيء خالصه وخياره أى :  
قال الله - تعالى - لموسى إني اخترتك واجتبتك على الناس الموجودين فى  
زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعبءه ، فهو اصطفاء على جيل معين من  
الناس بحكم هذه القرينة .

وقوله « برسالاتي » أى : بأسفار التوراة ، أو بإرسالى إياك إلى من

(١) تفسير الألوسى ج ٩ من ص ٤٦ - ٥٥ .

(٢) راجع تفسير سورة الأنعام ص ٣٢٨ .

أرسلت إليهم . ود بكلامي ، أى : بتكليمى إياك بغير واسطة قال - تعالى -  
د وكلم الله موسى تكليماً .

والجملة السكرية مسوقة لتسليته - عليه السلام - عما أصابه من عدم  
الرؤية فكانه - سبحانه - يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من  
النعم العظام ما أعطيتك فاغتتمه ودم على شكرى .

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليرتقى إلى الأشرف .

ثم قال - تعالى - د نخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، أى : نخذ يا موسى  
ما أعطيتك من شرف الأصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين في الشكر  
على ما أنعمت به عليك ، فانت أسوة وقدوة لأهل زمانك .

ثم فصل - سبحانه - بعض النعم التي منحها لنبيه موسى وقال : د وكتبنا له  
في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء . . .

المراد بالألواح كما قال ابن عباس - ألواح التوراة ، واختلف في عددها  
فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك . كما اختلف في  
شأنها فقيل كانت من سدر الجنة ، وقيل كانت من زبرجد أوزمرد ... الخ .

والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح  
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عددها أو كيفيةها .

والمعنى : وكتبنا لموسى - عليه السلام - في ألواح التوراة من كل شيء  
يحتاجون إليه من الحلال والحرام ، والمحاسن والقبايح . ليكون ذلك موعظة  
لهم من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيباً وترهيباً ، كما كتبنا له في تلك الألواح  
تفصيل كل شيء . يتعلق بأمر هذه الرسالة المرسوية .

وإسناد الكتابة إليه - تعالى - إما على معنى أن ذلك كان بقدرته - تعالى -  
وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبها بأمره ووجهه سواء  
كان الكاتب لها موسى أو ملك من ملائكته - عز وجل - . .

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة . والراجح أنها كانت أول ما أويته من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالية ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبها الله - تعالى - في أوقات الحاجة إليها (١) .

وقوله « موعظة وتفصيلا لكل شيء » ، بدل من قوله « من كل شيء » ، باعتبار محله وهو النصب لأن من مزيدة كما يرى كثير من النحاة . أى : كتبنا له فيها كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام .

والضمير في قوله - تعالى - فخذها بقوة ، يعود إلى الألواح . والفاء عاطفة لمحدوف على كتبنا ، والمحدوف هو لفظ قلنا وقوله « بقوة » ، حال من فاعل خذها أى : كتبنا له في الألواح من كل شيء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه - عليه السلام - قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم في الذل والاستعداد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم . ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم .

قال الجمل : وقوله - تعالى - « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » ، أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل ما فيها حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعنان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب . أو أن فيها حسناً وأحسن كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور بهو المباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر وأبا (٢) .

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ١٩٠

وقوله - تعالى - د ساوريمكم دار الفاسقين ، تؤكد لأمر القوم بالأخذ  
بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد ، التهديد .

أى : ساريمكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعتي ، كيف يصير  
إلى الهلاك والدمار ، فتلك سنتى التى لا تتغير ولا تبدل .

قال ابن كثير : وإنما قال د ساوريمكم دار الفاسقين ، كما يقول القائل لمن  
يخاطبه : ساريمك غداً ما يصير إليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد  
لمن عصاه وخالف أمره (١) .

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر ، كيف أقفرت  
منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .  
وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم  
وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون . فإنهم لم يدخلوها  
إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .

والذى نراه أن رأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من  
سنن الله فى خلقه ، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمرها تكون  
عاقبتها الذل والدمار ، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .

فالآية الكريمة قد إشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى  
- عليه السلام - كما إشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن  
يحيى نفسه لئلا تكاليف الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا  
بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة  
وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة . كما إشتملت على التحذير الشديد لكل  
من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرمانه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من يتكبرون فى الأرض بغير الحق فقال - تعالى - :



ما آتاه الله من فضله ، وتكبرهم على الناس . والجملة الكريمة معطوفة على جملة  
« يتكبرون في الأرض بغير الحق » داخلة معها في حكم الصلة .

والمقصود بالآية إما المنزلة فيكون المراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس  
بها عن طريق السماع . وإماماً يعمها وغيرها من المعجزات ، فيكون المراد  
برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع الإبصار .

« وأن يروا سبيل الرشده » أى : الصلاح والاستقامة والسداد ، لا يتخذوه  
سبيلاً ، أى : لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم  
« وإن يروا سبيل الغى » أى : طريق الضلال عن الحق « يتخذوه سبيلاً ،  
أى : طريقاً يميلون إليه ، ويسيروا فيه بدون تفكير أو تدبر . وهذا شأن  
من مرد على الضلال ، وانغمس في الشرور والآثام . إنه لإلفه المنكرات  
صار الحسن عنده قبيحاً والقبيح حسناً ، وصدق الله إذ يقول : « أفمن زين له  
سوء عمله فرآه حسناً ، .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان الأسباب التي أدت بهم إلى هذا الضلال  
العجيب فقال - تعالى : « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، أى :  
ذلك المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشيء من الدلائل الدالة على الحق  
ولم عرضهم عن سبيل الهدى . وإقبالهم التام على طريق الغواية ، كائن بسبب  
لأنهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل ، وبسبب أنهم كانوا  
عن هذه الآيات غافلين لا يفتكرون فيها ، ولا يعتبرون بما اشتملت  
عليه من عظات :

فإنه - تعالى - لم يخلقهم مطبوعين على شيء . مما ذكر طبعاً ، ولم يجبرهم  
ويكرهم عليه إكراهاً ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته  
الدال على الحق .

واسم الإشارة « ذلك » مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أى : ذلك  
الصرف بسبب تكذيبهم .

ثم قال - تعالى - « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ،  
أى : بطلت وفسدت وصارت هباء منثورا ، بسبب تكذيبهم لآيات الله ،  
ولإنكارهم للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

والاستفهام في قوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ، للنفي : أى :  
لا يجزون يوم القيامة إلا الجزاء الذى يستحقونه بسبب أعمالهم فى الدنيا .  
فربك - سبحانه - لا يظلم أحدا .

وقوله « والذين كذبوا ، فى خبره وجهان : أحدهما أنه الجملة من قوله :  
« حبطت أعمالهم ، وهل يجزون خبر ثان أو مستأنف . والثانى : أن الخبر  
هل يجزون ، والجملة من قوله « حبطت أعمالهم ، فى محل نصب على الحال  
وقد مضمرة عند من يشترط ذلك ، وصاحب الحال فاعل كذبوا .

وقوله « ولقاء الآخرة ، فيه وجهان : أحدهما أنه من باب إضافة المصدر  
لمفعوله والفاعل محذوف والتقدير : واقفائهم الآخرة . والثانى : أنه من باب  
إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله فى الآخرة (١) .

ثم قصت السورة علينا رذيلة من رذائل بنى إسرائيل المتعددة ، وذلك  
أنهم بعد أن تركهم موسى - عليه - وذهب لمناجاة ربه مستخلفا عليهم أخاه  
هارون ، اتهموا ابن جازب هارون معهم ، فعبدوا عجلا جسداً له خوارصنع  
لهم السامرى من الخلى التى استعارها نساؤهم من نساء قبط مصر .

وحاول هارون - عليه السلام - أن يصدّم عن ذلك بشقى السبل ،  
ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ، لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ،  
وأعلم الله - تعالى - موسى بما حدث من قومه فى غيبته فعاد إليهم مفضيا .  
حزيناً ، فوبخهم على كفرهم وجهالاتهم ، وهاتب بشدة أخاه هارون لتركه

إياهم يعبدون العجل ولكن هارون اعتذر له ، وأقنعه بأنه لم يقصر في نصيحتهم  
ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين .

وعلى مشهد من بنى إسرائيل أحرق موسى العجل ، وقال للسامري رأس  
الفتنة ومدبرها ، وانظر إلى إهلك الذي ظلمت عليه عاكفا لنحرقه ثم لنفسه  
في اليم نفساً : إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ، وبذلك  
أثبت موسى - عليه السلام - لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله  
رب العالمين .

واستمع معي إلى هذه الآيات التي قصت علينا ما حدث منهم بأسلوبها  
البليغ فقالت :

« وَاتَّخَذَ قَوْمَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ  
خَوَارِصٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُسْكَلُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا  
ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا  
لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا  
رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي  
أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ  
قَالَ ابْنُ أُمِّ إِزْء الْقَوْمِ اسْتَضَمُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِنِي  
الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْمَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي  
وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الدِّينَ اتَّخَذُوا  
العِجْلَ سِينَالَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا  
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) » .

قوله تعالى : ( واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار  
بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى - عليه السلام - لهم ، وذهابها  
لنلقى التوراة عن ربه . مستخلفا عليهم أخاه هارون .

والحلي (١) - بضم الحاء والتشديد - جمع حلي - بفتح حلى - بفتح فسكون -  
كثدي وثدي - وهي اسم لما يتزين به من الذهب والفضة ، وهذه الحلي كان  
نساء بنى إسرائيل - قبيل خروجهن من مصر - قد استعرنهن من نساء  
المصريين ، فلما أغرق الله - تعالى - فرعون وقومه ، بقيت تلك الحلي في  
أيديهن ، فجمعها السامري بحجة أنها لا تحل لهن ، وصاغ منها عجلا جسدا له  
خوار ، وأوهمهم بأن هذا إلههم وإله موسى أعبدوه من دون الله -

قال الحافظ ابن كثير : ( وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار  
لها ودما له خوار ، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء  
فيصوت كالبحر على قولين والله أعلم (٢) .

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعده فراقه لهم لآخذ التوراة عن ربه عجلا  
جسدا له صوت البحر ليكون دعبودا لهم .

وقوله د عجلا ، مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل . وقيل إن اتخذ متعد إلى  
اثنين وهو بمعنى صير والمفعول الثاني محذوف أي : إلهها .

و د جسدا ، بدل من د عجلا ، أو عطف بيان أو نعمت له بتأويل متجسدا .

قال صاحب الكشاف : ( فإن قلت لم قبيل واتخذ قوم موسى من بعده  
من حليهم عجلا والمتخذ هو السامري ؟ قلت فيه وجهان : أحدهما : أن ينسب  
الفعل إليهم لأن رجلا منهم باشره ووجد بين ظهرانيهم ، كما يقال بنو تميم

(١) قال الفرطبي : ( من حليهم ) هذه قرأة أهل المدينة وأهل البصرة وقرأ أهل

الكوكة إلا عاصبا ( من حليهم ) بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب ( من حليهم ) بكسر  
الحاء وقرأ يعقوب حليهم ( بفتح الحاء والتخفيف ) . ٥١ - ٧ ص ٢٨٤ .

قالوا كذا ، وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا يريدون  
لاتخاذهم راضين به فكأنهم أجمعوا عليه . والثاني : أن يراد واتخذوه إلهًا  
وعبدوه . فإن قلت لم قال من حلبيهم ولم تكن الحلبي لهم إنما كانت عارية في  
أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملبسه وكونها عواري في أيديهم  
كفي به ملبسة على أنهم قد ملكوها بعد الملكين كاملًا . كوا غيرها من أملاكهم  
ألا ترى إلى قوله تعالى : ( فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام  
كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل ) (١) اه .

وقوله تعالى : ( ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ) تقريب لهم على  
جهالاتهم . وبيان لفقدان عقولهم ، والمعنى : أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ،  
أنهم لم يفظنوا حين عبدوا العجل ، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر ،  
من الكلام والارشاد إلى أى طريق من طرق الافادة ، وليس ذلك من صفات  
ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته -- تعالى -- أنه يكلم أنبياءه ورسله ،  
ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طرق الشر !!

ثم أكد -- سبحانه -- ذمهم بقوله ( اتخذوه وكانوا ظالمين ) أى :  
اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام ، ولا يرشدهم  
إلى أى طريق ، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير  
الله ، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

وفى التعبير عن ظلمهم بلفظه ( كانوا ) المفيد للدوام والاستمرار ، إشعار  
بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ وأن ماصد عنهم ليس بدعائهم  
ولا أول منا كبيرهم ، فقد سبق لهم أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم  
يعكفون على أصنام لهم ( يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ، قال إنكم  
قوم تجهلون ) !!

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى :  
« ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفخر  
لنا لنكونن من الخاسرين ، أى وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ، وتبينوا  
ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين : لئن لم يرحمنا ربنا  
وفخر لنا لنكونن من الخاسرين ، أى لنكونن من الهالكين الذين حبطت  
أعمالهم .

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه  
الله التوراة ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا : لن  
نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ، وبدليل أن موسى - عليه  
السلام - لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا  
مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من  
ضلال مبين .

ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : « ولما سقط في أيديهم »  
( ولما ندم الذين عبدوا العجل الذى وصف - جل ثناؤه - صفته ، عند  
رجوع موسى إليهم ، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم ، وكذلك تقول العرب  
لكل نادم على أمر فات منه أو سلف ، وعاجز عن شيء : قد سقط في يديه  
وأسقط . لغتان فصيحتان ، وأصله من الاستسار ، وذلك يضرب الرجل  
الرجل أو يصرعه ، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض لياسره ، فالرمى به  
مسقوط في يدي الساقط به ، فقيل لكل عاجز عن شيء ومتندم على ما فاته :  
سقط في يديه وأسقط (١) .

وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى : « ولما سقط في أيديهم ،  
لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرة أن يعض يده عما فتصير يده مسقوطا

فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وكان أصل الكلام ولما سقطت أفواههم في أيديهم ،  
أي ندموا أشد الندم .

قال صاحب تاج العروس : وفي ( العباب ) هذا نظم لم يسمع به قبل  
القرآن ولا عرفت العرب ( والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ) ،  
ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقبل للخطأ من الكلام ( سقط ) لأنهم  
شبهوه بما لا يحتاج إليه ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب . وأثره يظهر  
في اليد ، كقوله تعالى : فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، ولأن اليد هي  
الجراحة العظمى ، فربما يستند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى . ذلك بما قدمت  
يداك ، (١) اه .

وقوله تعالى : ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، بيان للحالة التي  
كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل  
الذي عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله - تعالى - وحزينا  
لفتنتهم بعبادتهم مجلا جسدا له خوار .

قال الإمام الرازي : في الأسف قولان : الأول : أن الأسف الشديد  
الغضب ، وهو قول أبي الدرداء وعطاء عن ابن عباس ، واحتجوا له بقوله  
تعالى : فلما آسفونا انتقمنا منهم ، أي : أغضبونا : والثاني : أن الأسف هو  
الحزين ، وهو قول الحسن والسدي وغيرهما ، واحتجوا له بحديث عائشة أنها  
قالت : إن أبا بكر رجل أسيف أي حزين .

قال الواحدي : والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن ، والحزن من  
الغضب ، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت ، وإذا جاءك ممن هو  
فوقك حزنت ، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والآخرى غضبا . . . (٢) .

(١) تفسير القاسمي > ٧ ص ٢٨٥٩ ،

(٢) تفسير الرازي > ٤ ص ٣٠٢ .

وقوله « غضبان أسفاً » منصوبان على الحال من موسى عند من يجيز تعدد الحال . وعند من لا يجيزه يجعل أسفاً حالاً من الضمير المستكن في غضبان فتكون حالاً متداخلة .

وقول موسى لقومه : ( بشيئا خلفتموني من بعدى ) ذم منه لهم ، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي ، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته ، ولم تعيروا التفاتاً لما عهدت به إليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة . والسير على سنتي وشريعتي .

قال الجبل : و « بئس » فعل ماضٍ لإنشاء الذم ، وفعله مستتر تقديره هو وما تميز بمعنى خلافة ، وجملة خلفتموني صفة لما . والرابط محذوف ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم (١) .

وقوله ( من بعدى ) معناه : من بعد ما رأيتم منى توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له ، أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد واكفهم عما طمحت نحوها ابصارهم من عبادة البقر حين قالوا ( لجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ) . ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه .

وقواه تعالى ( أعجلتم أمر ربكم ) معناه أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو لا نتظارى حافظين لعهدى ، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتاكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل ، فخذعهم السامري وصنع لهم العجل فعبدوه ، وجعلوا يغنون ويرقصون حوله ويقولون : هذا هو الإله الحق الذى أنقذنا من الظلم قال صاحب الكشف ( يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام . ويضمن معنى سبق فعدى تعديته فقال : عجلت الأمر . والمعنى : أعجلتم عن أمر ربكم

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ١٩٣

وهو لا ينتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدثتم أنفسكم بموتى ففهمتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

وروى أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل : هذا إلهكم وإله موسى ، وأن موسى لن يرجع وأنه قد مات .

وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلبا إليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (١) .

ثم بين - سبحانه - أن غضب موسى ترقب عليه أمران يدلان على شدة الإنفعال : أولهما : قوله تعالى : ( وألقى الألواح ) أى طرحها من يديه لما إعتراه من فرط الدهس ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، فإلقاء الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه : وسخطا على قومه الذين عبدوا ما يضرب به المثل في البلادة .

قال الألوسى : وقوله - تعالى - ، ( وألقى الألواح ) ، حاصلة أن موسى لما رأى من قومه ما رأى . غضب غضبا شديدا حمية لدينه فجعل في وضع الألواح لتفرغ يده فباخذ برأس أخيه فعبث عن ذلك الوضع بالإلقاء تفضيحا لفعل قومه حيث كانت معايينته سببا لذلك وداعيا إليه ، وليس فيه ما يتوهم منه الإهانة لكتاب الله بوجه من الوجوه . وإن كسار بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى ولا أمر بباله ولا ظن ترتيبه على ما فعل . وليس هناك إلا العجلة في الوضع الناشئة من الغيرة لله . وقد أنكسر بعض العلباء أن يكون شئ منها قد تكسر ، لأن ظاهر القرآن خلافة . نعم أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ( يرحم الله موسى ، ليس

المعاني كالنخبر أخيره ربه أن قومه فتنوا بده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعابنهم  
ألقى الألواح فتكسر منها ، (١)

وثانيهما: قوله تعالى : ( وأخذ برأس أخيه يجره إليه ) أي . أخذ موسى  
بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر في نصحتهم  
وزجرهم عن عبادة العجل . ولكن هارون - عليه السلام - أخذ يستجيش  
في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليتمكن من غضبه الشديد . وليكشف  
له عن طبيعة الموقف ، وليبرىء ساحته من مغبة التقصير ، فقال له : ( يا ابن أم إن  
القوم إستضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم  
الظالمين . أي : قال هارون لموسى مستعطفا : يا ابن أمي - بهذا النداء الرقيق  
وبتلك الوشيجة الرحيمة - لاتعجل بلومي وتعنيفي ، فإني ما آليت جهدا في  
الإنكار عليهم ، وما قصرت في نصيحتهم وليكنهم لم يستمعوا إلي ، بل قهرني  
وإستضعفوني ، وأوشكوا أن يقتلونني عندما بذلت أقصى طاقتي لأخفئ  
هياجهم ولأدفعهم نحو العجل ، فلا تفعل بي ما هو أمانيتهم ومحل شمتهم ،  
من الاستهانة بي والإساءة إلي ، فإن من شأن الآخرة التي بيننا أن تكون  
ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولا تجعلني في زرة القوم  
الظالمين ، فإني برىء منهم . ولقد نصحتهم وليكنهم قوم لا يحبون الناصحين  
وهنا إقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة هارون من مغبة التقصير  
فقال :

(ب) إغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ) أي :  
قال موسى ليرضى أخاه ، وإيظهر لأهل الشئانة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته  
رب إغفر لي ما فرط مني من قول أو فعل فيه غلظة على أخي . وإغفر له كذلك  
ما عسى أن يكون قد قصر فيه بما أنت أعلم به مني ، وإدخلنا في رحمتك التي  
وسعت كل شيء . فأنت أرحم بعبادك من كل راحم .

(١) تفسير الألوسي ج ٩ ص ٦٧ .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، واثبت انه قد عرض نفسه للأذى في سبيل ان يصرف عابدى العجل عن عبادته وفي ذلك تصحيح لما جاء في التوراة ( الفصل الثانی والثلاثين من سفر الخروج ) من ان هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه في غيبة موسى - عليه السلام - .

ثم اصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل في شأن عبدة العجل فقال تعالى :  
( إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ) .

والمعنى . إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالتهم مسيحين بهم سنخ شديدا من ربهم ، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا انفسهم ، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار في الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجزي المفترين جميعا في كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بني إسرائيل وغيرهم .

ثم فتح - سبحانه - بابا لكل نائب صادق في توبته فقال تعالى :  
( والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ) .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا ، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله - تعالى - من بعد الكبائر التي أفعلوا عنها لسائر عليهم اعمالهم السيئة ، وغير فاضحهم بها ، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد ان دعت بني إسرائيل بما يستحقونه من تقريع ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة ليفيؤوا إلى نور الحق ، وليتركوا ما إنغمسوا فيه من ضلالات وجهالات .

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال :

« وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا  
هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ (١٥٤) » .

السكوت في أصل اللغة ترك الكلام ، والتعبير القرآني هنا يشخص الغضب كأنما هو - وكائن حتى يدفع موسى ويجرّكه ، ثم تركه بعد ذلك . ففي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آثرناه وأثبت له السكوت على طريق النخيل .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ولما سكّت عن موسى الغضب ، هذا مثل . كأن الغضب كان يعرّبه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحهما كل ذي طبع سليم رذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبل شعب البلاء . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة ، ولما سكن عن موسى الغضب ، لا تجرد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ، (١) .

والمعنى : وحين سكّت غضب موسى بسبب إعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التي كان قد ألقاها .

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تنكسر ، ولم يرفع من التوراة شيء ، وأنه أخذها بعينها .

وقوله « وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرتدون » أي : أخذ موسى الألواح التي سبق له أن ألقاها ، وفيها نسخ في هذه الألواح أي : كتب هداية عظيمة إلى طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين هم لربهم يرتدون . أي : يخافون أشد الخوف من خالقهم - عز وجل -

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٦٣

والنسخ ، الكتابة ، ونسخة هنا بمعنى منسوخة أى . مكتوبة ، والمراد  
وفى منسوخها ومكتوبها هدى ورحمة .

و « هم » مبتدأ . ويرهبون خبره ، والجملة صلة الموصول ، واللام فى  
« للذين ، متعلقة بمحذوف صفة لرحمة أى : كائنة لهم . أو هى لام العلة أى .  
هدى ورحمة لأجلهم . واللام فى لربهم ، لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله  
- تعالى - : « إن كنتم لارؤيا تعبرون ، أو هى أيضاً لام العلة والمفعول  
محذوف ، أى : يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرياء والتباهى .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع  
السبعين الذين إختارهم من قومه فنقول :

« وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيْقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ  
الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآيَايَ ، أَتَهْلِكُنَا  
بِمَا قَعَلْنَا السَّفَهَاءَ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي  
مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)  
وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ ،  
قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَلْنَا كُتُبَهَا  
لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) » .

قال الألوسى : قوله - تعالى - « واختار موسى قومه سبعين رجلا  
أليقاتنا » تمة اشرح أحوال بنى إسرائيل وقال البعض : لأنه شروع فى بيان  
كيفية إستدعاء التوبة وكيفية وقوعها . واختار - من الإختيار بمعنى الانتخاب

والاصطفاء - وهو يتعدى إلى اثنين ثانياً مجرور بمن وقد حذف هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه ، والمفعول الأول سبعين ، (١) .

أى : اختار موسى سبعين رجلاً من قومه للميقات الذى وقته الله له ، ودعاهم للذهاب معه .

وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلاً من القوم جميعاً فى الاختيار ، وكان بنى إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاً سوى هؤلاء السبعين .

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تسليماً فقد كان معه سبعون رجلاً من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته .

والذى ترجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول ، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى ، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعاً ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فأختار موسى هؤلاء السبعين ، وهناك روايات ترجح ذلك منها ما جاء عن محمد بن إسحاق قال : إن موسى - عليه السلام - لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه والسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم ، اختار من بنى إسرائيل سبعين

رجلا الخير فالخير وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، فصوموا وتطهروا وطهروا وثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفتل . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود النعام حتى نفشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلبه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه . ودنا القوم حتى إذا دخلوا في النعام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، أفتل ولا تفعل ، فلما انكشف عن موسى النعام أتيل إليهم فقالوا له : د لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتم الصاعقة ، وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيأى ، قد سفهوا ، أتملك من ورأتى من بني إسرائيل ، (١) .

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بني إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - ما لا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك ، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوه عن المنكر ولم يأمرهم بالمعروف .

وقوله : فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيأى ، أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى يارب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بني إسرائيل ، لأنهم سيقتولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم . ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٤٩

موتهم جميعاً ثم أحياءهم الله - تعالى - بعد ذلك ، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا .

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التي اقترفها قومه . بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة ، وأنقذهم من فرعون وقومه . فكأنه يقول : يا رب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جرباً على مقتضى كرمك .

ومفعول المشيئة محذوف ، أي : لو شئت لإهلاكهم لأهلكتهم .  
وقوله « وإياي ، معطوف على الضمير في « أهلكتهم » ، وقد قال موسى ذلك نسلها منه لأمر الله وقضائه وإن كان لم يسبق منه ما يوجب هلاكه ، بل الذي سبق منه إنما هو الطاعة الكاملة لله رب العالمين .

والاستفهام في قوله « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » ، للاستعطف الذي بمعنى النبي أي : أجباً إليك يا مولانا ألا تهلكنا بذنب غيرنا ، فلو كان هؤلاء السفهاء قد خرجوا عن صاعتك ، وانتكروا حرمانك . فنحن يا رب مطيعون لك وخاضعون لأمرك .

قوله « إن هي إلا فتنتك نضل بها من تشاء وتمدى بها من تشاء » استئناف مقرر لما قبله ، و « إن » نافية . والفتنة : الابتلاء والاختبار ، والباء في « بها » للسببية أي : ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك ، فأنت الذي ابتليتهم واختبرتهم ، فالأمر كله لك ويبدك . لا يكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائدون بك منك . ولا حثون منك إليك . ما شئت كان وما لم نشأ لم يكن .

وقوله « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » ، أي : أنت القائم بأمورنا كلها لا أحد غيرك ، فاغفر لنا ما فرط منا ، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ، وأنت خير الغافرين ، إذ كل غافر إنما يغفر لغرض

نفساني د كحب الثناء ، واجتلاب المنافع ، أما أنت - يا إلهنا - فغفرتك لا لطلب عوض أو غرض وإنما هي لمحض الفضل والكرم .

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخدرى فتال - كما حكى القرآن عنه - «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة . أي : أثبت لنا في هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق ، وأثبت لنا في الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض .

وقوله «إنا هدنا إليك ، استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالاجابة ، أي : لأننا تبنا إليك من المعاصي التي جنبناك للاعتذار منها . فاكتب لنا الحسنات في الدارين ، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل .

وهدنا : بمعنى تبنا . يقال : هاد يهود إذا رجع وتاب .

وصدرت الجملة السكرية - . «إن ، المفيدة للتحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة في مضمونها . وقوله : «قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ، استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - عند دعاء موسى ، فكان الجواب : قال عذابي ... الخ .

ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابي الذي تخشى أن يصيب قومك أصيب به من أشاء تعذبه من العصاة ، فلا يتعبدون أن يكون قومك محلا له بعد توبتهم ، فقد اقتضت حكمتي أن اجازي الذين أساءوا بما عملوا واجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

«ورحمتي وسعت كل شيء ، فلا تضيق عن قومك ، ولا عن غيرهم من خلقي ممن هم أهل لها .

وقد استفاضت الآيات والأحاديث التي تصرح بأن رحمة الله - تعالى - قد

وسعت كل شيء ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : إن لله عز وجل مائة رحمة فنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل لرحمته فقال : فمسا كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون .

أى : فمسا كتب رحمتي للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم .

ونخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى . لأن إيتاءها كان شاقاً على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات . اكتفاء عنها بالاتقاء الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها . وترك المنهيات عن آخرها . وسأ كتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيماناً تاماً خالصاً لا رياء فيه . ولا نقص معه .

ثم أضاف - سبحانه - صفات أخرى لمن هم أهل لرحمته ورضوانه . وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمر بنو إسرائيل وغيرهم باتباعه فقال تعالى :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَخِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا

الناسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا نُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) .

قوله تعالى - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، في محل جر على  
أنه نعمت لقوله : ، للذين يتقون ، أو بدل منه . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ  
محذوف . أي : هم الذين يتبعون ... الخ .

وقد وصف الله - تعالى - رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأوصاف  
كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .  
والوصف الثاني : أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى  
يوم الدين .

الوصف الثالث : أنه أمي ماقرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ  
عليه عن أحد وإنما الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق  
جبريل عليه السلام - ، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادئ  
توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين  
والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التي  
يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى  
من الله إليه .

قال تعالى : **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي  
مَّا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (١) .**  
وقال - سبحانه - **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ  
إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٢) .**

الصفة الرابعة : أشار إليها بقوله ( الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ) أى هذا الرسول النبي الأمي من صفاته أن أهل الكتاب يجدوا اسمه و نعمته مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، ووجود اسمه و نعمته في كتبها من أكبر الدواعي إلى الايمان به وتصديقه واتباعه ولقد كان اليهود يشرون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم قبل زمانه ويقرؤون في كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله - تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذقون من كتبهم ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، أو يؤولونه تأويلاً فاسداً أو يكتُمونه عن عامتهم .

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول في كتبهم أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانهم عن الأميين منهم . أبى الله - تعالى - إلا أن يتم نوره ، إذ بقى في التوراة والانجيل ما بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم وصرح بنعته وصفاته بل وباسمه صريحاً .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء . بمحمد صلى الله عليه وسلم وجمعوا عشرات النصوص التي ذكرت نعوته وصفاته ، وها نحن نذكر طرفاً مما قاله العلماء في هذا الشأن .

قال الامام الماوردي في ( أعلام النبوة ) : ( وقد تقدمت بشارات من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أصلحه الله - تعالى - على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثاً على القبول ، فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من

هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال ، وبقينا بهد الارتياب<sup>(١)</sup> .

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) : (إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد بشر به الأنبياء السابقون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته ، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يخدم نفعاً ، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان في اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبي صلى الله عليه وسلم فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولا ما قصد به . ولم يقدم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم . لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينهما<sup>(٢)</sup> .

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندي) في كتابه (إظهار الحق) : (إن الأخبار الواقعة في حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة إلى الآن - أيضاً - مع وقوع التحريفات في هذه الكتب . ومن عرف أوطار يق أخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر . ثم نظر تانياً بنظر الانصاف إلى هذه الأخبار وقلبها بالأخبار التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الأخبارات المحمدية في غاية القوة<sup>(٣)</sup> .

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين

---

(١) الباب الخامس عشر : فصل (بشائر الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم) .

(٢) نقلاً عن تفسير القاسمي ص ٧٤ ص ٢٨٧٤ .

(٣) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندي .

كثيراً من البشائر التي وردت في التوراة والإنجيل خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومدينة نوحه وصفاته .

ومن أجمع ما جاء في التوراة خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : ( قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم ( محمد رسول الله : عبدى ورسولى ، سميت المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسبيطة السبيطة ، بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله <sup>(١)</sup> ) .

كذلك مما يشهد بوجود النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال : ( حدثنى رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة <sup>(٢)</sup> . إلى المدينة فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما فرغت مر بيعى قلت لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهما حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ) فقال برأسه هكذا ، أى : لا ، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة إنما لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ( أقيموا اليهودى عن اخبيكم ) ثم تولى كفته والصلاة عليه ) .

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء فى ذلك <sup>(٣)</sup>

(١) صحيح البخارى . بات « كراهة الصخب فى الأسواق » من « كتاب

البيوع » ج ٣ ص ٨٢ .

(٢) الحلوبة : الشاة ذات اللبن وهى للواحد وللجمع .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٥١ .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم بصفة خامسة فقال  
تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، أى هذا الرسول النبي الأسمى  
الذى يمجده أهل الكتاب مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل من صفاته كذلك  
أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم  
الآخر كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى  
جاء بها الشرع الحنيف . وارتاحت لها العقول العليمة ، والقلوب الطاهرة  
وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوىء الأخلاق .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بصفة سادسة  
فقال تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، أى : يحل لهم ما حرمه  
الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم عقوبة لهم ،  
ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به للحوم كالحوم  
الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى  
الماكولات ، وكأخذ الربا واكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك  
سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بصفة سابعة فقال تعالى :  
« ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، » .

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه . أى يجبسه عن الحركة لثقله ، ويطلق  
على العهد كما فى قوله تعالى : « قال أقررتم وأخذتم على ذلك إصرى ،  
أى عهدى .

قال القرطبي : « وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان  
أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم  
ذلك العهد وثقل تلك الأعمال ، كفصل البول ، وتحليل الغنائم ، وبجالساة الخائض ،  
ومواكبتها ومضاjectها . فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أجدهم بول قرصه . وإذا

جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا حاضت المرأة لم يقربوها . إلى غير ذلك مما ثبت في الصحيح وغيره ، (١) ،

والأغلال : جمع غل . وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد . والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة . فقد شبهه - سبحانه - ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة في العبادات والمعاملات وإنما كولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أنقلا يثن من حملها وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل ؛ والأغلال في عنقه وبديه ورجليه .

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبي الأمي أنه جاءهم ليرفع عنهم ما نزل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم . لأنه - عليه الصلاة والسلام - جاء بالتبشير والتخفيف . وبعث بالحنيفة السمحة . ومن وصاياه : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم . فوسع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهلها لهم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل . وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكبروا عليه ، ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : « قد فعلت » (٢) .

إذا ، فمن الواجب على بني إسرائيل أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرطبي ٧ ص ٢٠٠

(٢) تفسير ابن كثير ٢ ص ٢٥٤

الذي هذه صفاته ، والذي في اتباعه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، ولهذا اختتم الله - تعالى - الآية - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبية فقال تعالى :  
« فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ، .

أى : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي من بنى إسرائيل وغيرهم وعزروه ، بأن منعه وحجوه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وهو القرآن والوحي الذي جاء به ودعا إليه الناس ، « أولئك هم المفلحون ، أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن الصفات وأكرم المناقب ، وأقامت الحججة على أهل الكتاب بما يجدونه في كتبهم وعلى السنة رسلم بأنه ما جاء لإلهدايتهم وسعادتهم ، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه ، كانوا من « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، .

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة ، فقال تعالى :  
( قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ) أى : قل يا محمد لسكافة البشر من عرب وعجم ، إني رسول الله إليكم جميعاً ، لافرق بين نصراني أو يهودي ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته .

أما في القرآن الكريم ، فن ذلك قوله تعالى : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وقال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، .  
وقال تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، .  
أى وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم

وفي ذلك دلالة على عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

وأما في السنة فمن ذلك ما رواه البخاري عن جابر عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أعطيت خمساً لم يعطن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فإيما رجع من أمي أدر كته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة (١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار ، (٢) .

قال الامام ابن كثير : والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كافة (٣) .

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال تعالى : ( الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ) أي : قل - يا محمد - للناس إني رسول إليكم من الله الذي له التصرف في السموات والأرض ، والذي لا معبود بحق سواه والذي بيده الأحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يصدق رسوله . ثم بي - سبحانه - على هذه النعوت

(١) صحيح البخاري (باب التيمم) ص ١٧٧ .

(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد) .

(٣) تفسير ابن

الجليلة التي وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى : ( فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ) أي فأمنوا أيها الناس جميعاً بالله الواحد الأحد وآمنوا - أيضاً برسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمي الذي يؤمن بالله ، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكه وسيله ، واقتفوا آثاره ، في كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

وفي وصفه صلى الله عليه وسلم بالأمية مرة ثانية ، إشارة إلى كمال علمه ، لأنه مع عدم مطالعته للكتاب ، أو مصاحبته لمعلم . فتسبح الله له أبواب العلم ، وعلمه ما لم يكن يعلم من سائر العلوم التي تعلمها الناس عنه ، وصاروا بها أئمة العلماء وقادة المفكرين ، فأكرم بها من أمية تضال بجانبها علم العلماء في كل زمان ومكان .

وبذلك تكون الأيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأشرف الصفات وأقامتا أرواح الحجج وأقواها على صدقه في نبوته ودعتا اليهود بل الناس جميعاً - إلى الإيمان به لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ولأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءهم إلا بالخير ، وما ناهم إلا عن الشر ، ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة ، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون ، ولأن رسالته عامة للجن والانس ، ومن كانت هذه صفاته ، وتلك شريعته ، جدير أن يتبع ، وقين أن يصدق ويطاع ، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ثم بين القرآن الكريم أن قوم موسى لم يكونوا جميعاً ضالين . وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال - تعالى - :

« وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْتَدُونَ (١٥٩) » .

أي : ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به

من عند الله ، وبالحق - أيضا - يسرون في أحكامهم فلا يجورون ، ولا يرتعون ، وإنما يعدلون في كل شئونهم :

والمراد بهم أناس كانوا على خير وصلاح في عهد موسى - عليه السلام ، مخالفين لأولئك السفهاء من قومه .

وقيل المراد بهم من آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - عند بعثته .

وهذا لون من ألوان عدالة القرآن في أحكامه ، وإنصافه لمن يستحق الانصاف من الناس . لأنه لا يسوق أحكامه مخممة بحيث يندرج تحتها الصالح والطالح بدون تمييز ، كلا وإنما القرآن يسوق أحكامه بإنصاف واحتراس ، فهو يحكم للصالحين بما يستحقون ، وتلك هي العدالة التي ما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى السير على طريقها ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :  
ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . . .

وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشمتون بأيات الله ثمنا قليلا . . . » .

وقوله « بالحق ، الباء للملايسة ، وهي مع مدخولها في محل الحال من الواو في يهدون . أي : يهدون الناس حال كونهم ملتبسين بالحق .

ثم ذكر القرآن بعض النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ، وكيف وقفوا من هذه النعم موقف الجاحد الكفور فقال - تعالى :

« وَقَطَعْنَاكُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِمَصْرَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰةَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ لَا  
وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرُ  
لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، مَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْسًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا  
يَظْلِمُونَ (١٦٢) .

قوله ، وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أما ، أى : فرقنا قوم موسى وصيراها  
اثنتي عشرة أمة لتمييز كل أمة عن الأخرى .

والأسباط فى بنى إسرائيل كالتبائل فى العرب . والسبط : ولد الولد  
كالحفيد . وقد يطلق السبط على الولد .

وكان بنو إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا هم أولاد يعقوب  
— عليه السلام — قالوا : والظاهر أن قطعناهم متعد لواحد لأنه لم يضمن معنى  
ما يتعدى لاثنتين ، فعلى هذا يكون اثنتي عشرة حالا من مفعول ، قطعناهم ،  
وهو ضمير الغائبين «هم» .

ويرى الزمخشري وغيره أن ، قطعناهم ، بمعنى صيرناهم وأن ، اثنتي عشرة ،  
مفعول ثان ، وتمييز اثنتي محذوف لفهم المعنى والتقدير وقطعناهم اثنتي  
عشرة فرقة .

و «أسباطا» بدل من ذلك التمييز ، و «أما» بدل بعد بدل من اثنتي  
عشرة .

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها من أخبار بنى إسرائيل ، لمشاركتها  
لها فى كل ما يقصد به من العظات والعبر .

وقوله : «وأوحينا إلى موسى إذ استسقاءه قومه أن اضرب بعصاك الحجر  
فانجست منه اثنتا عشرة عينا» .

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر . وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - في خشوع واستمكاته ، وقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يسقى بني إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش بعد ما كانوا في التيه . فمن ابن عباس أنه قال : كان ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ، (١) . وقيل : كان الاستسقاء في البرية ولكن الآثار التي تدل على أنه كان في التيه أصح وأكثر .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى حين طلب منه قومه الماء أن اضرب بعصاك الحجر فضر به نخرج منه الماء من اثنتي عشرة عينا ليروا بأعينهم مظاهر قدرتنا ، وليشاهدوا دليلا من الأدلة المتعددة التي تؤيد موسى في أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

وقوله : إذ استسقاه قومه ، يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى وحده ، لتظهر كرامته لدى ربه عند قومه ، وليشاهدوا بأعينهم كيف أن الله - تعالى - قد أكرمه حيث أجاب دعاه ففجر لهم الماء من الحجر .

وأل في الحجر ، لتعريف الجنس ، أي : اضرب أي حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للعد ، ويكون المراد حجرا معيناً معروفاً لموسى - عليه السلام - بوحى من الله - تعالى - وقد أورد بعض المفسرين في ذلك آثراً حكما عليها المحققون من العلماء بالضعف ، ولذا لم نعتد بها .

والذي نرجحه أن دأل ، هنا لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أي حجر بعد ضربه أظهر في إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لايمان بني إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك في إكرام الله لنبيه موسى ، إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين

لأمكن أن يقولوا إن انفجار الماء منه لمعنى خاص بهذا الحجر ، وليس  
لكرامة موسى عند ربه - عز وجل - .

والفاء في قوله ، فانبجس منه اثنتا عشرة عينا ، معطوفة على محذوف  
والقدير : فضرب فانبجست ..

قال بعضهم : والانبجاس والانفجار واحد . يقال بجمت الماء أبجمسه  
فانبجس ، بمعنى فجرته فانفجر :

وقيل : إن الانبجاس خروج الماء من مكان ضيق بقلة ، والانفجار  
خروجه بكثرة .

ولاتفى بين قوله - تعالى - في سورة البقرة ، فانفجرت ، وبين قوله هنا  
، فانبجست ، لأنه انبجس أولا ثم انفجر ثانيا . وكذا العيون يظهر الماء منها  
قليلا ثم يكثُر لدوام خروجه .

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا بحسب عدد أسباط بنى إسرائيل إماما  
للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع أو تشاجر .

وقوله ، قد علم كل أناس مشربهم ، إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى  
اثنتى عشرة عينا . أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه  
فلا يتعداه إلى غيره ، وفي ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان  
نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض .

ثم ذكر - سبحانه - نعماء أخرى مما أنعم به عليهم فقال : ، وظللنا  
عليهم الغمام .

الغمام : جمع غمامة وهى السحابة : وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .

أى : وسخرنا لبنى إسرائيل الغمام بحيث يلقى عليهم ظله ليقبهم من حر  
الشمس .

وقوله « وأنزلنا عليهم المن والسلوى » معطوف على ما قبله .

والمن : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهو - على أرجح الأقوال -  
حادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : اسم جنس جمعى واحده سلواه ، وهو طائر برى لذيذ اللحم ،  
سهل الصيد يسمى بالسماني ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه  
قبضا بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم كان في مدة تيههم بين مصر  
والشام المشار إليه بقوله - تعالى - : قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون  
في الأرض .

قال السدي : لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى - عليه السلام -  
كيف لنا بما هنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر  
الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير  
فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فاذا أسمن أتاه ، فقالوا : هذا الطعام فأين  
الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا  
عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين . فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظل  
الله عليهم بالغمام فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فمكثت ثيابهم تطول معهم  
كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب فذلك قوله - تعالى - : وظللنا آياتكم  
الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ... (۱) .

وقوله : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات  
ما رزقناكم ، واشكروا ربكم على هذه النعم التي يزيدكم منها .

وقوله : وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، معطوف على محذوف  
أى : فمضوا أمر ربهم وكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا ولكن كانوا  
أنفسهم يظلمون .

(۱) تفسير ابن كثير ج ۱ ص ۹۷

ويرى البعض أنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، وأن جملة « وما ظلمونا » معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بني إسرائيل .

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة « كافوا » والفعل المضارع « يظلمون » يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم ، لأنك لا تقول في ذم إنسان « كان يسيء إلى الناس » إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى .

قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة ما ملخصه : « هذا من الذي استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم نخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا ، فاكتفى بما ظهر عما ترك . وقوله : « وما ظلمونا ، أي : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها . فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ولا تنفمه طاعة مطيع ، ولا يزيد في ملكه عدل عادل . بل نفسه يظلم الظالم ، وحظها يبغض العاصي ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل ، (١) . »

وقوله - تعالى - « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حسنة وادخلوا الباب سجدا ... الخ » . تذكر لهم بصفة جميلة ما كانوا منها فما أحسنوا قبولها ، وما رعوها حق رعايتها ، وهي نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك .

قال الآلوسی : وقوله « وإذ قيل لهم ، معمول لفعل محذوف تقديره : اذكر . وإيراد الفعل هنا مبنيًا للمفعول جريا على سنن الكبرياء مع الإيذان بأن الفاعل غنى عن التصريح . أي : أذكر لهم وقت قولنا لا سلا فيهم ، (٢) . »

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٢٧

(٢) تفسير الآلوسی ج ٩ ص ٨٨

والقرية هي البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها هنا بيت المقدس  
- على الراجح - وقيل المراد بها أريحا .

والحطة : كجلسة : لإسم للميئة ، من الحط بمعنى الوضع والإزالة ، وأصله  
إزالة الشيء من علو . يقال : إستحطه وزرة : سأله أن يحطه عنه وينزله .

وهي خبر مبتدأ محذوف أي : مسألتنا حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى :  
حط ، عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات .

والمعنى : وإذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوي من بني إسرائيل وقت  
أن قيل لأسلافكم إمسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ،  
وقيل لهم كذلك كلوا من خيراتها أكلا واسعا ، وأسألوا الله أن يحط عنكم  
ذنوبكم ، وأدخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكرا لله على نعمه ، فإنكم إن  
فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم .

وقوله - تعالى - « وكلوا منها حيث شئتم » فيه إشعار بكمال النعمة عليهم  
وإتساعها وكثرتها ، حيث أذن لهم في التمتع بشمات القرية وأطعمتها من أي  
مكان شاءوا .

وقوله : « وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجدا » إرشاد لهم إلى ما يجب  
عليهم عمله نحو خالقهم ، وتوجههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم بأيسر  
الطرق وأسهل السبل لأن كل ما كلفهم الله - تعالى - به أن يضرعوا إليه بأن  
يحط عنهم خطيئاتهم ، وأن يدخلوا من باب المدينة التي فتحها الله عليهم  
مخبتين .

وقوله « نغفر لكم خطيئاتكم » مجزوم في جواب الأمر .

وهذه الجملة الكريمة بيان للثمرة التي تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم  
وإغراء لهم على الإمتثال والعكر - لو كانوا يعقبون - لأن غاية ما يتمناه  
العقلاء هو غفران الذنوب .

وقوله - تعالى - « سزيد المحسنين ، وعد بازيادة من خيرى الدنيا  
والآخرة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقد أمر الله - تعالى - أن يفعلوا ذلك ، وأن يقولوا هذا القول ، لأن  
تغلبهم على أعدائهم نعمة من أجل النعم التي تستدعى منهم الشكر الجزيل لله  
- تعالى - . ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات  
الخشوع ، وأسمى ألوان الشكر عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب ، فعند ما تم  
له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا وهو خاضع لربه ، حتى إن رأسه الشريف  
ليكاد يمس عنق ناقته شكرا لله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى  
ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح .

ومن هنا إستحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا  
فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها شكرا لله ، وقد فعل ذلك سعد بن أبي وقاص  
عندما دخل إيوان كسرى . فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات .  
ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح ،

لقد حكى القرآن ما كان منهم من جحود وبطر فقال : « فبدل الذين  
ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، .

قال صاحب الكشاف : « أى وضعوا مكان حطة قولا غيرها ، يعنى أنهم  
أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالقوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا  
به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو اللفظ الخطة  
فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم  
يؤخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم أعف  
عنا وما أشبه ذلك ، (١)

وقال الامام ابن كثير : « وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق

أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل . فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤسهم . وأمروا أن يقولوا حطة - أى احطط عنا ذنوبنا - فاستهزؤا وقالوا حنطة فى شعيرة . وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته ، (١)

وأخرج البخارى عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « قيل لبنى إسرائيل لإدخولوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا . حبة فى شعيرة ، (٢) .

والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة أن من أمره الله - تعالى بقول أو فعل فتركه وأنى بآخر لم يأذن به الله دخل فى زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء المصير .

وقوله - تعالى - « فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لعنهم الله .

والرجز : هو العذاب ، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .

وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من السماء لإشهار بأنه عذاب لا يمكن دفعه ، وأنه لم يكن له سبب أرضى مزعدوى أو نحوها ، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم .

هذا وقد ردت فى سورة البقرة آياتان تشبهان فى ألفاظهما هاتين الآيتين التين معنا هنا فى سورة الأعراف ، أما آيتا سورة البقرة فهما قوله - تعالى -

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩

(٢) صحيح البخارى باب « وردت السماء حنطة » قرينة ، ج ٦ ص ٢٢

«وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فمكثوا منها حيث شئتم رغداً وأدخلوا الباب سجداً وقلوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . .

وقد عقد الإمام الرازي مقارنة بين أسلوب الآيتين في كل من السورتين فقال ما ملخصه : إن الفاظ الآيتين في سورة الأعراف تخالف المناظ آيتي سورة البقرة من وجوه :

الأول : أنه قال - سبحانه - في سورة البقرة : «وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية ، وهنا قال : «وإذ قيل لهم أسكنوا هذه القرية .

الثاني : أنه قال في سورة البقرة : « فمكثوا ، بالفاء ، وقال هنا « وكثروا ، بالواو .

الثالث : أنه قال في سورة البقرة : « رغداً » وهذه الكلمة غير مذكورة هنا .

الرابع : أنه قال في سورة البقرة : « وأدخلوا الباب سجداً وقلوا حطة » وقال هنا على التقديم والتأخير .

الخامس : أنه قال في سورة البقرة : « نغفر لكم خطاياكم ، وقال هنا « نغفر لكم خطيئاتكم » .

السادس : أنه قال في سورة البقرة : « وسنزيد المحسنين ، وههنا حذف حرف الواو .

السابع : أنه قال في سورة البقرة : « فأنزلنا على الذين ظلموا ، وقال ههنا « فأرسلنا عليهم ، .

الثامن : أنه قال في سورة البقرة : « بما كانوا يفسقون » وقال ههنا بما كانوا يظلمون .



وبالزيادة للمحسنين من العوَاب وإسقاط الواو لا يخل بذلك لأنه إستئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا بعد الغفران فقيل : إنه سينزيد المحسنين .  
وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا ، فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها . فكأنه - سبحانه - بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً .

وأما الثامن : فهو الفرق بين قوله هناك « يفسقون » ، وقوله هنا « يظلمون » .  
فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين لأجل أنهم ظلوا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله . فالفائدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين منهم .

ثم قال : فهذا ما خطر بالبال في ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة ، وتام العلم بها عند الله - تعالى - ، (١) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أن بنى إسرائيل مكثوا من النعمة فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب النجاة فأبوا دخولها ، فكانت عاقبتهم أن محقت النعم من بين أيديهم ، وسلط الله عليهم عذاباً شديداً من عنده بسبب ظلمهم وفسوقهم عن أمره .

وفي ذلك إشارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوي على ما ضاع من أسلافهم بسبب إتهامهم لحرمة الله ، وتحذير لهم من سلوك طريق آباءهم حتى لا يصيبهم ما أصابهم من عذاب ألم .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة أخرى من رذائل بنى إسرائيل الكثرة ، وهي تحاييلهم على إستحلال محارم الله بسبب جهلهم وجشعهم وضعف إرادتهم .

وذلك أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهداً بأن يتفرغوا لعبادته في يوم

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ من ص ٢٠٧

السبت وحرّم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، واختيار آمنه مسجداً لهم لإيمانهم ووفائهم بهم ودم أرسل إليهم الحيتان في يوم السبت دون غيره ، فكانت تترامى لهم على الساحل في ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد .

وهنا سأل لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا في حيلة لاصطياد هذه الحيتان في يوم السبت فقالوا : لا مانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك في يوم السبت أحواضاً تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة في الأحواض في يوم السبت - لأنها لا تستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذي في الأحواض . ثم نصطادها بعد ذلك في غير يوم السبت ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت وبين ما نشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على عارم الله ، وأن حبس الحيتان في الأحواض هو صيدها في المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده .

ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلاتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قرده ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واستمع إلى سورة الأعراف وهي تحكي لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول :

« واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت ، إذ أتاهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لأتائهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣) وإذ قالت أمة منهم لم تعظونا نقلاً من الله منكم ، أو معدّهم عذاباً شديداً ،

قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا  
بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِمَذَابِ  
بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمَّا هَمَّوْا سَمَّا نَهُوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ  
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (۱۶۶) .

قوله - تعالى - . واسألهم عن القرية ... الخ ، معطوف على اذكر  
المقدر في قوله - تعالى - : وإذ قيل لهم اسكنوا . والخطاب للنبي - صلى  
الله عليه وسلم وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم  
الذين تحابوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم في كتبهم ولا  
يستطيعون كتابها .

والمقصود من سؤالهم تقريرهم على عصيانهم ، لعلمهم أن يتوبوا ويرجعوا  
إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم  
بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم والتي لا يستطيعون إنكارها ، والتي  
لا تعلم إلا بكتاب أو وحي ، فإذا أخبرهم بها النبي الأُمى الذى لم يقرأ كتابهم  
كان ذلك معجزة له . ودليلا على أنه نبي صادق موحي إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : ( أى وسأل - يا محمد -  
هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله  
فجاجأتهم نعمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحفر هؤلاء من  
كتاب صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحمل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم  
وهذه القرية هى ، أيلة ، وهى على . شاطىء . بحر القلزم ، أى - البحر  
الأحمر - ) (۱) .

وقال الإمام القرطبي : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ ، وكان ذلك علامة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأننا من سبط إسرائيل . ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزيز فنحن أولادهم ، فقال الله - عز وجل - لنبيه سلم - يا محمد - عن القرية . أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فروع الشريعة (١) .

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية . قرية (أيلة) التي تقع بين مدين والطور ، وقيل هي قرية طبرية ، وقيل هي مدين .

ومعنى كونها (حاضرة البحر) : قرية منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أى قريبا منها .

وقوله : إذ يعدون في السبت ، أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله - تعالى - بالصيد في يوم السبت ويعدون بمعنى يعدون ، يقال : غدا فلان الأمر ولاعتدى إذا تجاوز حده .

وقوله تعالى ( إذ تأنيهم حيثأنهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبثون لا تأنيهم ) بيان لموضع الاختيار والامتحان .

و إذ تأنيهم حيثأنهم ، ظرف ليعدون . وحيثان جمع حوت وهو السمك الكبير . وشرعا : أى : شارعة ظاهرة على وجه الماء . جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف وكل شيء دنا من شيء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .

والمعنى : إذ تأنيهم حيثأنهم في وقت تعذيبهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دافية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وانتهى لا تأنيهم كما كانت تأنيهم فيه ، إبتلاء من الله - تعالى - لهم .

قال ابن عباس : ( اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاه الله - تعالى - به ، وحرم عليهم الصيد

فيه ، وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا إنقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى ( ويوم لا يسئتون لأتائهم<sup>(١)</sup> ) .

وقال الإمام القرطبي : ( وروى في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود -- عليه السلام -- وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أخذها - يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء . فبأخذونها - يوم الأحد<sup>(٢)</sup> ) .

وقوله تعالى ( كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ) معناه : يمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم في يوم السبت ، واختفائه في غيره نبتليهم ونعامهم معاملة من يخترهم ، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحاييلهم القبيح على شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجزل له ثواب أخراه ، ومن عصاه أخذته أخذ عزيز مقتدر .

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى : ( وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ) .

والذي يفهم من الآية الكريمة ، - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

- ١ - فرقة المعتدين في السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار
- ٢ - فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعذيبهم وفسوقهم .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٢١٦ طبعة الاميرية الأزهرية سنة ١٣٠٨ هـ

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٠٦

٣ - فرقة الآمنين للناصحين لياهم من صلاح العادين في السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هي التي عبر القرآن الكريم عنها بقوله : ( وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ) أي : قالت فرقة من أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهداً في نصيحة العادين في السبت ، لم تعظون قوماً لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى بإسنتصالحهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً ، جزاءاً بما ذنبوا في الشر ، وصممهم عن سماع الموعدة فكان رد الناصحين عليهم ( معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ) .

فهم قد علوا نصيحتهم للعادين بعلمتين :

الأولى : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والثانية : الأمل في صلاحهم وإنتفاعهم بالموعدة حتى ينجو من العقوبة ، ويسيروا في طريق المهتدين .

وقيل : أن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت في السبت ، وفرقة أحجمت عن الأقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهمك والاستهزاء : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً في زعمكم ؟ فأجابتهم الناصحة بقولها . معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون .

والذي نرجحه إن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين . لأن هذا هو الظاهر من الضمائر في الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية ( ولعلمكم تتقون ) بكاف الخطاب ، بدل قولهم ( ولعلمهم يتقون ) الذي يدل على أن المخاطب هو الفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبي عند تفسيره الآية الكريمة : إن بني إسرائيل افتقرت ثلاث فرق ، فرقت عصت وصدت ، وكانوا ، نحووا من سبعين ألفاً ، فرقة نهت وإعتزلت ، وكانوا نحووا من إثني عشر ألفاً ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة هي التي قالت للفاهية ، لم تعظون قوماً - عصاة - الله مهلككم ، أو معذبهم على غلبه الظن . وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية ؟ (١)

وقوله « معذرة » بالنصب على أنها مفعول لأجله أي : وعظناهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أي : نفتنر معذرة وقرئت « معذرة » بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أي : موعظتنا معذرة وقد اختار صديقه هذا الوجه ونال في تعليقه : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا لعذارا مستأنفاً ولكنهم قبل لهم لم تعظون ؟ فقالوا موعظتنا معذرة .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الفاهية والعاصية فقال تعالى ( فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين يهتدون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ) أي : فلما لج الظالمون في طغيانهم ، وعموا وصموا عن النصيحة أنجيناهم الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لارحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله .

والآية الكريمة صريحة في بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجواهم الناهون عن سوء . أما الفرقة الثالثة التي لامت الناهين عن سوء على وعظهم للمعتدين ، فقد سكنت عنها :

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر . فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارمة لما فعله العادون

في السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبهوه ، وإذا كانت قد سكنت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا الرأي ذهب صاحب الكشاف وغيره .

قال صاحب الكشاف : ( فإن قلت : الأمة الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً - من أي الفريقين هم ؟ أمر فريق الناجين أم من فريق المعذبين . قلت من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعدهم بحال انقوم . وإذا علم الناهي حال المنهى ، وأن النهي لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المسكسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظموهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك ، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن بأسهم لم يستحكم كما استحكم بأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم . أو لفرط حرصهم وخدمهم في أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله ( فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ) (١) .

وقال الإمام ابن كثير : ( ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ما أدري ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه فقالوا ( لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ) قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكساني حلة ) (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير .  
Made searchable using ScribeTools.com

والذي نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح في شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة الاثمه للناصحة ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين في السبب موقفاً سلبياً لاستحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلاً للمؤاخاة .

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذي أصابهم فقال تعالى : فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ؛ أي فلما تكبروا عن ترك ما نهام عنه الواعظون . قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .

قال الألوسي : ( والأمر في قوله تعالى ( قلنا ) تكوييني لا تكليفي ، لأنه ليس في وسعهم حتى يكفروا به ، وهذا كقوله تعالى ( إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) في أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل ( ١ ) .

وقيل في تفسير الآية : إن الله تعالى - عاقب القوم أولاً بالعذاب البئيس الذي يتناول البؤس والشقاء والفقر في المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويقوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخاً خلقياً وجسيمياً ، فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :

وقيل : مسخهم مسخاً خلقياً ونفسياً ، فساروا كالقردة في شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد .

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم في المعاصي ، وتأبيهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومه أطعاهم ، وإنتسكاسهم إلى عالم

الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان . فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم  
من الصغار والهوان .

هذا وقد استدلل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الخيل القبيحة  
التي يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة . وغاياتهم  
الذميمة ومطامعهم الخسيسة .

وقد أفاض الإمام ابن القيم في كتابه (إغاثة اللامقان) في إيراد الأدلة  
الدالة على هذا التحريم ، فقال ماملخصه : ( ومن مكابد الشيطان التي كادها  
الإسلام وأهله ، الخيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرم الله  
وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه ، وهي من الباطل الذي اتفق  
السلف على ذمه ، فإن الرأي رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة  
والاعتبار ، وهو الذي اعتبره السلف وعملوا به . ورأى يخالف النصوص  
وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذي ذموه وأهدروه .

وكذلك الخيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله - تعالى - به  
وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له ،  
وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعمله .  
ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ،  
والظالم مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا . فهذا الذي اتفق السلف على  
ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض . . ثم قال :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قرده ، لما نحأيلوا  
على إباحة ما حرمه الله - تعالى - عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم  
الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الخيل على المناهى الشرعية ،  
من يتلبس بعلم الذميمة . . . . .  
الله - تعالى - يحفظ

حدوده ، رتعظيم حرمانه ، والوقوف عندها ، وليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكديباً لموسى - عليه السلام - وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قرده ، لأن صورة القرده فيها شبهة من صورة الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم سبحانه قرده يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاءً وفاقا ، وفي الحديث الشريف ( لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل ) (١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :  
( قال الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ) (٢) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « بلغ عمر - رضى الله عنه - أن سمرة باع خمراً فقال : قاتل الله سمرة . ألم يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها - أى أذبوها - فباعوها » (٣) .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين في السبت من اليهود ، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة ، وتحاييلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلاً للعذاب الشديد والمسوخ الشنيع ، جزاء إمعانهم في المعصية وصممهم عن سماع الموعدة ، وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) إغاثة اللهيان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) صحيح البخارى : باب ( لا يذاب شحم الميتة ) > ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة ، > ٢ ص ١٢٠٦ طبعة الحلبي .

(٣) صحيح البخارى : باب ( لا يذاب شحم الميتة ) > ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة ، > ٢ ص ١٢٠٧ .

ثم بين - سبحانه - ما نوهده به أولئك اليهود من عقوبات بسبب كفرهم  
وفسوقهم وإفسادهم في الأرض فقال - تعالى - :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ  
سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)  
وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ  
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) » .

قوله : وإذ تأذن ربك ، منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على  
: واسألهم ، أي : واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك .

وتأذن بمعنى آذن ، أي : أعلم . يقال : آذن الأمر وبالأمر أي : أعلمه .  
وآذن تأذنياً : أكثر الإعلام .

وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ، ولذلك جرى بلام القسم  
ونون التوكيد في جوابه وهو قوله - تعالى - : ليبعثن عليهم . . . الخ . .

وقوله : إلى يوم القيامة ، متعلق بقوله : ليبعثن . .

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله - تعالى - هؤلاء اليهود وأسلافهم  
بانهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأفبيائهم ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من  
يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب  
إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور  
رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى  
لا ييأس العاصي من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل  
الصالح كما قال - تعالى - : ولإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى . .

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن  
من دولة وصوله . . . . .

دولة . فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم ووحى الدول التي تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك بينما شعوب هذه الدول تكره أولئك اليهود وتزدريهم وتنفر منهم .

وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا في حق خالقهم ، وفي حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التي شرعها الله لهم لحرب أعداءهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التي شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوقة وكرامتهم المفضوبة .

وصدق الله إذ يقول : ذاك بأن الله لم يك خيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . .

هذا وقوله - تعالى - « وقطعناهم في الأرض أمماً ، إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم ، وتمثل هذه العقوبة في تفريقهم في الأرض ، وتمزيقهم شراً ممزق حتى لا تكون لهم شوكة .  
و « أمماً ، حال من مفعول « قطعناهم ، أو مفعول ثانٍ لقطعناهم على أنه بمعنى صيرناهم .

أى : أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم في الأرض شراً ممزق بسبب عصيانهم فسوقهم ، وصيرناهم فرقاً متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، بيان لحالهم .

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتهاء بهم لجرماته .

والجمله من المبتدأ والخبر ، في موضع نصب على أنها صفة لـ « أمماً ، .

وقوله ، ومنهم دون ذلك ، الجار والمجرور خبر مقدم و ، دون ذلك ، نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ والتقدير : ومنهم ناس أو جماعة دون ذلك . وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة وتقدير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء ، فهو يمدح من يستحق المدح ، ويذم من هو أهل الذم ، وما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى التخلق بهذه الأخلاق .

وقوله - تعالى - « وبلو ناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ، أى عاملانهم معاملة المبتلى الممتحن تارة بالنعم الكثيرة كالصحة والخصب وسعة الأرزاق ، وتارة بالنقم المتنوعة كالجدب والأمراض والشدائد ، لعلمهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصي والسيئات .

يقال : بلاه يبلوه بلوا ، وابتلاه ابتلاء ، إذا جربه واختبره . ولقد كانت نتيجة هذا الابتلاء والاختبار أن تكشف الحقائق عن أن الكثرة من بني إسرائيل سلكت طريق الضلالة والغواية ، والثقلة هي التي آمنت وأصلحت ولذا عاقب الله تلك الكثرة بالعقوبة التي تناسبها جزاءً ووفاءً .

هذا ، وما أخبر به القرآن من أن الله - تعالى - قد توعد بني إسرائيل وأخبرهم بأنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم قد شهد بصدقة التاريخ ، وأيدته الحوادث ، وهذه نماذج قليلة من تلك العقوبات التي نزلت بهم في الأزمنة المختلفة (١) .

أولاً : بعد وفاة سليمان - عليه السلام - حوالي سنة ٩٧٥ ق م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة الشمال ، واسمها (إسرائيل) ومقرها (السامرة) (٢) وتتكون من الأسباط العشرة .

(١) ذكرنا هنا نماذج قليلة من تلك العقوبات ومن أراد معرفة المزيد فليرجع إلى كتابنا «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» ، ص ٢٦ وما بعدها .

ومملكة الجنوب واسمها (يهوذا) ومقرها (أورشليم<sup>(١)</sup>) وتتكون من  
سبطي يهوذا وبنيامين .

وقد استمرت المنازعات بين المملكتين مدة طويلة ، انتهت بانقضاء  
(سرجون) ملك آشور على مملكة الشمال (إسرائيل) سنة ٧٢١ ق م فقتل  
الآلاف من رجالها ، وأسر البقية منهم فرحلهم إلى ماوراء نهر الفرات ، وقضى  
على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وأما مملكة الجنوب (أورشليم) فقد حاولت أن تثبت بالبقاء ، ولكن  
معاول الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب وكانت نهايتها على يد بختنصر  
البابلي سنة ٥٨٦ ق م .

ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التي أدت إلى زوال مملكة  
(يهوذا وإسرائيل) فيقول : ( هي قصة نكبات وقصة تحررات لا تعود عليهم  
إلا بإرجاء النكبة القاضية ، هي قصة ملوك همح يحكمون شعبا من الهمج ،  
حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م دحمت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من  
الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح  
حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م .

ثانيا : استرد اليهود بعض أفعالهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس من  
حوالي سنة ٥٣٦ إلى سنة ٣٣٣ ق م فقد عادوا في هذه الفترة إلى فلسطين ،  
ووقعوا تحت سيطرة الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٠ ق م .

وفي سنة ٢٢٠ ق م سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر ، فهدم  
القدس ، ودك أسوارها ، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر ، لأنهم  
ثاروا عليه .

---

(١) أورشليم هي بيت المقدس الآن .

ثالثاً : في سنة ٢٠ ق م تقريباً ، وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة ، ورأى بعض الحكام السلوقيين من اليهود تمرداً وعصياناً ، فأنزلوا بهم أشد العقوبات في عدة مواقع ، وكان من أبرز المنكبين باليهود ( انطوخوس ) ما بين سنة ١٧٠ . وسنة ١٦٨ ق م فقد هاجم ( أورشليم ) وهدم أسوارها وهيكلها . ونهب مافيها من أموال وقتل من أهلها أربعين ألفاً في ثلاثة أيام ، وباع مثل ذلك العدد عبيداً منهم ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال ، وقد أقام ( انطوخوس ) قمة على أحد الجبال ليشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله ، وقد وصل به الحال أنه أكره عدداً كبيراً منهم على ترك الديانة اليهودية وجعل هيكلهم في أورشليم معبداً لإلهه .

رابعاً : وفي سنة ٦٣ ق م أغار الرومان بقيادة ( با مبيوس ) على أورشليم فاحتلوها ، واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤ م . وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألواناً من القتل والسبي والتشريد .

كان من أشهرها ما أنزله بهم د تيطس . الروماني سنة ٧٠ م فقد اقتحم في هذه السنة أورشليم فدمرها تدميراً ، وقتل الآلاف من اليهود وأحرق هيكلهم .  
خامساً : بعد هذه النماذج التي سبقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على اليهود ، نتابع سيرنا في سرد بعض العقوبات التي أنزلها المسلمون باليهود بسبب بغيتهم وخياناتهم فنقول :

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة ، وعقد بينهم معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نفذوا عهدهم ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل الكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها ، وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهديهم عن جحودهم وبغيتهم ولكنهم لم يستجيبوا .  
لأئمة منهم بالعقوبة

التي تناسب جرمهم وخيانتهم وتكفل للمسلمين أن يعيشوا في مأمن من شرورهم ، ومن بين العقوبات التي أنزلها النبي صلى الله عليه وسلم بهم لإجلاؤه لبني قينقاع ولبنى النضير عن المدينة ، وقتله لبني قريظة وإهداره لدم بعض كبرائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق ، ومحاربتة ليهود خيبر ومصالحته لهم بعد متمل عدد كبير منهم ، ورفعهم راية الأمان ، والاستسلام ، وقبولهم الشروط التي اشترطها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان من آخر الكلمات التي نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قوله موصيا أصحابه ( أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى في جزيرة العرب دينان ) (١) .

وفي عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تم إخراج جميع اليهود من جزيرة العرب ، إستجابة لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم .  
سادساً : وفي ختام عرضنا لبعض العقوبات التي نزلت باليهود في الأزمنة المختلفة جزاء لإجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على أيدي بعض الدول الأوربية .

( ١ ) ففي بريطانيا : لقي اليهود في بعض العمود ألواناً من التعذيب ، وصنوفاً من القتل والتشريد .

١ - من ذلك أن الملك الإنجليزي ( يوحنا ) أصدر أمراً بحبسهم في جميع أنحاء مملكته .

وفي سنة ١٩٢٨ م جأر الشعب البريطاني بالشكوى من اليهود ، فأصدر الملك ادوارد الأول أمراً بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية في غضون ثلاثة أشهر ، إلا أن الشعب البريطاني لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة ، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات وفي قلعة ( بورك ) التي احتوى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودي وقد اضطر الملك

إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا في كل مكان ، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون تقريبا . ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م في عهد الطاغية ( كرومويل ) الذي اغتصب الملك ( شارل الأول ) بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة في سبيل بلوغ أغراضه .  
(ب) وفي فرنسا : تعرض اليهود في أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسي وغبه ، لأنهم درسوا اقتصاده الوطني ، وخنقوه بالربا الفاحش ، والمعاملات السيئة .

١ - في عهد ( لويس التاسع ) تدهورت الحالة الاقتصادية في فرنسا فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون ، ثم أصدر أمرا بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة التلمود . وقد قال أحد المؤرخين إنهم أحرقوا في باريس وحدها محمول أربع وعشرين مرة كبة من نسخ التلمود وغيرها (١) .

٢ - وخلال تولى ( فيليب الجميل ) حكم فرنسا . أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد ، ثم طردوا من فرنسا نهائيا ، ولكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا ( لفيليب ) ثلثي الديون التي لهم في فرنسا .

٣ - وفي سنة ١٣٢١ م هاجم الشعب الفرنسي وذبح عددا كبيرا منهم ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا في أواسط القرن السادس عشر .

٤ - وفي أوائل القرن التاسع عشر حاول ( نابليون ) أن يستغلهم لبلوغ مظامعه ، ولكنهم خانوه ، فاحتقرهم ، وبطش بعدد منهم . وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه . ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسي إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين .

(١) تاريخ الإمبراطورين ص ٨٣ شاهين . كار يوس ،

( ح ) وفي إيطاليا ، حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم ( الشعب المسكروه ) وأغروا الشعب الإيطالي بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود .

وفي سنة ١٢٤٣ م أعلن البابا ( جريجورى ) التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود الذى يظن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخته .

وفي سنة ١٥٤٠ ثار الشعب الإيطالي على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

( د ) وفى أسبانيا : ذاق اليهود من الشعب الأسباني ومسلوكه صنوف الذل وألوان الهوان ، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا . ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد .

فى عهد الملك ( فرديناند ) وزوجته ( إيزابلا ) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها : لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها وإشغالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف . . . فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طردا نهائيا .

وفى ٣١ من مارس سنة ١٩٥٣ صدر المرسوم التالى عن الملك ( فرديناند ) : ( يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ، ولقد أنشأنا محكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة . وهى تعمل دائما على توقيع العقوبة على المدنين ، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم ، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب السكاوليكي ، ولذا قررنا نفي اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى

الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون في بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تمييز في الجنس أو الأعمار أن يغادروا البلاد في غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب... (١).

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود من طردة من أسبانيا بعد أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم ، وبعد أن نفثوا سمومهم في أسبانيا زهاء سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطرودين يبلغ نصف مليون نسمة ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم .

(هـ) وفي روسيا: كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد استعملوا طول مدة إقامتهم في روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب ، ففتحوا الخنادق وتاجروا في الخمر ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة ، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى عندما مكنتهم الظروف من ذلك وكونوا الجمعيات السرية التى عملت على هدم نظام الحكم لقيصرى واستمرت فى نشاطها حتى أزالتها بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ م هذه الشريرة التى كان معظم قوادها من اليهود . ولم ينس الروس لليهود ما قاموا به بحكم من عدوان واستغلال ، فانقضوا عليهم عدة مرات لتخلص منهم وأعمالهم الذبح والقتل بلا رحمة ، وكان من أبرز المذابح التى أوقتها الروس باليهود مذبحه سنة ١٨٨١ م ومذبحه سنة ١٨٨٢ م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود قديميا فى هاتين السفنتين .

وعندما نشر المكاتب الروسى ( فيلوس ) نسخا قليلة من ( بروتوكولات حكماء صهيون ) سنة ١٩٠٢ م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ، جن جنونهم خوفا وفضعا . وعمت المذابح عديم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف يهودى .

(١) خطر اليهود (الترجمة) ص ١٨ لعبدالله التل.

(و) وفي ألمانيا : انتشر اليهود في كثير من مدينتها منذ القرن الثامن الميلادي ، وسكنوا على ضفاف نهر الراين ، واستغلوا الشعب الألماني أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام . ولقد هاج الشعب الألماني ضدهم في أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرده .

يقول صاحب كتاب ( تاريخ الإسرائيليين ) وظل القتل والذبح منتشرا في اليهود إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء - ألمانيا - في أزمئة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر ، حتى لم يكدهم يبق منهم واحدا فيها ... ) (١) .

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد هتلر ، ابتداء من توليه الحكم ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥ .

وفي كل البلاد التي نزل بها اليهود ، تعرضوا لعقمة السكان وغضبهم وازدرائهم ، يستوى في ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث ، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة ، وعقوبات صارمة ، شملت التشكيل والطرده والسجن والقتل ومصادرة الأموال .

ويقرر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت في اضطهاد اليهود ولإنزال مختلف العقوبات بهم ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضها عليها (٢) .

هذا ، والشئ الذي نؤكده بعد سرد هذه النماذج من العقوبات التي نزلت باليهود في مختلف العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهنها :

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٨٨

(٢) ( اليهودية ص ٧٣ الدكتور أحمد شلبي )

أولاً : أنافيتهم وأطعامهم التي لا حدود لها ، فقد سوغت لهم أنافيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن عليهم متى جلوا في أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وإن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو مهبود اليهود من قديم .

وأنا فيه اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل جعلهم محل تقمة العالم وغضبه ، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود في بلاده ، فأخذ يطردهم منها ، ويحذر أبناء أمته من شرورهم ، ومن هؤلاء الزعماء العقلاء ( بنيامين فرانكلين ) أحد رؤساء الولايات المتحدة ، فإنه ألقي خطاباً سنة ١٧٨٩ قال فيه : ( هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو ( اليهود ) . أيها السادة : حينما استقر اليهود ، تجدونهم يوهنون من عزيمه الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف . لأنهم لا ينفذون بالشعب . لقد كونوا حكومة داخل الحكومة . وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمانة مالياً كما حدث للبرتغال وأسبانيا . . . إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور . ففي أقل من مائتي سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التي ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريقنا . إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لم يمض أكثر من مائتي سنة ليصبح ابناؤنا عمالاً في الحقول لتأمين الغذاء لليهود . . . إنى أحذركم أيها السادة . إذا لم نستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال . والنمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على هذه البلاد . وإذا دخوها فسوف يخرّبونها ويفسدونها . . . ) (١) .

(١) كتاب ( اليهودية العالمية وحياتها المستعمرة على المسيحية ) ص ١٣٠

وللتعاقب على هذا الخطاب نقول : ما أصدرت ما توقعه (فرايفركاين) لولا أنه قد أخطأ التقدير في المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلب لليهود ، فقد قدر (فرايفركاين) هذه المدة بمائتي سنة أي في سنة ١٩٨٩ ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها ، وأموالها وعلما وفنونها وخيراتها ، لمنفعتهم الخاصة في مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة .

ثانيا : غرورهم وتعاليمهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحبائه ، وشعبه المختار . ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متميزين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الخطوة عند الله ، وقسم آخر يسمونه الأمم (الجويم) أي غير اليهود ومعنى (جويم) عندهم ، وثنيون وكفرة وبهاثم وأنجاس . وقد أدى هذا الغرور والتعالي باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم ، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهودياً وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التي تمكنت من اليهود بقوله . (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

وكتب اليهود - لاسيما التلود - طائفة بالوصايا التي تيسح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم ، من ذلك ما جاء في التلود : إذا خدع يهودي أحداً من الأمم وجاء يهودي آخر واختلس من الأمامي بعض ما عنده بنقص السكيل أو زيادة الثمن ، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التي أرسلها إليهما (يهواه) (١) ويهواه هو إله اليهود .

ونتيجة لهذا الغرور والتعالي الذي تميز به اليهود ، وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذي سلبوه منهم ، وليوقع بهم أقصى العقوبات جزاء غرورهم الكاذب ، وتعاليتهم الباطل .

ثالثاً : عزلتهم وعصبيتهم وخيانتهم للبلاد التي آوتهم فهم متعصبون متحزبون ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم ، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره . وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذي لا يحيد لهم عنه ،

ويصف الدكتور ( ويزمان ) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة في اليهود بقوله : ( وكان اليهود في مونتول ( مسقط رأسه ) بروسيا ، يعيشون كما يعيش اليهود في مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكشيين ، وفي عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم ) .

ولعل أدق صورة للتجربض على العزلة والتمسك بها ، ما ذكره (سلامون شحتر ) في خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا حيث قال : ( إن معنى الاندماج في الأمم هو فقدان الذاتية . وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج ، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات )<sup>(١)</sup> .

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة ، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها وريبة وحذر ، وصار طابعهم في كل زمان ومكان عدم الإخلاص لاية هيئة دينية أو دنيوية . وعدم الولاء للأوطان التي يعيشون فيها وبأكلون من خيراتها ، وإنما يجعلون ولاهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها ، لأن اليهودي يهودي قبل كل شيء ، مهما تكن جنسيته ، ومهما يعتقد من عقائد ومبادئ . في الظاهر ، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته

ناصر يهوديته ، وحاول أن يشيع الخراب والدخار في الأمة التي هو فرد من أفرادها خصوصا إذا أمن العتاب والصهيونية العالمية تأسر اليهود في كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل وليس للدول التي يعيشون فيها .

تقول جولدا ماير وزير خارجية إسرائيل سابقا : ( إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل ضوائف مشتمة تعيش في المنفى ، وأنهم مواطنون لإسرائيليين قبل كل شيء ، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التي يسبقونها على أنفسهم ، وإن اليهودي الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيتته نشيد ( حفظ الله الملكة ) لا يمكن أن يكون في نفس الوقت صهيونيا (١) .

وما أكثر الحوادث التي قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التي يعيشون فيها لحساب أعدائها ، وظهر مثل ذلك ما قام به اليهود المقيمون في ألمانيا من خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا، ومنح اليهود جزاء غدوهم الوطنى وعد ( بانفور ) من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م .

وقد عـدد ( هتلر ) خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح وإفساد التعليم والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل في سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا وفي القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذى احترفه عدد كبير منهم ) .

ويختتم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله ( وإذا قبض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه لكليل جنازة البشرية ، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه في الاثير كما فعل منذ ملايين السنين لن يكون هناك بشر على سطحه . . لهذا أعتقد أنى تصرفات معهم حسبما شاء خالقنا ،

(١) من محاضرة مطبوعة عن ( اليهود ودولة إسرائيل ) .

لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، إنما أفاضل فى سميل الدفاع ، عن عمل الخالق (١) .

وإذن فعزلة اليهود ، وعصبيتهم ، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم ، كان جزاؤها العادل ما دل بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة .

رابعاً : اضطهادهم لغيرهم متى ملسكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم وملىء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كان لهم النصر عليها ، وقد ساعدتهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه ، فى سفر الخروج ما نصه .

( حين تقرب من مدينة اىكى تخارها استدعها إلى الصلح ، فإن إجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما ) (٢) .

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أديار تاريخهم فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحي سنة ٣٠٤ م إيمراز من الإمبراطور ( مارك أوريل ) .

ومالنا نذهب بعيداً فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين ما زالت ماثلة فى أذهاننا ، يقول أحد الكتّاب المعاصرين : ( إن مذبحه دير ياسين كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود . فقد قتلوا مائتين وخمسين إنساناً فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسامهم ، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام

(١) كتاب كفاجر ، لقتل .

أعينهن ١٠٠٠) . وحدث ما يشبه هذه المذابح في كثير من مدن فلسطين كحيفا ويافا وقيية وكفر قاسم .

والحق ، أن مفاهيم اليهود الباطلة ، وأنانيتهم الطاغية ، وطباعهم النجسة وأخلاقهم الفاسدة ، وعصبيتهم الذميمة ، وقلوبهم القاسية ، واستباحتهم لقتل غيرهم ، وإهدار كرامته ، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة ساط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق .

ويعجبني في هذا المقام قول المؤرخ اليهودي « يوسفوس » ، لا توجد أمة في الأرض في كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم .

والآن ، بعد سرد هذه العقوبات التي حلت ببني إسرائيل في مختلف العصور تأييداً لقوله - تعالى - « ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ١٠٠٠ » ، بسبب أعمالهم السيئة فعود إلى السورة الكريمة فزأها نجدنا عن لون من ألوان الدعاوى الباطلة التي حكها القرآن عنهم ، وهو زعمهم أن ذنوبهم مغفورة لهم ، وأنهم مهما فعلوا من ذنوب ، وارتكبوا من موبقات ، واستحلوا من أموال حرام ، فلن يحاسبهم الله على ذلك إلا حساباً يسيراً لأنهم أبناءه وأحبائه ، واستمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي ذلك عنهم فتقول:

« فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ، وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٨) وَالَّذِينَ يُعَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٦٩) .

قال الإمام القرطبي : الخلف - بسكون اللام - الأولاد ، الواحد والجمع  
فيه سواء ، الخلف - بفتح اللام - البديل ، ولداً كان أو غريباً . وقال  
ابن الأعرابي : الخلف - بفتح اللام - الصالح . وبسكونها الصالح ، ومنه قيل  
للردى من الكلام خلف - بسكون اللام - ومنه المثل السائر ، سكت ألفاً  
ونطق خلفاً ، قال لبيد .

ذهب الذين يعاش في أكنافهم - وبقيت في خلف كجلد الأجر .  
خلف في الهم باللام ، وكان ، وخلف بالفتح في المدح ، هذا هو المستعمل  
المشهور ، وفي الحديث الشريف ( يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ) وقد  
يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر (١) .

والعرض - بفتح الراء - متاع الدنيا وحطامها من الدل وغيره .  
قال صاحب الكشاف : ( قوله تعالى : يأخذون عرض هذا الأدنى أي  
حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يمتنع به منها ، وفي قوله هذا تخسيس  
وتحقير ، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من  
دنو الحال وسقوطها وقلتها والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام  
على تحريف الحكم للتسهيل على العامة ) (٢) .

والضمير في قوله ( من بعدهم ) يعود إلى اليهود الذين وصفهم الله في الآية  
السابقة بقوله ( وقطعناهم في الأرض أما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك  
وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم برجعون ) .

والمعنى : خلف من بعد أولئك القوم الذين قطعناهم في الأرض أما خلف  
سوء ، ورثوا كتاب الله وهو التوراة فقرأوه وتعلوه ، ووقفوا على ما فيه من  
تحليل وتحريم وأمر ونهي ولما كتبهم لم يتأثروا به بل خالفوا أحكامه ، واستحلوا

محارمه مع علمهم بها ، فهم يتهافتون على حطام الدنيا ومتاعها ويتقبلون المال الحرام بشراهة نفس . ويأكلون السحت أكلا لما ويقولون وهم والغون في المعاصي ومصرون على الذنوب : إن الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال ، لأننا من نسل أنبيائه ، فنحن شعبه الذي اصطفاه من سائر البشر ، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يفترونها على الله وهم يعلمون .

وجملة ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، مستأنفة لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد ورائتهم إياه . وقيل هي حال من الضمير في ورثوا .

ثم أخبر - سبحانه - عنهم بأنهم أهل لإصرار على ذنوبهم ، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة فقال تعالى : ( وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ) أى . أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا ويعرضون عن شريعته الله التي أنزلها عليهم في التوراة ويزعمون أن الله لا يؤاخذهم بما فعلوا . ثم هم بعد ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يستغفرونه ، وإنما حالهم أنهم إن لاح لهم عرض حرام آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل ، تهافتوا عليه من جديد واستحلوه وأكلوه في بطونهم : وبدون توبة أو ندم .

قال مجاهد قوله تعالى ( وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ) لا يشرف لهم شىء من متاع الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ، ويتمنون المغفرة ( ويقولون سيغفر لنا ) وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه (١) .

وقال السدى : ( كانت بنو إسرائيل لا يستقصون قاضيا إلا ارتشى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ بعضهم على بعض اليهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا استقصى ارتشى ، فيقال له ماشأنك ترتشى في الحكم ؟ فيقول سيغفر لى ، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل

صنعه فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل من كان يطعن عليه قبل الرشوة يقول الله : وإن يأت : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا بأخذه (١) .

ثم أنكر - سبحانه - عليهم ما زعموه بقولهم : ( سيغفر لنا ) وهم مصرون على معصيتهم فقال تعالى . ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ) .

والمعنى : لقد أخذ الله العهد في التوراة على هؤلاء المرثسين في أحكامهم : والقائلين سيغفر الله فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا القول الحق ، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق ولا يخالفوا أمره . ولا ينقضوا عهده ، ولا يتجاوزوا حدوده ، وقد درس هؤلاء الكتاب ، أي : قرأوه وفهموه ، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهد ولم يتبعوا أوامر كتابهم ونواهيها ، لأنهم درسوه ولم يتأثروا به ، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم ، فضيعوه واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون .

وقوله . أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، بدل من ميثاق الكتاب أو عطف بيان له . وقيل إنه مفعول لأجله أي : لئلا يقولوا .

وجملة ( ودرسوا ما فيه ) معطوفة في المعنى على قوله تعالى ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ) أي أن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق في التوراة ودرسوه .

قال ابن دريد : ( كان يأتهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له (٢) .

ثم بين الله لهم أن ما أعد في الآخرة للمتقين الذين يتعففون عن السحت وعلى أكل أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها الذي أثره هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب فقال تعالى : ( والدار الآخرة خير للذين

يتقون أفلا تعقلون) أى : والدار الآخرة وما أعده فيها من نعيم لا أولئك الذين يتقونه حق تقاته في السر والعلن ، خير من عرض هذا الأدنى الذى استحله هؤلاء اليهود بدون حق وآثروه على ما عند الله من نعيم مقيم وثواب جزيل ( أفلا تعقلون ) - يامن أكلم أموال الناس بالباطل وقلتم سيغفر الله لنا ذنوبنا - هذا الحكم الواضح ، الذى لا يخفى على ذى عقل سليم ، لم تطمسه الشهوات ، ولم يستحوذ عليه الشيطان .

وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق . ويتشبعون من المال الحرام بدون تعفف ويبيعون دينهم بثمنهم .

قال الإمام الألوسى : ( والمراد من الآية توبيع أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على الذنوب وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص عليه المحققون ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إنهم وبخوا على إيجابهم على الله - تعالى - غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ثم لا يتوبون منها .

وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله ، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ) ومن هنا قيل : إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وبتابعهم أنفسهم هواها وتمنيهم على الله - سبحانه - الأمانى ، ووبخوا على افتراءهم على الله فى الأحكام التى غيروها ، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها ، وقالوا على الله ما ليس بحق من القول (١) .

ثم أتى الله - تعالى - على من تمسك بكتابه ، فأحل حلاله وحرم

(١) تفسير الألوسى ج ٩ ص ٩٧ بتصرف وتلخيص .

حزامه ، ولم يتقول على الله الكذب فقال تعالى : ( والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ) .

والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموماً .  
والمعنى : والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذي أنزله الله ويعتصمون بحبله في جميع شئونهم إنا لا نضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا دينهم ودينهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وخص الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها لإظهار المزية لكونها عماد الدين ونهاية عن الفحشاء والمنكر .

وبذلك تكون الآيات الكريمتان قد وبختا اليهود لافتراءهم على الله الكذب وردتا عليهم في دعواهم أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل ، وبينتا لهم سريق الفلاح لسكى يسبوا عليها ، إن كانوا ممن ينتفع بالذكر ، ويعتبر بالمثلثات .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل عن بنى إسرائيل بتدبيرهم بالعهد الذي أخذه الله عليهم ، وبأسرهم بالإيمان والعمل الصالح فقالت :

« وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) » .

والآية الكريمة معطوفة على ما سبق من أحوال بنى إسرائيل بتقدير : اذكر .

ونتقناه : من التقى وهو الزعزعة والرفع والجذب بشدة ، يقال : تقى الشيء ينتقه وينتقه ، جذبه واقتلمه .

والمراد بالجبل جبل الطور الذي سمع موسى عليه السلام من ربه .  
قيل : « إن موسى لما أتى بنى إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا

ما فيها من التخليط كبير ذلك عليهم ، وأبوا أن يقبلوا ذلك ، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رؤوسهم مقدار عسكرهم ، فلما نظروا إليه فرق رؤوسهم خروا ساجدين ، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر ، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من أن يسقط فوقهم (١) .

أى : وأذكر يا محمد وذكر بنى إسرائيل المعاصرين لك وقت أن رفعنا الجبل فوق آباءهم الذين كانوا في عهد موسى حتى صار كأنه غمامة أو سقيفة فوق رؤوسهم لنريهم آية من الآيات التي تدل على قدرتنا وعلى صدق نبينا موسى عليه السلام .

قال بعض العلماء : ورفع الجبل فوقهم لإرشادهم آية من آيات الله تقوى لإيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله ، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما في الكتاب المنزل بجد وإجتهد (١) .

وقوله : وظنوا أنه واقع بهم ، أى : ووقع في نفوسهم أن الجبل ساقط عليهم إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - .

قال الجبل : وقوله : وظنوا . . . ، فيه أوجه : أحدها أنه في محل جرنسقا على نتقنا الخفوض بالظرف تقديرًا والثاني : أنه حال وقد مقدره عنده بعضهم ، وصاحب الحال الجبل .

أى . كأنه ظلة في حال كونه ظنونا وقوعه بهم . والثالث : أنه مستأنف فلا محل له . والظن هنا على بابه ، وقيل بمعنى اليقين .

وقوله : خذوا ما آتيناكم بقوة ، مقول لقول محذوف دل عليه المعنى . والتقدير : وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى تمسكوا به وأعملوا بما فيه بجد ونشاط ، وتقبلوه بحسن استعداد وبدون تقصير أو تردد .

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٣٠٦

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر

حسين . مجلة لواء الإسلام : السنة الثانية : العدد السابع ص ٥ .

والمراد بقوله : « بما آتيناكم ، التوراة التي أنزلها الله على موسى لتكون هدى ونوراً لهم .

وقوله « واذكروا ما فيه ، أي : احفظوه وتدبروه وتدارسوه واعملوا به بلا تعطيل لشيء منه .

قال القرطبي : وهذا هو من المقصود من الكتب : العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان فحسب ، فقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن من شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شيء منه (١) . » .

ولعل في قوله « لعلكم تتقون ، إما للتعليل فيكون المعنى : خذوا الكتاب بحمد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة لتتقوا الهلاك في دنياكم وآخرتكم . وإما للترجي ، وهو منصرف إلى المخاطبين فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

ولكن بني إسرائيل لم يذكروا ولم يتدبروا بل نقضوا العهد ، ولجوا في المعصية ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وماربك بظلام للعبيد .

وبذلك تكون سورة الأعراف قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - من مطلعها إلى هنا عن هداية القرآن الكريم ، وعن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وعن الغدائد التي وجهها الله - تعالى - لبني آدم تذكيراً وتوجيهاً وتعليماً حتى يسعدوا في دينهم ودنياهم ، وعن أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة وما يدور بينهم من مناقشات ومحاورات ، وعن قصة آدم وإبليس وعن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم ، ثم أفاضت السورة الكريمة في حديثها عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل ...

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٢٧ .

والهدف الأول الذي قصدته السورة بما عرضته من قصص وتوجيهات وإرشادات هو إثبات وحدانية الله ، وإخلاص العبادة له ، وحمل الناس على السير في الطريق المستقيم ، وقد استعملت السورة في عرضها لتلك الحقائق أساليب الترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعم والتحذير من النقم ، وإقامة الحجج ودفع الشبه .

ثم بدأت السورة بعد أن انتهت من حديثها عن بنى إسرائيل وحتى نهايتها تحدثنا عن قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة ، زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر ، ولنتصاحب سويا - أيها القارئ الكريم - متأملين فيما ساقته لنا السورة الكريمة في الربعين الأخيرين منها من آيات تزخر بالأدلة العقلية والمنطقية التي تثبت وحدانية الله وتبطل الشرك والشركاء ، مستعينة في ذلك بما تهدي إليه الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية .

تدبر معي قوله - تعالى - :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُكُمْ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) » .

قال صاحب المنار : هذه الآيات بدء سياق جديد في شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتمجيد شوكه ، في إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بنى إسرائيل . فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ، ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة أو سياق على سياق (١) .

قوله « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، الظهور : جمع ظهر وهو العمود الفقري لحيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته .  
والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث .  
وقوله « من ظهورهم ، بدل بعض من قوله « من بنى آدم ، و « ذريتهم ، مفعول أخذ .

والمعنى : واذكر أيها الرسول وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله - تعالى - من أصلاب بنى آدم ذريتهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها - سبحانه - فى أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ثم مضغة ، ثم جعلها بشراً سوياً ، وخلقها كاملاً مكلفاً .

قال الألوسى : وإيثار الأخذ على الإخراج للإبذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الإجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى . وقيل إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق ، فإن الذى يناسبه هو الأخذ دون الإخراج .

والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية .

وقوله : « وأشهدم على أنفسهم ، أى : أشهدم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعته ، وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان ، وفى عقولهم من مدارك تهديهم إلى معرفة ربهم وخالقهم .

وقوله : « أأست بربكم ، متمول لقول محذوف : أى : قائل لهم - بعد أن أشهدم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل الوحدا نيته - أأست بربكم ، وممالك أمركم ، ومر ربكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شذو فكم ، قال ابن شديق : أمر : قال ابن شديق : على أنفسنا عن

عن عقيدة وإقناع بأنك أنت ربنا وخالقنا ولا رب لنا سواك ، فإن آثار رحمتك وعجائب خلقك ، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردد في هذه الشهادة .

و دلي ، حرف جواب ، وتختص بالنفي فلا تقع إلا جوابه فتفيد إبطاله سواء أكان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ولذلك قال ابن عباس وغيره ، لو قالوا نعم لكفروا . لأن نعم حرف تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب .

قال صاحب الكشاف : وقوله : أأنت ربكم قالوا بلى ، من باب التثنية ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدايته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرهم وقال لهم : أأنت ربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدايتك ، وباب التثنية واسع في كلام الله - تعالى - وفي كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفي كلام العرب . ونظيره قوله - تعالى - : إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وقوله : فقال لها وللأرض ائني أطوعا أو كرها ، قالنا أئنا طاعتين ، . . ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما تمثيل وتصوير للمعنى ، (١) .

والمقصود من الآية الكريمة الاحتجاج على المشركين بمعرفة ربوبيته - تعالى - . معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرار منهم والشهادة . قال - تعالى - : فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، .

والفطرة هي معرفة ربوبيته - سبحانه - :

وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بأن الناس قد فطروا الله - تعالى - على معرفته ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه

أو ينصرانه أو يجسسه ، كما تنتج البهيمة جمعاء - أي سالمة الإذن - هل تحسون قتها من جدعاء - أي مقطوعة الأذن .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله - تعالى - لاني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم - أي صرفتهم عن دينهم - وحرمت عليهم ما أحللت لهم .

وروى الطبري عن الحسن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها ، وذلك يقين لنا أن المعنى الإجمالي للآية الكريمة أن الله - تعالى - - نصب للناس في كل شيء من مخلوقاته - ومنها أنفسهم - دلائل توحيده وربوبيته ، وركز فيهم عقولا وبصائر يتمكنون بها تمكنا تاما من معرفته والاستدلال بها على التوحيد والربوبية حتى صاروا بمنزلة من إذا دعى إلى الإيمان بها سارع إليه بدون شك أو تردد .

فالكلام على سبيل المجاز التمثيل - ليكون الناس قد فطروا الله - تعالى - على معرفته والإيمان به ، وجعلهم مستعدين جميعا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحديته ، ولا إخراج للقرية ولا قول ولا إلهاد بالفعل .

وعلى هذا الرأي سار المحققون من مفسري السلف والخلف :

وبرى بعض المفسرين ، أن معنى الآية الكريمة : أن الله - تعالى - مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذر ، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق ، وألهمهم ذلك الاقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم آدم ، واستشهدوا لذلك بأحاديث وآثار ليست صحيحة الاسناد ، وما حسن إسناده منها فقد أوله العلماء بما يتفق مع منطوق الآية الكريمة .

وقد رد أصحاب الرأي الأول على هذا البعض بردود منها : أن الله - تعالى -

قال : وإذا أخذنا ذرية من بني آدم ، ولم نقم من آدم ، وقال : من ظهورهم ،

ولم يقل من ظهره ، وقال ذريتهم ، ولم يقل ذريته . قال ، إنما أشرك آبائنا  
ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك ، لأن آدم حاشاه من الشرك بالله - تعالى :

قال الامام ابن كثير بعد أن ساق عدداً كبيراً من الأحاديث في هذا  
المعنى : ومن ثم قال قائلون من الساف والخلف : إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو  
فطرم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض والأسود بن سريع  
وقد فسر الحسن الآية بذلك ، (١)

ثم بين - سبحانه - سبب الاشهاد وعمله فقال : « أن تقولوا يوم القيامة  
إننا كنا عن هذا غافلين ، أى : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، أو منعا من أن  
تقولوا يوم القيامة معذرين عن شرككم : إننا كنا عن هذا الأمر وهو لإفراد  
الله - تعالى - بالربوبية غافلين لم ننبه اليه ، لأنهم ما داموا قد خلقوا على  
الفطرة ، ونصب الله لهم في كل شيء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ،  
وجاءتهم الرسل فبشروهم وأنذرتهم . فقد بطل عذرهم ، وسقطت حججهم .

ثم بين - سبحانه - سببا آخر لهذا الاشهاد فقال : « أو تقولوا إنما أشرك  
آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم .

أى . وفعلنا ذلك - أيضا منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب : إن  
آبائنا هم الذين سنوا هذا الاشراك وساروا عليه فمتحن قد اتبعناهم في ذلك  
بمقتضى أننا أبناءهم . ونهج نهجهم من بعدهم ، فإن قولكم هذا غير مقبول  
بعد أن هبأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لقور الحق لو كنتم  
مستعدين لقبوله .

والاستفهام في قوله « أفتملكننا بما فعل المبطلون ، للإنكار . أى : أنت  
ياربنا حكيم وعادل فهل تؤاخذنا بما فعل آبائنا من الشرك وأسسوا من الباطل  
أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرسل؟ إنك ياربنا قد وعدت

أنك لا تأخذ الأبناء، بفعل الآباء ونحن قد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل فكيف تؤاخذنا؟

والجواب على ذلك أن الإقرار بالربوبية والتوحيد هو في أصل فطر تكم فلم لم ترجعوا إليه عند ما دعاكم رسولنا الكريم إلى وحدانية الله ونبتذ الشركاء إن انقيادكم للآباء بعد أن وهبكم الله العقول المفكرة، وأرسل إليكم الرسل مبشرين ومنذرين لن يعفيكم من المسئولية، ولن ينقذكم من العذاب.

ثم قال - تعالى - وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ، أى : ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلمهم يرجعون إلى فطرتهم وما إستكن فيها من ميثاق ، وإلى خلقتهم وما كن فيها من ناموس . فالرجوع إلى الفطرة القويمة كفيل بغرس عقيدة التوحيد في القلوب ، وردها إلى بارئها الواحد القهار الذي قطرها على الحق ، وصرفها عن الجهل والتقليد .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآيات أمورا من أهمها :

١ - فساد التقليد في الدين ، وأنه - تعالى - قد أزاح العذر ، وأزال العلق بحيث أصبح لا يعذر احد بكفره أو شركه .

٢ - أن معرفته - تعالى - فطرية ضرورية . قال - تعالى - ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، .

وروى الترمذى عن عمران بن الحصين قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبي : يا حصين كم إلهها تعبد اليوم . قال أبى : سبعة ستا فى الأرض وواحد فى السماء قال . فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك . قال : الذى فى السماء .

فإنه - تعالى - فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد ، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به . ولا يلج لسانه بأكثر من اسمه المقدس (١) ثم ضرب - سبحانه - مثلا لمن لا يعمل بعلمه فقال - تعالى - :

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٩٠٢ :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ  
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ  
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ  
عَلَيْهِ يَلْهَثُ ، أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) » .

قال صاحب المنار : هذا مثل ضربه الله - تعالى للكافرين بآيات الله  
المنزلة على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو مثل من آتاه الله آياته  
فكان عالما بها ، حاقظا لقواعدها وأحكامها قادرا على بيانها والجدل بها ، ولكنه  
لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعلمه فسلب هذه  
الآيات ، لأن العلم الذي لا يعمل به لا يثبت أن يزول فأشبهه الحية التي تنسلخ من  
جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض ، أو كان في التباين بين علمه وعمله  
كالمتسلخ من العلم التارك له ، كالنوب الخلق يلقيه صاحبه ، والعميان يتجردون  
جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة      فكانهم خلقوا وما خلقوا  
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد      فكانهم رزقوا وما رزقوا

فأصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيصاحها  
بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه ، لأن كلا منهما  
لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص ، (١)

وقوله - تعالى - « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » أي :  
أقرأ على قومك يا محمد ليحتسروا ويتعظوا خبر ذلك الانسان الذي آتيناه آياتنا

بأن علمناه إياها ، ورفعناه مرامها ، فانسلخ من تلك الآيات إنسلاخ الجلد من الشاة ، أو الحية من جلدها .

والمراد أنه خرج منها بالسكينة بأن كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظام وإرشادات .

وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالسكينة عن المسلوخ عنه ، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه . وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة وقوله : « فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، أي : فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين في الغواية ، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين :

وفي التعبير بقوله « فأتبعه الشيطان ، مبالغة في ذم هذا الإنسان وتحقيره ، جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه ، فهو على حد قول الشاعر :

وكان فتى من جنود إبليس فارتقى به الحال حتى صار لإبليس من جنده  
قال الجمل : أتبعه فيه وجهان : أحدهما : أنه متعدد لواحد بمعنى أدركه ولحقه ، وهو مبالغة في حقه حيث جعل إماماً للشيطان . وثانيهما أن يكون متعدياً لاثنين لأنه منقول بالهمزة من تبع ، والمفعول الثاني محذوف تقديره : فأتبعه الشيطان خطواته ، أي جعله تابعا لها : ومن تعديته لاثنين قوله - تعالى - « أتبعناهم ذرياتهم بإيمان ، (١) .

وقوله « ولو شئنا لرفعناه بها ، كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الإنسلاخ وما يتبعه .

والضمير في قوله « لرفعناه ، يعود إلى الشخص المبرع عنه بالاسم الموصول « الذي ، والضمير في قوله « بها ، يعود إلى الآيات . ومفعول المشيئة محذوف أي : ولو شئنا رفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات السكال والعرقان لرفعناه ، لأننا لا نستعصي على قدرتناشي . ولاكننا لم نفعل ذلك لأن سنتنا

جرت أن ترفع من عنده الاستعداد لذلك أما الذين استحبوا العمى على الهدى فنذرهم في ضلالهم يعمهون .

وقد بين القرآن هذا المعنى في قوله : « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، أخلد إلى الأرض : أى ركن إليها . وأصل الإخلاق اللزوم للمكان من الخلود .

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ولكنه هو الذى ركن إلى الدنيا ، واطمأن بها ، واستحوذت بشمواتها على نفسه ، واختار لنفسه طريق التسفل المنافى للرفعة ، واتبع هواه فى ذلك فلم ينتفع بشيء من الآيات التى آتيناها لإياها .

أى : أن مقتضى هذه الآيات أن ترفع صاحبها إلى أعلى عليين ، ولكن هذا المقتضى عارضه مانع وهو إخلاق من أوتى هذه الآيات إلى الأرض واتباعه للهوى ، فتغلب المانع على المقتضى ، فهو كما قال القائل :

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثلما يقتضى

فقات : لما لم يكن عاملا تعارض المانع والمقتضى

قال الآلوسى : وما أطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه - تعالى - ونسبة الانسلاخ والإخلاق إلى العبد ، مع أن الكل من الله - تعالى - ، إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب مافيه . ومن هنا قال - صلى الله عليه وسلم - : اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك (١) .

وقوله : فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

اللهث : إدلاج اللسان بالنفس الشديد . يقال : لهث الكلب يلهث . كسمع ومنع . لهثا ولهانا ، إذا أخرج لسانه فى التنفس .

والمعنى : فمثل هذا الإنسان الذى آتيناها آياتنا فانسلخ منها وأصبح ليطأ الآيات وعدمها بالنسبة له سواء ، مثله كمثل الكلب إن شددت عليه وأبعثته

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ١١٤ .

لهث ، وإن تركته على حاله لهث -- أيضا -- ، فهو دائم اللهم في الحالين .  
لأن اللهم طبيعة فيه ، وكذلك حال الحريص على الدنيا ، المعرض عن الآيات  
بعد إيتائها ، إن وعظته فهو لإبشاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ ، وإن  
تركت وعظه فهو حريص - أيضا - على الدنيا وشهواتها .

والإشارة في قوله ، ذلك مثل القوم ، إلى وصف الكلب أو إلى المنسلخ  
من الآيات ، أى : ذلك المثل البعيد الشأن في الغرابة مثل القوم الذين كذبوا  
بآياتنا من الجاحدين المستكبرين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان في حوزتهم .  
وقوله ، فاقصص القصص لهم يتفكرون ، أى : إذا ثبت ذلك ،  
فاقصص على قومك أيها الرسول الكريم المقصود عليك من جهتنا لهم  
يتفكرون فينزعجون عما هم عليه من الكفر والضلال .

والفاء في قوله ، فاقصص ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والقصص مصدر  
بمعنى اسم المفعول ، واللام فيه للتعهد ، وجملة الترجى في محل نصب على أنها حال  
من ضمير المخاطب أو في موضع المفعول له . أى فاقصص القصص راجيا  
لتفكيرهم ، أو رجاءاً لتفكيرهم .

وقوله : ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إستئناف مسوق لبيان  
كحال قبهم بعد التبيان السابق . و ، ساء ، بمعنى بشى وفاعلها مضمرة ،  
و ، مثلا ، تمييز مفسر له ، والمخصوص بالذم قوله -- تعالى -- ، القوم الذين  
كذبوا بآياتنا ، .

أى : ساء مثلا مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا حيث شبهوا بالكلاب  
لإما في استواء الحاليتين في التقصان وأنهم ضلون وعظوا أم لم يوعظوا ، ولإما  
في الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا في نحصيل أكلة أو شهوة ، فنخرج  
عن خير الهدى والعلم وأقبل على هواه صار شبيها بالكلب ، وبشى المثل مثله  
ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
قال : ، ليس لنا مثل السوء . العائد في هبته كالكلب يعود في قيته ، .

وقوله : و أنفسم كانوا يظلمون ، معطوف على ، كذبوا ، داخل معه في حكم الصلوة بمعنى أنهم جمعوا بين أمرين قبيحين : التكذيب وظلمهم أنفسهم أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم وحدها بارتكابهم تلك الموبقات والخطيئات . فإن العقوبة لا تقع إلا عليهم لا على غيرهم .

هذا . والذي ذهب إليه المحققون من العلماء أن هذه الآيات الكريمة المثل فيها مضروب لكل إنسان أوتي علماً ببعض آيات الله ، ولكنه لم يعمل بمقتضى علمه ، بل كفر بها ونبذها وراء ظهره وصار هو والجاهل سواء .

وقيل : إن الآيات الكريمة واردة في شخص معين ، واختلفوا في هذا المعين .

فبعضهم قال إنها في أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتاب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً وتعالى أن يكون هو هذا الرسول ، فلما أرسل الله - تعالى - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - حسده ومات كافراً .

وبعضهم قال : نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - ، الفاسق ، كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين بانخاذ مسجد الضرار والشقاق .

وبعضهم قال : إنها في منافق أهل الكتاب ، كانوا يعرفون صفه النبي - صلى الله عليه وسلم - وخرجوه ، فلما بعثه الله - تعالى - كفروا به .

وبعضهم قال : إنها نزلت لتحكي قصة رجل من علماء اليهود اسمه بلعم ابن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله ثم انسلخ منها بأن كفر بها ونبذها بعد أن رشاه اليهود .

والذي نراه أن الرأي الأول الذي عليه المحققون من المفسرين هو الراجح ، وأن هؤلاء الذين ذكروا يندرجون تحته ، لأنه لم يرد نص صحيح يعين

اسم الذي وردت الآيات في حقه ، فوجب أن نحملها على أنها واردة في شأن كل من علم الحق فأعرض عنه واتبع هواه .

ثم يعقب القرآن على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال من الله ، وأن هناك أقواماً من الجن والإنس قد خلقوا لجهنم بسبب إشارتهم طريق الشر على طريق الخير قال - تعالى - :

« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَتَقَدَّرَ أَنْ نَحْبَحَنَّهُمْ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) » .

قوله ، من يهد الله فهو المهتدي ، أي : من يوفقه الله - تعالى - إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدي حقاً ، الواصل إلى رضوان الله صدقاً .

، ومن يضل فأولئك هم الخاسرون ، أي : ومن يخذله سبحانه - بالخرمان من هذا التوفيق بسبب إثاره السير في طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان ، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وأفرد - سبحانه - المهتدي في الجملة الأولى مراعاة للفظ ، من ، وجمع الخاسرين في الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم .  
وحكمة إفراد المهتدي للإشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد ولا يتنوع ، وحكمة جمع الثاني وهو قوله ، الخاسرون ، للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال ، وتنوع وسائله وأساليبه .

وقوله ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن ، كلام مستأنف مقرر لمضمون

و الذرأ ، الخلق . يقال : ذرأ الله خلقه يذرأهم ذرماً ، أى : خلقهم .  
واللام فى د جهنم ، للمعاقبة والصيرورة .

أى : ولقد خلقنا للدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من الجن والانس  
وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها ، الذين علم الله منهم أزلاً  
إختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقهم فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك .

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيء فقال .  
« لهم قلوب لا يفقهون بها ، أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى المكالات  
مع أن دلائل الايمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المتفتحة ،  
والبصائر المستنيرة .

وجملة « لهم قلوب » فى محل نصب صفة أخرى لقوله « كثيراً » ، وجملة  
« لا يفقهون بها » فى محل رفع صفة لقلوب .

وقوله « لهم أعين لا يبصرون بها » ، أى : لهم أعين لا يبصرون بها مافى  
هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله ، مع أنها معروضة للأبصار  
مكتسوفة الأنظار ، فهم كما قال - تعالى - ، « وكأين من آية فى السموات  
والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » ، فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن  
بدون تأمل أو اعتبار ، فكأن وجودها وعدمه سواء .

وقوله « لهم آذان لا يسمعون بها » ، أى : لا يسمعون بها الآيات  
والمواعظ سماع تدبر وإعطاء ، أى أنهم لا ينتفعون بشئ من هذه الجوارح  
التي جعلها الله سبباً للهداية .

قال صاحب الكشاف : « هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف  
لهم : وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم  
إلى ما خلق الله نظر اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر  
كانهم عدموا فمهم القلوب ، وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم لإعراقهم

في الكفر وشدة شكائهم فيه ، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين  
للنار ، دلالة على توغلوهم في الموبقات ، وتوغلوهم فيما يؤهلهم لدخول النار ، (١).

وقوله : أولئك كالأنعام ، أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات  
الذكووة كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بشيء من هذه الجوارح التي جعلها  
الله سبيلاً للهداية .

وقوله : بل هم أضل ، تنقيص لهم عن رتبة الأنعام ، أى : بل هم أسوأ  
حالا من الأنعام ، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها  
أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي ، والعقل المدرك ، والعين  
المبصرة ، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال ، فإذا لم يفتح بصره  
وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعدادتها  
الفطرية .

وقوله : أولئك هم الغافلون ، أى أولئك المنعوتون بما ذكرهم الكاملون  
في الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم ، بسبب إستحواذ الهوى  
والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحداً .

وبعد أن بين - سبحانه - حال المخلوقين لجهنم بسبب غفلتهم وإعمالهم  
لعقولهم وحواسهم ، أعقبه ببيان العلاج الذي يشق من ذلك ، وبالتهنى عن  
اتباع المائلين عن الحق فقال - تعالى - :

« وَتِلْكَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي  
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وتلك الأسماء الحسنى فادعوه بها ، أمر  
بإخلاص العبادة لله - تعالى - ومجانبة الملحدين والمشركين . قال مقاتل وغيره

من المفسرين : نزلت الآية في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركي مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت ، (١) .

والأسماء : جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقاً كالرحمن ، والرحيم ، أو مصدرأ كالأرب والسلام .

والحسنى : تأنيث الأحسن أفعل تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها ، لأنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها .

والمعنى : والله - تعالى - وحده جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها .

روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر ، .

قال الألوسي : والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزت أسماؤه - في التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي في يدك ماض في حكمك ، عدل في قضايتك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وذهاب همي وجلاء حزني... الخ ، فهذا الحديث صريح في عدم الحصر .

وحكى النووي إتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصائها دخل الجنة ، وهو لا يتأني أن له - تعالى - أسماء غيرها ، (١)

ثم قال - تعالى - وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

ذروا : فعل أمر لم يرد في اللغة إستعمال ماضيه ولا مصدره ، وهو بمعنى التترك والإهمال .

ويلحدون من الإلحاد وهو الميل والانحراف ، يقال : ألحد إلحادا إذا مال عن القصد والاستقامة ، وألحد في دين الله : حاد عنه ؛ ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفره إلى جانبه بخلاف الضريح فإنه يحفر في وسطه .

والمعنى : والله - تعالى - أشرف الأسماء وأجلها فسموه بها أيها المؤمنون ، وأتركوا جميع الذين يلحدون في أسمائه - سبحانه - بالميل بالمفاظها أو معانيها عن الحق من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو ما ينافي وصفها بالحسنى أتركوا هؤلاء جميعا فإنهم سيلقون جزاء عملهم من الله رب العالمين .

ومن مظاهر إلحاد الملحدين في أسمائه - تعالى - تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة منها ، كالكالات : من الله - تعالى - ، والعزى : من العزيز ، ومناة : من المنان وتسميته - تعالى - بما بوهم معنى فاسدا ، كقولهم له - سبحانه - : يا أبيض الوجه كذلك من مظاهر الإلحاد في أسمائه - تعالى - ، تسميته بما لم يسم به نفسه في كتابه ، أو فيما صح من حديث رسوله ، إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون والضالون .

ثم تمضى السورة الكريمة في هديها وتوجيهها فتفصل صنوف الخلق ، وتمدح من يستحق المدح وتذم من يستحق الذم فنقول :

(١) تفسير الألوسی ج ٩ ص ١٢٣ .

« وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) » .

وقوله ، ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، معطوف على قوله ، ولقد ذرأنا ، قبل ذلك ، لأن كليهما تفصيل لإجمال قوله - تعالى - ، من يهد الله فهو المهتدي ، . . . .

أى : ومن خلقنا للجنة ، لأنه في مقابلة ، ولقد ذرأنا لهم ، أمة يهدون بالحق ، أى : يدعون إليه ويسيرون عليه ، وبه يعدلون أى : به يقضون وينصفون الناس .

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بهذه الأمة : الأمة المحمدية في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ، وفي رواية : ، حتى يأمر الله وهم على ذلك ، :

وقال قتادة : بلغنا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ هذا الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها .

وعن الربيع بن أنس - في هذه الآية - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل ، .

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الإجماع حجة في كل عصر ،  
وعلى أنه لا يخلو عصر من مجهد إلى قيام الساعة .

ثم ذكر - سبحانه - حال المكذبين فقال . « والذين كذبوا بآياتنا  
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، » .

الاستدراج : - كما قال القرطبي - هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة .  
والدرج لف الشيء ، يقال : أدرجته ودوجته . ومنه أدرج الميت في أكفانه .  
وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود .  
قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة ، (١) .

وقال صاحب الكشاف : الاستدراج : إستفعال من الدرجة بمعنى  
الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ، ومنه : درج الصبي إذا قارب بين  
خطوه ، وأدرج الكتاب . طواه شيئاً بعد شيء ، ودرج القوم : مات بعضهم  
في أثر بعض . ومعنى سنستدرجهم ، سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم  
ويضاعف عقابهم . « من حيث لا يعلمون ، ما يراد بهم . وذلك أن يواتر  
الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الفسق ، فكلما جدد عليهم نعمة ، ازدادوا بطرا  
وجددوا معصية ، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ، ظانين أن موآثرة  
النعم محبة من الله وتقريب . وإنما هي خذلان منه وتبديد ، فهو إستدراج  
من الله - تعالى - فهوذا بالله منه ، (٢) .

وقد قيل : إذا رأيت الله - تعالى - أزمم على عبد وهو مقيم على معصيته  
فاعلم أنه مستدرج .

وقوله : « وأمل لهم إن كيدى متين ، الإملاء : الإمداد في الزمن والإمهال

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٢٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٢ .

والتأخير ، مشتق من الملاوة والملوة ، وهي الطائفة الطويلة من الزمن .  
والملوان : الليل والنهار .

ويقال : أملى له إذا أمهله طويلا ، وأملى للبعير : إذ أرخى له في الزمام  
ووسع له في القيد ليتسع المرعى ،

والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع  
المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهي إلى ما يسوءه من مخبره وغايشه .  
وإضافته إلى الله - تعالى - يحمل على المعنى اللائق به ، كإبطال مكر أعدائه  
أو إمدادهم بالنعم ثم أخذهم بالعذاب .

ومتين : من المتانة بمعنى الشدة والقوة . ومنه المتن للظهر أو للحم الغليظ  
والمعنى . والذين كذبوا بآياتنا سنستدينهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم  
ويضعف عقابهم بكثرة النعم بين أيديهم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث  
لا يعلمون أن صنعنا هذا منهم هو لون من الإستدراج ، وأمهل هؤلاء  
المسكذبين المستدرجين في العمر ، وأمد لهم في أسباب الحياة الرغدة ، إن  
كيدى شديد متين لا يدافع بقوة ولا بحيلة . وفي الحديث الشريف الذي رواه  
الشيخان عن أبي موسى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن  
الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقوله « وأملى لهم » جوز بعضهم أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أى :  
وأنا أملى لهم . وقيل هو معطوف على قوله « سنستدرجهم » وقيل هو مستأنف

ثم أمر - سبحانه - هؤلاء الظالمين بالتفكير والتدبر فقال : « أولم  
يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة » ، إن هو إلا نذير مبين ،

الهمزة للأنكار والتوبيخ ، وهي داخلة على فعل حذف للعلم به من سياق  
القول ، والوال للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والجنة : مصدر كالجلسة بمعنى الجنون . وأصل الجن الستر عن الحاسة .

والمعنى: أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولم  
يتفكروا في أن كما ليس به أى شيء من الجنون ، بل دو أكمل الناس عقلاً ،  
وأسد رمياً ، وأنقام نفساً .

والتعبير : بصاحبهم للأيذان بأن طول مصاحبتهم له مما يطلعهم على  
نواهته عما إتهموه به ، فهو - صلى الله عليه وسلم - قد لبث فيهم قبل الرسالة  
أربعين سنة كانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين ، ويعرفون عنه اسمى ألوان  
الإدراك السليم والتفكير المستقيم .

قال الجمل: وجملته ما يصاحبهم من جنة ، في محل نصب معمولة ليتفكروا  
فهو عامل فيها محلاً لا لفظاً لوجود المعلق له عن العمل وهو ما التافية .  
ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله : أو لم يتفكروا ، ثم إبتداء  
كلاماً آخر إما استفهام إنكاري وإما نفي . ويجوز أن تكون : ما ، استفهامية  
في محل الرفع بالإبتداء والخبر بصاحبهم . والتقدير: أى شيء استقر بصاحبهم  
من الجنون ، (١) .

وقوله : إن هو إلا نذير مبين ، بيان لوظيفته - صلى الله عليه وسلم -  
أى : ليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون وإنما هو مبالغ في الإنذار ،  
عظير له غاية الإظهار . فهو لا يقصر في تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب ،  
ولا يتهاون في نصيحتكم وإرشادكم الى ما يصلح من شأنكم .  
ثم دعاء القرآن الى النظر والاستدلال العقلي فقال : : أو لم ينظروا في  
ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . . .

الملكوت : هو الملك العظيم زيدت فيه اللام والتاء للمبالغة كما في جبروت  
والجملته الكريمة مسوقة لتوبيخهم على إخلالهم بالتأمل في الآيات التكوينية  
أثر تفرغهم على عدم تفكيرهم في أمر نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ،

أى : أكذبوا ولم يبتفكروا فى شأن رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وما هو عليه من كل العقل ، ولم ينظروا نظر تأمل وإعتبار وإسه-تدلال فى ملكوت السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفى ملكوت الأرض من البحار والجبال والدواب وغيرها ، ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله مما يقع عليه لاسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف مما يشهد بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .

وقوله : من شيء ، بيان لما ، وفى ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض ، بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده .

وقوله : ، وأن عسى أن يكون قد إقتراب أجلهم ، فى محل جر معطوف على ما قبله ، و ، أن ، مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو ، أن يكون ، .

والمعنى : أو لم ينظروا - أيضا - فى إقتراب أجلهم ، وتوقع حلولها فيسارعوا إلى حاب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم ونزول العذاب بهم وهم أعمس حال .

لأنهم لو تفكروا فى أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولو نظروا فيما خلق الله من مخلوقات بعين التدبر والانتعاض ، لأمسوا وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .

وقوله : د فبأى حديث بعده يؤمنون ، أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو أكمل كتب الله بيانا ، وأقواها برهاننا ، فبأى كلام بعده يؤمنون ؟

والجمللة المكريمة مسوقة للتعجب من أحوالهم . واقطع أى أمل فى إيمانهم لأنهم ما داموا لم يؤمنوا بهذا الرسول المؤيد بالمعجزات ، وبهذا الكلام المصجز الجامع لكل ما يفيد الهداية ، فأحرى بهم ألا يؤمنوا بغير ذلك .

ثم عقب القرآن على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بقوله : « من يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ، .

أى : من يرد الله إضلاله يسبب اختياره للضلالة ، وصممه عن الاستماع للحق فلا قدرة لأحد على هدايته ، وهو - سبحانه - يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم متحيرين مترددين .

ثم بينت السورة الكريمة أن أمر الساعة مرده إلى الله - تعالى - ، وأن السائلين عن وقتها من الأحسن لهم أن يستعدوا لها بدل أن يكثروا من السؤال عن زمن مجيئها فقالت :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا بِرَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٧٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَمْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١٨) » .

قال الألوسي : عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإننا نعلم متى هي ، وكان ذلك امتحاناً منهم ، مع علمهم أن الله - تعالى - قد امتأثر بعلمها . وأخرج ابن جرير عن قتادة أن جماعه من قریش قالوا : يا محمد أسر لإينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة فنزلت ، (١) .

وتوله : ويسألونك عن الساعة أيان مرساها ، استئناف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم ،

والساعة في الأصل اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتطلق في عرف الشرع على يوم القيامة وهو المراد بالسؤال هنا .

وأطلق على يوم القيامة ساعة إما لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - ،

و د أيان ، ظرف زمان متضمن معنى متى . و د مرساها ، مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا في الشيء الثقيل كما في قوله - تعالى - و الجبال أرساها ، ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار تشبيهه المعاني بالأجسام . و د أيان د خبر مقدم و د مرساها ، مبتدأ مؤخر .

والمعنى : يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيان مرساها ؟

أي متى إرساؤها واستقرارها ، أو متى زمن مجيئها وحصولها ؟

وقوله د قل إنما علمها عند ربي ، جواب عن سؤالهم : أي : قل أيها الرسول الكريم : علم الساعة أو علم قيامها عند ربي وحده ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه .

والتعبير بإنما المفيد للحصر للاشعار بأنه - سبحانه - هو الذي استأثر بعلم ذلك ولم يخبر أحدا به من ملك مقرب أو نبي مرسل .

وقوله د لا يجليها لوقتها إلا هو ، بيان لاستمرار إخفائها إلى حين قيامها وإقنات كل من إظهار أمرها بطريق الإخبار .

والتجلية : الكشف والإظهار . يقال : جلى لي الأمر وانجلي وجلاه تجلية بمعنى : كشفه وأظهره أقم الإظهار .

والمعنى : لا يكشف الحجاب عن خفائها ، ولا يظهرها للناس في الوقت الذي يختاره إلا الله وحده .

قال بعضهم : والسبب في إخفاء الساعة عن العباد لكي يكونوا دائماً على حذر ، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية ، فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها .

ثم عظم - سبحانه - أمر الساعة فقال : ثقلت في السموات والأرض ، أي : كبرت أو شقت على أهلها لخرفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وعن السدي : أن من خفي عليه علم شيء كان ثقيلاً عليه .  
أو المعنى : ثقلت عند الوقوع على نفس السموات حتى إنشقت وانثرت نجومها وكورت شمسها ، وعلى نفس الأرض حتى سيرت جبالها ، وسجرت بحارها ، وقوله : لا تأنيكم إلا بغتة ، أي : لا تأنيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا إنتظار .

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أي ناقته ذات اللبن - فلا يطعمه ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه - أي يظليه بالخص أو الطين - فلا يسقى فيه . ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكله إلى فمه فلا يطعمها .

ثم قال - تعالى - : يسألونك كأنك حقي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أي : يسألونك يا محمد هذا السؤال كأنك حقي عنها أي : كأنك عالم بها . من حقي عن الشيء إذا بحث عن تعرف حاله بتتبع واستقصاء ومن بحث عن شيء وسأل عنه استحكّم عليه به ، وعدي د حقي ، بمن اعتباراً لأصل معناه ،

قال صاحب الكشاف : « كأنك حفي عنها عالم بها . وحقيقته كأنك  
يلبغ في السؤال عنها ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء . والتنقيح عنه .  
استحكم علمه فيه ورصن - أي ثبت وتمكن - ، وهذا التركيب معناه المبالغة  
ومنه اخفاء الشارب ، واحتماء البقل ، استئصاله ، وأحفي في المسألة إذا ألحف  
- أي ألح وتشدد - وحفي بفلان وتحفي به : بالغ في البريه . . وقيل : أن قریشا  
قالت له ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقل يسألونك عنها كأنك  
حفي تحفي بهم فتختصمهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوي علمها عن غيرهم ،  
ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في أخبارك به ، لكنت مبلغه القريب  
والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما أوحى اليك .

ثم قال : فإن قلت : أم كرر يسألونك وإنما علمها عند الله ؟ قلت : للتأكيد  
ولما جاء به من زيادة قوله « كأنك حفي عنها ، وعلى هذا تكرير العلماء  
والحذاق ، (١) .

وقال صاحب الانتصاف : وفي هذا النوع من التكرير فيمكنه لا تلقى الا  
في الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذلك أن الممهود في أمثال  
هذا التكرار أن الكلام إذا بني على مقصد واعترض في أثناءه عارض فأريد  
الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل  
نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتي ، وهذا منها  
فإنه لما ابتدأ الكلام . بقوله « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، ثم  
اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله « قل إنما علمها عند ربي ، إلى قوله  
« بفترة ، أنيد تميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن  
في قوله « كأنك حفي عنها » وهو شديد التعليق بالسؤال وقد يعد عهده ،  
فطرى ذكره نظرية عامة ، ولا نراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال

كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فن ثم قيل  
« يسألونك ، ولم يذكر المسئول عنه وهو الساعة ، اكتفاء بما تقدم ، فلما  
كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : « قل إنما عليها  
عند الله ، وبلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه ، (١) .

هذا ، وإذا كان علم الساعة مرده إلى الله وحده ، فإن هناك نصوصاً من  
الكتاب والسنة تحدث عن أماراتها وعلاماتها ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها . فأنى  
لهم إذا جاءتهم ذكراهم ، .

والأشراط : جمع شرط - يفتح الشين والزاء - وهي العلامات الدالة على  
قربها ، وأعظم هذه العلامات بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ بها كمل الدين  
وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول :  
« بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويفرج بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

وفي حديث جبريل المشهور أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن  
الساعة ، فقال له ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها :  
« إذا ولدت الأمة ربها - أي سيدها - ، وإذا تطاول رعاها الإبل  
في البنيان ، .

ومن علامات الساعة - كما صرحت بذلك الأحاديث - قبض العلم ، ففي  
الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :  
« إن الله لا يقبض العلم إنزاعاً ينتزعه من العباد ، ولا يكن يقبض العلم بقبض

علماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم ضلوا وأضلوا ، ومنها - أى من علامات الساعة - كثرة الزلازل ، وتقارب زمان - أى فلة البركة فى الوقت بحيث يمر الشهر كأنه أسبوع - ، وظهور الفتن كثرة الهرج - أى القتل إلى غير ذلك من العلامات التى وردت فى الأحاديث نبوية ، وقد ساق بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن كثير جملة منها (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يبين للناس أن كل لأمر بيد الله - تعالى - ، وأن علم الغيب كله مرجه إليه - سبحانه - فقال : **د قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، أى : لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ا ولا دفع ضرر ما .**

وقوله ، **لنفسى ، متعلق بأملك .** أو محذوف وقع حالا من **د نفعا ، المراد : لا أملك ذلك فى وقت من الأوقات .**

وقوله **د إلا ما شاء الله ،** إستثناء متصل . **أى لا أملك لنفسى نفعا لا ضرا فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله بأن يمكنى من ذلك ، فى حينئذ أملكه بمشيئته .**

وقيل الإستثناء منقطع ، **أى لكن ما شاء الله من ذلك كائن .**

وقوله ، **د ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ،** : لمكانت حالى - كما قال الزمخشرى - على خلاف ما هى عليه من استكثار الخير ، واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمضى شئ منها ، **أ** كُن غالباً مرة ومغلوباً أخرى فى الحروب ، وربحاً وخاسراً فى التجارات بصيباً ومخطئاً فى التدابير ، (٢) .

قال الجمل : **فان قلت : قد أخبر - صلى الله عليه وسلم - عن المغيبات وقد جاءت أحاديث**

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) تفسير السكشاف ج ٢ ص ١٨٥ .

في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته فكيف بينه وبين قوله - تعالى -  
« ولو كنت أعلم الغيب ... الخ ، ؟ قلت : يحتتمل أنه قاله على سبيل التواضع  
والآداب ، والمعنى : لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي .

ويحتتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله على علم الغيب . فلما أطلعا  
الله أخبر به كما قال « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من  
رسول ، أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ، ثم بعد  
ذلك أظهره -- سبحانه -- على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك  
معجزة له ودلالة على صحة نبوته (١) .

ثم بين القرآن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قوله « إنا  
إنا إنا نذير وبشير لقوم يؤمنون ، أي : ما أنا إلا عبد أرسلني الله نذير  
وبشيراً ، وليس من مهمتى أو وظيفتى معرفة علم الغيب .

وقوله « لقوم يؤمنون ، يجوز أن يتعلق بقوله « نذير وبشير ، جميعاً لأن  
المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، ويجوز أن يتعلق بقوله « بشير  
وحده ، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أي : للكافرين . وحذف للعلم به :

وبهذا الإعلان من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس عن  
وظيفته ، تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق من الشرك  
في أية صورة من صوره ، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها فيها بشر  
ولو كان هذا البشر محمداً - صلى الله عليه وسلم - فعند عتبة الغيب تقف الطاقة  
البشرية ، ويقف العلم البشري ، وتقف القدرة البشرية ، إذ علم الغيب إنما هو  
الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن مظاهر قدرة الله وأدلة وحدانيته ، فذكرت

س بمبدأ نشأتهم ، وكيف أن بعضهم قد انحرف عن طريق التوحيد إلى طريق  
رك ، وسأقت ذلك في صورة القصة لضرب المثل من واقع الحياة فقالت :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا  
سُكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَشَاحَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ،  
ثُمَّ أَتَقَلَّتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لِنُكُونَنَّ مِنْ  
نَاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا  
بِأَلِي اللَّهِ عَمَّ يَشْرِكُونَ (١٩٠) » .

قوله - تعالى - « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها  
سكن إليها ، لاستئناف مسوق لبيان ما يقتضيه التوحيد الذي هو المقصد الأعظم .

أى . إن الذي يستحق العبادة والخضوع ، والذي عنده مفاتيح الغيب هو  
الذي خلقكم من نفس واحدة هي نفس أبيكم آدم ، وجعل من نوع هذه  
نفس وجنسها زوجها - حواء ، ثم انتشر الناس منهما بعد ذلك كما قال  
تعالى - « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق  
بها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .

وفوله « ليسكن إليها ، أى : ليطمئن إليها ويميل ولا ينفرد ، لأن الجنس  
، الجنس أميل وبه آنس . وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ،  
يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه بحية نفسه لكونه بضعة منه .

فالأصل في الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والانس والاستقرار  
بذه نظرة الاسلام إلى تلك الحياة قال - تعالى - « ومن آياته أن خلق  
كم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والضمير المستكن في « يسكن » يعود إلى النفس ، وكان الظاهر تأنيبه لأن  
نفس من المؤنثات السماعية ولذا أنثت صفتها وهي قوله « واحدة » ، إلا أنه

جاء مذكرا هنا باعتبار أن المراد من النفس هنا - آدم عليه السلام - ولو أنثى  
على حسب الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأنثى ، فكان التذكير كما يقول  
الزمخشري - أحسن طابقا للمعنى .

وقوله ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به .

التغشاء : غطاء الشيء الذى يستقره من فوقه ، والغاشية ؛ الظلة التى تظل  
الإنسان من سحابة أو غيرها . والتغشى كناية عن الجماع . أى فلما تغشى  
الزوج الذى هو الذكر الزوجة التى هى الأنثى وتندرهما لقضاء شهوتهما حملت  
حملا خفيفا . أى : حملت منه محمولا خفيفا وهو الجنين فى أول حملها لا نجد المرأه  
له ثقلا لأنه يكون نطفة ثم مضغة ، ولا ثقل له يذكر فى تلك الأحوال ، فمرت  
به ، أى : فضت به إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إسقاط . أو المعنى  
فاستمرت به كما كانت من قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت من غير  
مشقة وتلك هى المرحلة الأولى من مراحل الحمل .

وتأمل معى - أيها القارى الكريم - مرة أخرى قوله - تعالى : فلم  
تغشاها حملت حملا خفيفا . . . ، انرى سمو القرآن فى تعبيره ، وأدبه فى  
عرض الحياتق . إن أسلوبه يلفظ ويدق عند تصوير العلاقة بين الزوجين  
فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة تناسب مع جو السكن والمسودة بين  
الزوجين وتنسق مع جو السر الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة  
بين الرجل والمرأة ، ولا محذ كناية تؤدى هذه المعانى أفضل من كلمة  
تغشاها . .

ثم تأنى المرحلة الثانية من مراحل الحمل فيعبر عنها القرآن بقوله : فلما  
أنفلت دعوا الله ربهما لمن آتيتما صالحا لتسكونن من الشاكرين ، .

أى : فحين صارت ذات ثقل بسبب نمو الحمل فى بطنها ، فالهمزة للصيرور  
كقولهم : أنمر فلان وألبن أى : صار ذا تمر ولبن .  
أى : وحين صارت الأم كذلك وتبين الحمل ، وتعلق به قلب الزوجين ، توهم

لي ربهما يدعوانه بضراعه وطمع بقولها : د اثن آتيناصالحاء،أى لئن أعطيتنا .  
سلا سويا تام الخلقه ، يصلح للأعمال الإنسانية النافعة لنكونن من الشاكرين .  
ك على نعمائك التي من أجلها هذه النعمة واستجاب الله الزوجين دعاهما ،  
زقهما الولد الصالح فإذا كانت النتيجة ؟ .

لقد كانت النتيجة عدم الوفاء لله فيما عاده عليه ، ويحكي القرآن ذلك  
قول : فلما آتاها صالحا جملا له شركاء فيما آتاها ، أى : فحين أعطاهما  
سبحانه - الولد الصالح الذي كانا يتمنيانه ، جعلنا الله - تعالى - شركاء  
هذا العطاء ، وأخلا بالشكر في مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث  
مبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان ، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعيون  
إلى غير ذلك مما يقنأني مع إفراد الله - تعالى - بالعبادة والشكر .

وقوله : فتعالى الله عما يشركون ، تنزيه فيه معنى التعجب من أحوالهم .  
: تنزه - سبحانه - وتقديس عن شرك هؤلاء الأغبياء الجاحدين الذين  
ابلون نعم الله بالإشراك والكفران .

والضمير في : يشركون ، يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء  
، والمحققون من العلماء يرون أن هاتين الآيتين قد سيقنا توبيخا للشركين  
بث أن الله - تعالى - أنعم عليهم بخلقهم من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم  
، أنفسهم ليأنسوا بهم ، وأعطاهم الذرية ، وأخذ عليهم الدمود بشكره على  
ه النعم ، ولكنهم جحدوا نعمه وأشركوا معه في العبادة والشكر آلهة  
رى : فتعالى الله عما يشركون .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بهذا السياق آدم وحواء ، واستدلوا على  
ك بما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما  
ف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش  
مته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره .

وقد أثبت ابن كثير في تفسيره ضعف هذا الحديث من عدة وجوه ،  
ثم قال : قال الحسن : عنى الله - تعالى - بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم  
بعده ، وقال قتادة : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً  
فهم دوا ونصروا . قال ابن كثير : وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت  
عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من  
هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال  
« فتعالى الله عما يشركون (١) » .

وقال صاحب الانتصاف : والأسلم والأقرب أن يكون المراد - والله أعلم -  
جنسى الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين . وكان المعنى خلقكم جنساً واحداً ،  
وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما نفى الجنس الذى  
هو الذكر ، الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت  
وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون على حد  
قولهم « بنو فلان قتلوا قتيلاً » ، يعنى من نسبة البعض إلى الكل (١) .

والذى نراه أن الآيتين واردتان فى توبيخ المشركين على شركهم ونقضهم  
لعهودهم مع الله - تعالى - لأن الأحاديث والآثار التى وردت فى أنهما وردتا  
فى شأن آدم وحواء لتسميتهما ابنيهما بعبد الحارث أتباعاً لوسوسة الشيطان  
لهما ليست صحيحة ، كما أثبت ذلك علماء الحديث .

ثم أخذت السورة بعد ذلك فى توبيخ المشركين ، وفى إبطال شركهم  
بأسلوب منطقي حكيم فقالت :

« أَيَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) الانتصاف على الكشاف ج ٢ ص ١٨٦ لابن المنير - بتصرف يسير -

لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى  
لَا يَتَّبِعُواكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَاكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)  
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا  
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُ  
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا ، تَلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (١٩٥)  
إِنَّ وَايَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)  
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ  
يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ  
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) .

قوله - تعالى - « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، أيشركون به - تعالى - وهو الخالق لهم وليس كل شيء ، ما لا يخلق شيئاً »  
الأشياء مهما يكن حقيراً ، بل إن هذه الأصنام التي تعبد من دون الله مخلوق  
ومصنوعة ، فكيف يليق بسليم العقل أن يجهل المخلوق العاجز شريراً  
للخالق القادر .

والاستفهام الإنكار والتجويل . والمراد بما في قوله « ما لا يخلق شيئاً »  
أصنامهم ، ورجع الضمير إليها مفرداً لرعاية لفظها ، كما أن إرجاع ضمير الجاه  
إليها في قوله « وهم يخلقون » ، لرعاية معناها .

وجاء بضمير العقلاء في « يخلقون » ، مسaire لهم في اعتقادهم أنها تنصرف  
ثم قال - تعالى - : « ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون »  
أى : أن هذه الأصنام فضلاً عن كونها مخلوقة ، فانها لا تستطيع أن تنجوا

لعابديها نصرأ على أعدائهم ، بل إنما لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً ،  
ومن هذه صفته كيف يعبد من دون الله ؟ قال - تعالى - وإن الذين تدعون من  
من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلمهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه  
منه ضعف الطالب والمطلوب .

ثم بين - سبحانه - عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر  
وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله لطالب فقال : ، وإن ندعوهم  
إلى الهدى لا يتبعوكم ، أى : وإن تدعو أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى  
والرشاد لا يتبعوكم ، أى أنهم لا ينفعوكم بشيء ولا ينتفعون منكم بشيء .

وقوله ، سواء عليكم أذعوتهم أم أنتم صامتون ، استئناف مقرر  
لمضمون ما قبله .

أى : مستو عندهم دعاؤكم لإياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لا يتغير حالكم  
في الحالين ، كما لا يتغير حالهم بحكم أنهم جماد .

ثم مضى القرآن في دعوته لإياهم إلى التدبر والتعقل فقال : وإن الذين  
تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، .

أى : أن هذه الأصناف التي تعبدونها من دون الله ، أو تنادونها لدفع الضرر  
أو جلب النفع ، عباد أمثالكم ، أى : مماثلة لكم في كونها مملوكة لله مسخرة  
مذلة لقدرته كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تنادونها ؟

وأصلق عليها لفظ ، عباد ، مع أنها جماد وفق اعتقادهم فيها تبكيثهم  
وتوبيختها .

وقوله ، فادعواهم فليستجيبوا لكم ، تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم  
وتبكيثهم أى : فادعواهم في رفع ما يصيبكم من ضرر ، أو في جلب ما أنتم في  
حاجة إليه من نفع ، إن كنتم صادقين ، في زعمكم أن هذه الأصنام قادرة  
على ذلك .

ثم تابع القرآن تقريره لهذه الأصنام وعابديها فقال : اللهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها .

الاستفهام للإنكار ، والمعنى : أن هذه الأصنام التي تزعمون انها تقربكم إلى الله زلفى هي أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التي هي مناط الكسب لأنها ليس لها أرجل تسمى بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لها أيد تطش بها أى تأخذ بها ما تريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله - تعالى - من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضل ، وكيف يتقاد الأقرى للأضعف ؟

ثم أمر الله - تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يناصبهم المحاجة وأن يكرر عليهم التوبيخ فقال : قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تظنن ، أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين هبطوا بعبوهم إلى أحط المستويات نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى وإلحاق الضرر من غير انتظار أو إهمال ، فإني أنا معتر باالله ، وملتجى إلى حماه ومن كان كذلك فلن يخش شيئا من المخلوقين جميعا .

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم والخط من شأنهم وشأن آلهتهم .

ثم بين لهم الأسباب التي دعتهم إلى تحديهم وتبكيبتهم فقال : إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ،

أى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين إننى ما تحديتكم وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم - إن كنتم أنتم وهم تقدررون على ذلك على سبيل الفرض - إلا

لأن معني باقته وحده ، فهو ناصري ومتولى أمرى ، وهو الذى نزل هذا القرآن  
لأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يتولى  
الصالحين وأن يجعل العاقبة لهم .

قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول - صلى الله  
عليه وسلم - بألتهنهم فقال - تعالى - دقل ادعوا شركاءكم ... الآية - ليظهر  
لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضار إلى بوجه من الوجوه . وهذا كما قال  
هود - عليه السلام - لقومه رداً على قولهم . دإن نقول إلا اعتراك بعض  
آلتهنا بسوء - قال : إني أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من  
دونه فمكيدون جميعاً ثم لا تنظرون . . . . .

ثم قال - تعالى - د والذين تدعون من دونه الله لا يستطيعون نصركم  
ولا أنفسهم ينصرون ، أى : والذين تعبدونهم من دونه الله أو تنادونهم لدفع  
الضرر أو جلب النفع لا يستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور ، وفضلاً  
من ذلك فهم لا يستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا ما اعتدى عليهم ممتد .

ثم قال - تعالى - د وإن تدعوم إلى الهدى ، أى : إلى أن يرشدوكم  
إلى ما تحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك د لا يسمعوا ،  
أى : لا يسمعوا شيئاً مما تطلبونه منهم ، ولو سمعوا - على سبيل الفرض -  
ما استجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شىء .

وقوله د وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، بيان لعجزهم عن الإبصار  
بعد بيان عجزهم عن السمع ، أى : وترى هذه الأصنام كأنها تنظر إليك  
بواسطة تلك العيون الصناعية التى ركبت فيها ولكنها فى الواقع لا تبصر  
مخلوها من الحياة .

وبذلك تكون هذه الآيات السكريمة قد وبخت المشركين وألتهنهم أعظم  
توبيخ ، وأثبتت بالادلة المنطقية الحكيمة ، وبن سائلا الحسن والمشاهدة أن هذه

الأصنام لإتباعك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ، وأن الذين قالوا في شأنها ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ، هم قوم غافلون جاهلون ، قد هبطوا بهبوطهم إلى أحط الدرجات ، لأنهم يتقربون إلى الله زلفى عن طريق ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفتنى عنهم شيئاً ، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه .

وفي الوقت نفسه فالآيات دعوة قوية لسلك عاقل إلى أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد القهار .

ثم تتجه السورة الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق فتقول .

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) » .

العفو : يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه ، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه .

أى : خذ ماعفاً وسهلاً وتيسر من أخلاق الناس ، وأرض منهم بما تيسر من أعمالهم وتسهل من غير كلفة . ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا ، وكن ليناً رقيقاً في معاملة أتباعك ، فإنك لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، وأمر بالعرف ، أى : مر غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال ، وهو كل ما عرف حسنه في الشرع ، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير ، فإن النفوس حين تتعرد الخير الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ، يسلس قيادها ، ويسهل توجيهها .

« وأعرض عن الجاهلين ، الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والمكلمات فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء لأن الرد على أمثال هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدي إلى خير ، ولا تنتهى إلى نتيجة . والسكوت عنهم احترام للنفس ، واحترام للقول ، وقد يؤدي الإعراض عنهم إلى تدليل نفوسهم وترويضها .

وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق  
فهي تتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهي طريق قويم لكل ما يتطلبه  
الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار ، وقد جاءت في أعقاب حديث طويل عن  
أدلة وحدانية الله - تعالى - وإبطال الشرك والشركاء ، لكي تبين للناس في كل  
زمان ومكان أن التحلي بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله  
الواحد الأحد ، الفرد السمد .

قال المقرطبي : هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة  
في المأمورات والمنهيات .

فقوله « خذ العفو » دخل فيه صلة القاطمين والعفو عن المذنبين ، والرفق  
بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله « وأمر بالعرف »  
صلة الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد  
لدار القرار .

وفي قوله « وأعرض عن الجاهلين » الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض  
عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجملة الأغبياء ، وغير  
ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة ، (١) .

ثم يرشد القرآن المسلمين في شخص الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -  
إلى ما بهدى غضبهم وبطفي . ثورهم فيقول :

« وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ  
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هم مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ  
لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) » .

النزغ والنخس والنرد بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا  
ونحوها في الجلد .

أى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تشير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرت به من أخذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلین ، فالتجىء إلى الله ، واستعن بحماه ، فإنه - سبحانه - سميع ادعائك ، عليم بكل أحوالك . وهو وحده الكفيل بهرف وسوسة الشياطين عنك ، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم .

ثم بين - سبحانه - حالة المتقين فقال : إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، .

طائف من الطواف والطواف بالشىء أى : الاستدارة به أو حوله . يقال : طاف بالشىء إذا دار حوله . والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته .

أى : إن الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما يفضبه إذا مسهم شىء من وسوسة الشيطان ونزغاته التى تلهيهم عن طاعة الله ومراقبته ، تذكروا أى : تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان فمادوا سريعا إلى طاعة الله ، وإلى خوف مقامه ونهى أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين .

والجملۃ الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين ، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالین .

وفى قوله : إذا مسهم طائف ، إشعار بعلو منزلتهم ، وقوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وسواس الشيطان أو بمجرد أن يمسهم شىء منه فإنهم يندكرون عداوته ، فيرجعون سريعا إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه .

وفى التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فإنها لا تؤثر فيهم ، لأنها كأنها طافت حولهم دون أن تصل إليهم . وقوله : فإذا هم مبصرون ، أى : فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ، وخطوات الشيطان ، فينتهون عنها .

وفي هذه الآية الكريمة ما يهدى العقول ، ويطلب النفوس ، إذ هي تبين لنا أن مس الشيطان قد يغلُق بصيرة الإنسان عن كل خير ، ولكن التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة ، وهي التي تجعل الإنسان دائماً يقظاً متذكراً لما أمره الله به أو نهاه عنه ، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته ، وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ونقاء وكشفاً .

أما الذين لم يتقوا الله ، ولم يلجأوا إلى حماه ، ولم يخالفوا الشيطان فقد عبر عنهم القرآن بقوله : « وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » . يمدونهم من الهدى ، وهو الزيادة يقال : مده يمه أي : زاده ، والغى : الضلال ، مصدر غوى بغوى غيا وغواية .

أي : وإخوان الشياطين من المشركين والغافلين تزيدم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بإرتكاب المعاصي والموبقات ، ثم لا يقصرون ، أي : ثم لا يكف هؤلاء الشياطين عن إمداد أو ليااتهم من الإنس بالوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم . ويجوز أن يعود الضمير لإخوانهم : أي ثم لا يكف هؤلاء الناس عن الغي والضلال مهما وعظيهم الواعظون وأرشدهم المرشدون .

و « يقصرون ، من أقصر عن الشيء . إذا كف عنه ونزع مع القدرة عليه ، ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غوايتهم وضلالهم فقال :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ، هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) » .

الاجتباء : افتعال من الجباية بمعنى الجمع ، يقال : جابت السماء في الحوض

والمعنى : وإذا لم تأت أيها الرسول هؤلاء المشركين بآية من القرآن وتراخى الوحي بنزولها ، أو بآية مما اقترحوه عليك من الآيات السكونية ، إذا لم تفعل ذلك قالوا لك بجهالة وسفاهة ، لولا اجتبيتها ، أى : هلا جمعتها من عند نفسك واخترتها اختراعاً بمقلك ، أو هلا ألححت في الطلب على ربك ليعطيك إياها ويجمعها لك .

قل لهم يا محمد على سبيل التبيكيت رداً على تهكمهم بك ، إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي ، أى إنما أنا متبع لا مبتدع فأي حيه الله إلى من الآيات أما أبلغه إليكم بدون تغيير أو تبديل .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى أن هذا القرآن هو اعظم المعجزات ، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات فقال : . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . .

أى : هذا القرآن بمنزلة البصائر للقلوب ، به تبصر الحق . وتدرك الصواب وهو هداية لحكم من الضلالة ، ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون به ، ويعملون بإرشاداته ووصاياه .

وكما افتتحت السورة بالثناء على القرآن ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكري للمتؤمنين ، فقد أتجمت في أواخرها إلى أمر الناس بحسن الاستماع إلى هذا القرآن ، وإلى تدبره والعمل به فقالت :

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) » .

أى وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبر وخشوع ، وأصغوا إليه بأسماعكم وكل جوارحكم لتفهموا معانيه ، وتفقهوا توجيهاً ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى تعظيماً له ، وإكباراً له ، لكي تفوزوا برحمة الله ورضاه .

وبعض العلماء يحمل القراءة في الآية على القراءة خلف الإمام في الصلاة،  
أى أن على المؤتم أن يستمع إلى قراءة الإمام بتدبر وخشوع ، واستدلوا على  
ذلك بأحاديث في هذا المعنى . وبعضهم يحمل الآية عامة في وجوب الاستماع  
إلى قراءة القرآن بتدبر وإنصات وخشوع في الصلاة وفي غير الصلاة وحملوا  
الأحاديث التي أوردتها أصحاب الرأى الأول على العموم أيضاً .

والذى نراه أن الآية تأمر بوجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن  
في الصلاة وفي غير الصلاة ، لأن تعاليم الإسلام وآدابه تقتضى منا أن نستمع  
إلى القرآن بتدبر وإنصات وخشوع ، ليؤثر تأثيره الشافى في القلوب ، ويقودها  
إلى الطاعة والتقوى ، فتنال المغفرة والرحمة .

ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن ذكر الله الذى هو طاب القلوب  
ودواؤها وعافية الأبدان وشفاؤها فقالت :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ  
بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ  
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) » .

أى : استحضر عظمة ربك - جل جلاله - فى قلبك . واذكره بما يقربك  
إليه عن طريق قراءة القرآن والدعاء والنسبج والتحميد والتهليل وغير ذلك .  
وقوله « تضرعا وخيفة » ، فى موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أى . اذكره  
متضرعا متذللا له وخائفا منه - سبحانه - :

وقوله « ودون الجهر من القول » ، معطوف على قوله « فى نفسك » ، أى :  
اذكر ربك ذكرا فى نفسك ، وذكرا بلسانك دين الجهر .  
والمراد بالجهر : رفع الصوت بإفراط ، وبما دونه مما هو أقل منه ، وهو  
الوسط بين الجهر واللين .

وقوله ، بالفدو والآصال ، متعلق باذكار ، والغدو جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .  
والآصال جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب .

أى : اذكر ربك مستحضرا عظمته ، فى كل وقت ، وراقبه فى كل حال ، لا سيما فى هذين الوقتين لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا برعاية ربه .

قيل : وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد ، وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاس .  
ثم نهى - سبحانه - عن الغفلة عن ذكره فقال : ، ولا تكن من الغافلين ، الذين شغلهم الدنيا عن ذكر الله .

وفيه إشعار بطلب دوام ذكره - تعالى - واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية .

قال بعض العلماء : ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن للذكر آدابا من أهمها :

١ - أن يكون فى النفس لإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

٢ - أن يكون على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير .

٣ - أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المواخذه على التقصير فى العمل لتخشع النفس ويخضع القلب .

٤ - أن يكون دون الجهر لأنه أقرب إلى حسن التفكير ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار .

فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - يا أيها الناس : أربعوا على أنفسكم - أي هونوا على أنفسكم - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذين تدعونهم سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، .

٥ - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله « ودون الجهر ، لأن معناه ومتساكماً كلاًهما دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة ، معطوفاً على « تضرعاً ، أو هو معطوف على « في نفسك ، أي : اذكره ذكراً في نفسك وذكراً بلسانك دون الجهر (١) .

ثم ذكر - سبحانه - ما يقوى دواعى الذكر ، وينهض بالهمم إليه ، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : إن الذين عند ربك ، وهم ملائكة الملائكة الأعلى . والمراد بالعندية القرب من الله - تعالى - بالزلفى والرضا لا المسكانية لتنزهه - سبحانه - عن ذلك .

« لا يستكبرون عن عبادته ، بل يؤدونها حسبما أمروا به بخضوع وطاعة » ويسبحونه ، أي : ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله على ابلغ وجه .  
« وله يسجدون ، أي : يخصونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع ، ولا يشركون معه أحداً في عبادة من عباداتهم .

أما بعد : فهذه هي سورة الأعراف التى سميت بنا سبحانه طويلاً وهى تحدثنا عن أدلة وحدانية الله ، وعن هداية القرآن الكريم ، وعن مظاهر نعم الله على خلقه ، وعن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وعن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء الأقسام ، وعن سنن الله - تعالى - فى إسماعد الأمم وإشقاتها ، وغير ذلك من أصول التشريع وآداب الاجتماع ، وشئون البشر ...

وقد استعملت السورة فى أوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أساليب التذكير

بالنعم ، والتخويف من النقم ، وإيراد الحجج المقنعة ، ودفن الشبهات  
الفاصلة . . .

وهذا تفسير لها تناولنا فيه بالشرح والتحليل ما اشتملت عليه من توجيهات  
سامية ، وآداب عالية ، ومقاصد جليلة ، وحجج باهرة ، ومواعظ مؤثرة .  
والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، ونافعا لنا  
يوم الدين .

والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله  
وصحبه وسلم .

---

## فهرس

### لجمالى لتفسير سورة الاعراف

رقها	الآية المفسرة	ص	رقها	الآية المفسرة	ص
	المقدمة	٣			
١	المص ...	١٠			
٢	كتاب أنزل إليك ..	١١			
٣	اتبعوا ما أنزل إليكم	١٢			
٤	وكم من قرية ...	١٣			
٥	فما كان دعواهم ...	١٤			
٦	فلتسألن الذين ...	١٥			
٧	فلنقصن عليهم بعلم ..	١٦			
٨	والوزن يومئذ الحق ..	١٧			
٩	ومن خفت موازينه ..	١٩			
١٠	ولقد مكناكم فى الأرض	٢١			
١١	واقعد خلقناكم ثم ..	٢٢			
١٢	قل ما منعك ...	٢٤			
١٣	قال فاهبط منها ...	٢٥			
١٤	قال أنظرنى إلى ...	٢٦			
١٥	قال إنك من ...	٢٧			
١٦	قال فيها أغويتنى ...	٢٨			
١٧	ثم لا يؤمنهم ...	٢٩			
١٨	قال اخرج منها ...	٣٠			
١٩	ويا آدم أسكن ...	٣١			
٢٠	فوسوس لها الشيطان	٣٢			
٢١	وقاسمهما لئلا يكفرا	٣٣			
٢٢	فدلاهما بغرور ...	٢٤			
٢٣	قالا ربنا ظلمنا ...	٢٥			
٢٤	قال اهبطوا بعضكم	٢٥			
٢٥	قال فيها تحيون ...	٢٥			
٢٦	يا بنى آدم قد أنزلنا ..	٢٦			
٢٧	يا بنى آدم لا يفتنكم	٢٧			
٢٨	وإذا فعلوا فاحشة ..	٢٨			
٢٩	قل أمر ربي بالقسط ..	٢٩			
٣٠	فريقا هدى وفريقا ..	٣٠			
٣١	يا بنى آدم خذوا زينتكم	٣١			
٣٢	قل من حرم زينة الله ..	٣٢			
٣٣	قل إنما حرم ربي ..	٣٣			
٣٤	ولسكل أمة أجل ..	٣٤			
٣٥	يا بنى آدم إنا ياأئمنكم	٣٥			
٣٦	والذين كذبوا بآياتنا	٣٦			
٣٧	فن أظلم من افترى ..	٣٧			
٣٨	قال ادخلوا فى أمم ..	٣٨			
٣٩	وقالت أولام لأخراهم	٣٩			
٤٠	إن الدين كذبوا بآياتنا	٤٠			
٤١	لهم من جهنم مهاد ..	٤١			
٤٢	والذين آمنوا وعملوا	٤٢			
٤٣	ونوغيها ما فى صدورهم	٤٣			

رقمها	الآية المفسرة	ص	رقمها	الآية المفسرة	ص
٧١	قال قد وقع عليكم	٩٥	٤٤	ونادى أصحاب الجنة	٥٤
٧٢	فأجيئناه والذين	٩٦	٤٥	الذين يصدون عن	٥٥
٧٣	وإلى نمرود أخاهم	٩٧	٤٦	وبينهما حجاب	٥٦
٧٤	واذكروا إذ جعلكم	٩٨	٤٧	وإذا صرفت أبصارهم	٥٨
٧٥	قال الملأ الذين	٩٩	٤٨	ونادى أصحاب الأعراف	٥٩
٧٦	قال الذين استكبروا	١٠٠	٤٩	أهؤلاء الذين أقسمتم	٦٠
٧٧	فمقروا الناقة	١٠١	٥٠	وفادى أصحاب النار	٦١
٧٨	فأخذتهم الرجفة	١٠٢	٥١	الذين اتخووا دينهم	٦٢
٧٩	فتولى عنهم	١٠٣	٥٢	ولقد جئناهم بكتاب	٦٢
٨٠	ولوذا إذ قال	١٠٦	٥٣	هل ينظرون إلا	٦٣
٨١	إنسكم لتأتون	١٠٧	٥٤	إن ربكم الله	٦٤
٨٢	وما كان جواب	١٠٨	٥٥	لادعوا ربكم تضرعا	٦٨
٨٣	فأتجيئناه وأهله	١٠٩	٥٦	ولا تفسدوا في الأرض	٧٠
٨٤	وأمطرنا عليهم	١١٠	٥٧	وهو الذي يرسل الرياح	٧٢
٨٥	وإلى مدين أخاهم	١١١	٥٨	والبله الطيب يخرج	٧٦
٨٦	ولا تقعدوا بكل	١١٢	٥٩	لقد أرسلنا نوحا	٨١
٨٧	وإن كان طائفة	١١٣	٦٠	قال الملأ من قومه	٨٢
٨٨	قال الملأ الذين	١١٤	٦١	قال يا قوم ليس بي	٨٣
٨٩	قد افترينا على الله	١١٥	٦٢	أبلغكم رسالات ربي	٨٤
٩٠	وقال الملأ الذين	١١٦	٦٣	أو عجبتم أن جاءكم	٨٥
٩١	فأخذتهم الرجفة	١١٧	٦٤	فكذبوه فأجيئناه	٨٦
٩٢	الذين كذبوا شعيبا	١١٨	٦٥	وإلى عاد أخاهم هودا	٨٩
٩٣	فتولى عنهم وقال	١١٩	٦٦	قال الملأ الذين	٩٠
٩٤	وما أرسلنا في قرية	١٢٧	٦٧	قيل يا قوم ليس	٩١
٩٥	ثم بدلنا مكان السيئة	١٢٨	٦٨	أبلغكم رسالات ربي	٩٢
٩٦	ولو أن أهل القرى	١٢٩	٦٩	أو عجبتم أن جاءكم	٩٣
٩٧	أفأمن أهل القرى	١٣٠	٧٠	قالوا أجتئنا	٩٤

رقمها	الآية المفسرة	ص	رقمها	الآية المفسرة	ص
٩٨	أو أمن أهل القرى	١٣١	١٢٤	لأفطعن أيديكم ...	١٥٥
٩٩	أفأمنوا مكر الله ..	١٣٢	١٢٥	قالوا إنا إلى ربنا ...	١٥٥
١٠٠	أو لم يهد للذين يرثون	١٣٣	١٢٦	وما تنقم منا إلا أن ...	١٥٥
١٠١	تلك القرى نقص ..	١٣٤	١٢٧	وقال الملأ من قوم ...	١٥٥
١٠٢	وما وجدنا لأكثرهم	١٣٥	١٢٨	قال موسى لقومه ...	١٥٦
١٠٣	ثم بعثنا من بعدهم ..	١٤١	١٢٩	قالوا أؤذينا من ..	١٥٦
١٠٤	وقال موسى يا فرعون	١٤٢	١٣٠	ولقد أخذنا آل ...	١٥٩
١٠٥	حقيق على أن لا أقول	١٤٣	١٣١	فإذا جاءتهم الحسنة ...	١٦٠
١٠٦	قال إن كنت جئت	١٤٣	١٣٢	وقالوا مهما تأتنا ...	١٦١
١٠٧	فألقى عصاه فإذا ..	١٤٤	١٣٣	فأرسلنا عليهم ...	١٦٢
١٠٨	ونزع يده فإذا ..	١٤٥	١٣٤	ولما وقع عليهم الرجز ...	١٦٣
١٠٩	قال الملأ من قوم	١٤٦	١٣٥	فلما كشفنا عنهم ...	١٦٣
١١٠	يريد أن يخرجكم	٤٧	١٣٦	فانتقمنا منهم ...	١٦٤
١١١	قالوا أرجه وأخاه	١٤٨	١٣٧	وأررنا القوم ...	١٦٦
١١٢	يا أتوك بكل ساحر	١٤٩	١٣٨	وجاوزنا ببني إسرائيل ...	١٦٩
١١٣	وجاء السحرة فرعون	١٥٠	١٣٩	إن هؤلاء متبر ...	١٧٠
١١٤	قال نعم وإنكم	١٥١	١٤٠	قال أغير الله أبيخكم ...	١٧١
١١٥	قالوا يا موسى إما أن	١٥١	١٤١	وإذا أنجيناكم من ...	١٧٣
١١٦	قال ألقوا فلما ...	١٥٢	١٤٢	وواعدنا موسى ...	١٧٦
١١٧	وأوحينا إلى موسى أن	١٥٣	١٤٣	ولما جاء موسى ...	١٧٧
١١٨	فوقع الحمد وبطل	١٥٣	١٤٤	قال يا موسى إني ...	١٧٨
١١٩	فغلبوا هنالك ...	١٥٣	١٤٥	وكتبنا له في الألواح ...	١٨٤
١٢٠	وألقي السحرة ساجدين	١٥٣	١٤٦	سأصرف عن آياتي ...	١٨٥
١٢١	قالوا آمنا برب العالمين	١٥٤	١٤٧	والذين كذبوا ...	١٨٦
١٢٢	رب موسى وهارون	١٥٤	١٤٨	واتخذ قوم موسى ...	١٨٨
٢٢٣	قال فرعون آمنتم به	١٥٤	١٤٩	ولما سقط في أيديهم ...	١٨٩

رقها	الآية المفسرة	ص	رقها	الآية المفسرة	ص
١٥٠	ولما رجع موسى ...	١٩٠	١٧٦	ولو شئنا لرفعناه ...	٢٦٥
١٥١	قال رب اغفر لي ...	١٩٢	١٧٧	ساء مثلاً القوم ...	٢٦٧
١٥٢	إن الذين اتخذوا ...	١٩٣	١٧٨	من يهد الله فهو المهتدي ...	٢٦٩
١٥٣	والذين عملوا السيئات ...	١٩٦	١٧٩	ولقد ذرأنا لجهنم ...	٢٦٦
١٥٤	ولما سكنت عن موسى ...	١٩٧	١٨٠	وقه الأسماء الجسني ...	٢٧١
١٥٥	واختار موسى قومه ...	١٩٨	١٨١	وعن خلقنا أمة يهدون ...	٢٧٤
١٥٦	واكتب لنا في هذه ...	١٩٩	١٨٢	وانذين كذبوا بآياتنا ...	٢٧٥
١٥٧	الذين يتبعون الرسول ...	٢٠٣	١٨٣	وأمل لهم إن كيدي ...	٢٧٥
١٥٨	قل يا أيها الناس إني ...	٢٠٧	١٨٤	أو لم يتفكروا	
١٥٩	ومن قوم موسى ...	٢١٢		ما بصاحبهم ...	٢٧٦
١٦٠	وقطعناهم أثتى ...	٢١٣	١٨٥	أرلم ينظروا في ملكوت	
١٦١	وإذ قبل لهم اسكنوا ...	٢١٤	٢٧٧		
١٦٢	فبدل الذين ظلموا ...	٢١٥	١٨٦	من يضل الله فلا ...	٢٧٧
١٦٣	واسألهم عن القرية ...	٢٢٥	١٨٧	يسألونك عن الساعة ...	٢٧٩
١٦٤	وإذ قالت أمة منهم ...	٢٢٦	١٨٨	قل لأملك لنفسي ...	٢٧٩
١٦٥	فلما نسوا ما ذكروا ...	٢٢٧	١٨٩	هو الذي خلقكم من ...	٢٨٦
١٦٦	فلما عتوا عما نهوا ...	٢٢٨	١٩٠	فما آتاها ما صالحا جعلنا ...	٢٨٧
١٦٧	وإذ تأذن ربك ...	٢٣٥	١٩١	أيشركون ما لا يخلق ...	٢٨٩
١٦٨	وقطعناهم في الأرض ...	٢٤٨	١٩٢	ولا يستطيعون لهم نصرا ...	٢٨٩
١٦٩	خلف من بعدهم خلف ...	٢٥٠	١٩٣	وإن تدعوم إلى الهدى ...	٢٩٠
١٧٠	والذين همسكون ...	٢٥١	١٩٤	إن الذين تدعون من	
١٧١	وإذ نتقنا الجبل ...	٢٥٥		دون ...	٢٩١
١٧٢	وإذ أخذ ربك ...	٢٥٨	١٩٥	ألهم أرجل يمشون بها ...	٢٩٢
١٧٣	أو تقولوا إنما أشرك ...	٢٥٩	١٩٦	إن ولي الله الذي ...	٢٩٣
١٧٤	وكذلك نصرف الآيات	٢٦٠	١٩٧	والذين تدعون من	٢٩٤
١٧٥	واتل عليهم نبأ النبي ...	٢٦٤	١٩٨	وإن تدعهم إلى الهدى ...	٢٩٤

رقها	الآية المفسرة	ص	رقها	الآية المفسرة	ص
٢٩٩	خذ العفو وأمر بالعرف	٢٩٤	٢٠٣	وإذا لم تأتهم بآية	٢٩٧
٢٠٠	وإما يفرغتك من الشيطان	٢٩٥	٢٠٤	وإذا قرىء القرآن	٢٩٨
٢٠١	إن الذين اتقوا إذا ...	٢٩٦	٢٠٥	واذكروا ربك في نفسك	٣٠٠
٢٠٢	ولخوانهم يمدونهم في	٢٩٧	٢٠٦	إن الذين عند ربك	٣٠١

رقم الإيداع ١٩٧٦ / ٥٦٩١

